طرائف

ذكريات وعجايب

في أحوال الأولين والسوالف

جمعه وألفه

محمد بن محمد بن خريف التويجري

القصيم - بريدة

المجلد الأول

إليك الضالة المنشودة

دار العاصمة

للنشر والتوزيع

طرايف ذكريات وعجايب

في أحوال الأولين والسوالف

(١)

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

الصف والإخراج دار العاصمة للنشر والتوزيع

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى جيل اليوم . . .

فهذه محفوظات ، لمأثورات ، وعِبر ، ووقائع ،

وأحوال ، عاشها الآباء ــ والأجداد ، الأوائل ،

لأخْذ العِظَة فيها ــ وحتى لا تَنْدَثِر ،

لتدعوا لمن سجَّل لكم مآثر ماضيكم .

المـؤلـف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الثَّانِيَةِ

الحمد لله رافع السبع الشداد، عالية بغير عماد، واضع الأرض ومرسيها بالأطواد، وجاعلها مقرًا للعباد، خلق الخلق وقسم بينهم الأرزاق، وفاوت بينهم في العقول والأخلاق، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

أَمَّا بَعْدُ: حيث حُضيَ هذا الكتاب بالقبول، واستفاد منه الكثير، بفضل الله تعالى، وقد نَفَدت الطبعة الأولى، قمنا بعون الله تعالى بطبعه مرة ثانية، مَزِيدَة ومُنَقَّحَة، قد مَزَجْنا فيه الجزء الثالث مَزْجًا، وحذفنا بعض الأولى، فأَبْدلناه بجديد، نسأل الله القوي المنان: إن كان عملنا هذا صالحًا يرضيه، أن ييسر نشره بين العباد، والانتفاع به، بفضله الواسع، فإنه ولي التوفيق، والمطلع على السرائر، وهو على كل شيء قدير.

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الأولى

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، فَضَّلَ العرب بأشرفِ الرُّسلِ وأفضل الكتب، ووعد بحفظ القرآن إلى آخر الدَّهر، أحمده وأشكره وهو واهِبُ الحمد والشكر، وأشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له في ربوبيته وأُلُوهيته وأسمائه وصفاته، شهادة تنافي عموم الكفر، وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله نبينا وحبيبنا سيد البشر، الشافع المشفع في المحشر صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه السَّادة الغُرَر النجوم الزُّهَر، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: فأنا عندي معرفة شيء كثير من السَّوالف، والآثار، والذكريات، مما يعين على تثقيف النفوس، ومعرفة مآثِرِ العروبة؛ لأن النفوس تحب الوقوف على الآثار، وتتشَّوق لسماع الأخبار عن الآثار، من الغرائب، والنَّوادِرِ، والنُّكَتِ، والْحِكَم، والفوائد، وذلك أيضًا يُعين على فهم معاني القرآن، حيث نَزَلَ القرآن في مثل ذلك، فمن لم يعرف الآثار، فقد يغلط في فهم بعض معاني القرآن، كما قال بعضهم: (إن هذه السيارة مذكورة في القرآن في سورة يوسف ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ

﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ . . .﴾ [يوسف: ١٩] الآية: وهذا لأنه لم يعرف أن السيارة المذكورة في الآية: هم الْقَافِلَةُ، مجموعة من الناس، تَقِلُّ وتكثر، يسيرون في الطرق البرية، خلف الإبل أو الحمير أو البغال، ونحو ذلك، أما هذه السيارة فهي من الصناعات الحديثة، وهذا الخطأ سببه هو عدم معرفة الماضي، الذي نزل في مثله القرآن.

وعامة ما أذكره من السَّوالف قد حفظته من أفواه مشائخ القَمْرا[١]، لأني أحفظ ما سمعته من وقت صِغَري فلا أنساه، وقد أسمع الشيء عِدَّةَ مرات، من عدة أشخاص، في أوقات متفرقة، فيكون قد استفاض عند الناس: إلاَّ ما عَزَوْتُه إلى قائله فهو كما يُذْكَر، وما لم يكن صالحًا للجميع[٢] تركناه، ولهذا لا تجد فيه سالفة إلاَّ وفيها فائدة في لفظها ومعناها، وتجد فيه أشْيَاءَ لَعَلَّك لا تجدها في غيره[٣]: وتجد فيه بعض الفوائد بلفظ وَجيز، ونُعِيد بعض الكلمات بلفظ آخر (كَشَرْح)، ولا نتعرض لإصلاح بعض الألفاظ العامية، لأَجل معرفة الماضي[٤].

وحيث كان كل شيء يحتاج إلى مُلْحَةٍ وتجميل، فإني أرى تَوْشِيحَ هذا الموضوع، بفوائد وحِكَم دينية، تكميلاً للفائدة واغتنامًا للفرصة فالحسنات يذهبن السيئات، وَنُدْرِجُها متفرقة بين طَيّات الكتاب، ليكون

(١) أهلِ القَصَصِ والسوالف.

(٢) يعني كل الفئات: رجال ونساء صغار وكبار.

(٣) وهو أَغْلَبه.

(٤) وَيَتَّسِقْ لك فهمه جيّدًا إذ استكْمَلْت تصفحه، لأنك تجد توضيح بعض المسائل في موضع آخر.

كالبستان مُنَوَّعِ الثِّمار، لترويح نفس القارىء حتى لا يمل هذا ولا ذاك، ونَبْدَأ بـذكـر مُغَايرة الأحوال الأخيرة عن الأحوال والآثار القديمة، لينفتح فهم القارىء لمعرفة الآثار، ويدخل من هذا الباب.

فمثلاً: كـان النـاس لا يعـرفـون السيـارات، ولا الطيـارات، ولا مكائن الماء، ولا الكهرباء، ولا البترول، ولا الغاز ونحوه، وإنما كانوا يسنون على النَّواضِحِ، من الإبل أو الحمير أو البقر وعلى ظهورهم، وكذلك يحرثون الأرض بآلات تجرها المواشي، أو يحرثون بالمساحي بأيديهم، وهو أكثر عملهم، وكذلك وسائل النقل لديهم، هي: الإبل والحمير والبغال، وربما يحمل بعضهم أغراضه على رأسه وظهره، لقلة حصولهم على شيء من المواشي، في بعض الأحيان، وحين سمعوا بظهور الصناعات الخارقة لما يعرفونه، صاروا بين مصدق ومكذب، وقد كان رجال من أهل نجد يسمون «عُقيل»، يذهبون للغربية لتسويق الإبل والخيل هناك (والغربية هي بلاد الشام وفلسطين ومصر والعراق، بالنسبة لبلاد نجد، لأنهم يتغربون فيها عن بلادهم)، وفي إبّان بدء العصابات الصهيونية، لغزو فلسطين، حالة الاستعمار البريطاني، وإذا بعض رجال عُقيل حضروا هناك، ورأوا طائرة في الجو، فلما قدموا لنجد، وجلسوا في (جردة) السوق، يتبادلون السَّوالف عما رأوا هناك، قال أحدهم إننا رأينا الحديد يطير في الهواء، فقال الجماعة كذبت، فاستشهد بصاحبه وقال: هذا مسلّم اسألوه، فقالوا: ما تقول يا مسلم، هل هو صحيح، الحديد يطير في الهواء؟ فقال، (لا أنا ما رأيته) فغضب عليه صاحبه حين أَكْذَبَهُ، فلما خَلا به قال: كيف أَكْذَبْتَنِي وأنت قد رأيت

ذلك مثلي؟ فقال مُسَلّم: أنا لا أحب أن يُكذِّبونني مثلك، دع هذه الغرائب تأتيهم من غيرنا.

وفي عام واحد وستين وثلاثمائة وألف هجرية تقريبًا، جاءت طائرة عابرة، من الغرب للشرق، آخر الضحى، من فوق بريدة وقراها، فانزعج الناس منها، وهرب بعضهم إلى بعض، وكثر الصراخ، وخرجوا من البيوت، حتى قال بعضهم: هذه صيحة القيامة، وأخبرني من أثق به، أن امرأة سقط ولدها من بطنها، من شدة الإنزعاج من جلبة الطائرة، (وأنا رأيت المرأة تغطي جانب وجهها، تنظر إلى الطائرة وتقول: انظروا رؤوسهم فوقها ينظروننا، (يُخَيَّلُ إلى المرأة ذلك من ذهول عقلها)، حتى البهائم انزعجت، فخرجت الإبل من السواني وخربت عُدّة السواني، والبقر انزعجت وقطعت الحبال (الربط) وهربت، والبدو في البر انزعجوا وهربت إبلهم وغنمهم، إلى آخر ما حصل من ذلك الشيء العجيب، وحين بدأت تأتي السيارات: صاروا يهربون منها، حين يسمعونها من بُعد، فيختفون خلف الجدران، وخلف الأثل، ويغلقون البيوت وينظرون من فوق السطوح، مع ما يصيبهم من الخوف والرهبة منها، فأنا أدركت ذلك وشاهدته، فصاروا بعد ذلك يعللون أنفسهم ويتناقلون أثرًا، أو حديثًا «أنه في آخر الزمان يتكلم الحديد ويقرب البعيد».

وأنا أدركتهم ولم تظهر مكائن الماء ولا يعرفونها، وأول ماكينة ظهرت عندنا للماء، ماكينة تشتغل على فحم حطب عادي فقط، هو مادة وقودها، يذهب رجال من الجماعة أعرفهم، يصلحون لها فَحْمًا

من حطب البر، وينقلونه لها على الإبل، ثم ظهرت ماكينة تشتغل على الديزل، هو مادة وقودها، فاهتال الناس منها أيضًا، وصاروا يزورونها ينظرون إليها، كما كانوا يهتالون من الأولا «كَيْفَ ماءٌ يشْتَعِل نارًا ويَعْمَلُ بالحديد هكذا».

أما استعمالهم الإبل، فهذا شيء عادي قد نشأوا عليه، فيذهبون به، ويأتون به، ويُنِيْخُوْنَه ويركبونه، حتى كانت بعض البنات والنساء تشْمُر (تقفز) على ظهر البعير وتركبه، حتى وهو واقف، وهو يمشي، فكيف الرجال والأولاد؟ ويحملون أثقالهم عليها، أسهل من حملهم على شاة.

أما المادة الاقتصادية عندهم، فهو الإنتاج الوطني، (التمر واللبن والقمح والشعير والدخن وغير ذلك)، مع اعتياد الاقتصاد في المعيشة، فإذا حصل لأحدهم ملء كفه تمرًا أو نحوه كفاه نهاره كله، وليس كلهم يجدون تمرًا في بعض الأزمان، وربما يحصل عليهم في بعض الأوقات مسغبة جوع وشدة خوف، وَحِصار وقتل ونهب بسبب مُغايَرَة الحكام (الملوك)، يأتي هذا الحاكم فيستولي على البلد، بعد قتال ونهب، ثم يأتي الحاكم الآخر، فيحاصرهم ويحاول الاستيلاء عليهم، وقد يعاقبهم على مُوالات الحاكم الأول، فلا تزال البلاد مُضْغَة آكل، حتى قَيَّضَ الله الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى، فحكم البلاد ووحدها، إذ لم نعرف في التأريخ، مثل ما حصل لنا في هذا الزمان، في ولاية آل سعود والحمد لله، من الأمن في الأوطان، والصحة في الأبدان، والأمن على الحقوق والأنفس، ورغد العيش، وتقارب المواصلات وظهور

الإسلام، وعلو كلمة الله، أطال الله عزهم وهدايتهم، وتوفيقهم، وأبقاهم للعباد والبلاد والإسلام، آمين. اللهم صلِّ على محمد. (انتهى).

سئل ابن المقفع عن البلاغة؟، فقال: هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها.

قيل:

خطـــو الحَليلـــه تِقِـــلْ دَرِّه   تْسَلِّيـك عـن بعـض الاحـوالـى
وخطـو الحَليلـه كِفـىٰ شـره   تحـدث علـى كبـدك الْقـالـي

وقيل:

أحـــدٌ عنـــده عَـــذْرًا زينـــه   قـــاعـــد ومْبَصِّـــطْ فـــي داره
إن جَـــاب شْـــوَيٍّ قَنْعَـــتْ بـــه   وإن مَـــا جـــا شِيْـــنٌ عَـــذَّارِه
واحْـــدٌ عنـــده شِيْبَـــةْ غـــار   انطـــل مـــن عنظـــل جـــواره
يسمـــع حِسَّـــهْ مَـــنْ بـالمجلـس   تـــزجـــر كِنَّـــهْ فـــي مِنْطـــارِه
عســـاك مـــا تبلـــى بـــالعـــاقـــه   أَجٰـــارك ربـــي بـــاجـــواره

(ومن أمثال: زَيْن العَيْن):

الطِّيْـــب مـــا يجـــي ببـــلاش   عَيّـــا ابـــلاشٍ يجيبـــه
يـــا كـــود بفعـــل وخســـارة   وشـــيء مـــن مـــالـــك تصخـــى بـــه

* * *

فضائل الإمام: الملك عبد العزيز، وإنابته

في أَوَاخِرِ حياة الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمـٰن آل سعود، رحمه الله. تذكّر أحواله الماضية وما جرى له من المغامرات والأحوال المخيفة، وتذكر ما أمامه من النهاية والْمَصِير، فحصلت له إِنَابَة إلى الله تعالى، فجمع بعض العلماء يشاورهم، (وكانت عادته إذا حَزَبَه أمر مهم: يجمع العلماء وعقلاء الجماعة، يشاورهم، فَيَخْلُص له رأي صالح شرعي). فعرض عليهم هذا الأمر الذي أهمه، قال: ما رأيكم، فأنا غامرت وتجشمت بعض الأمور، كما تعلمون، فذنوبي كالجبال، والآن ماذا ترون لي في الخلاص؟ فأطرقوا وسكتوا، كل واحد يرجو أن يتكلم غيره، فأعاد عليهم ثانية، أو ثالثة: ماذا ترون لي؟.

فقال أحدهم: يا عبد العزيز: أنت إن كانت ذنوبك كالجبال، فحسناتك مثل الليل يغطي الجبال؛ فالدنيا قبل حكمك فوضى غبراء؛ تسفك الدماء، وتنهب الأموال، وتنتهك المحارم، وتخاف الطرق، وتضاع الحقوق، ويضاع الدين والصلاة، كما هو معلوم.

فلما حكمت يا عبد العزيز: حقنت الدماء، وحفظت الأموال، وصنت الأعراض، وأمنت السبل، وأقمت الشرع والصلاة، وأقمت الحدود، وحميت حوزة الإسلام، فحسناتك عظام لا تحصى، بل كل

من عمل خيرًا بسببك فلك مثل أجره، في حياتك وبعد مماتك. غفر الله لك، وأطال في عمرك، وأصلح لك في عقبك. فقال الجماعة آمين، أحسنت جزاك الله خيرًا. فبكى الإمام عبد العزيز، فرِحًا بهذه البشارة، وطال بكاؤه. ثم أشار لهم فقاموا، وَدَّعوه وانصرفوا، وهم يدعون له بحسن الخاتمة، ونحن حتى الآن ندعوا له بالمغفرة والرحمة، ولعقبه بالصلاح والتوفيق، وهذه الخشعة من الإمام عبد العزيز رحمه الله، هي من آثار قول الله تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦]. (أخبرنا بذلك غير واحد من أهل الثقة، رحمهم الله).

كذلك: من عناية الإمام عبد العزيز رحمه الله، بملة إبراهيم عليه السلام. كان رجل من الجماعة، قد استوطن الشام (حَلَبْ) فأرسل فلوسًا للرّشودي، يبني له فيها مسجدًا هنا، فقام الرّشودي ببناء مسجد الجردة، المعروف، فصادفت الحال أن رآه الإمام عبد العزيز، حالة بنائه، فسئل الرّشودي، قائلاً: (على نَفَقَةِ مَنْ: بِنَاءُ هذا المسجد)؟ فقال: الرّشودي: هذا فلان من الجماعة، قد استوطن حلب، وأرسل لنا فلوسًا نبني له فيها مسجدًا، فجعلناها في هذا المسجد، فقال الإمام، الملك عبد العزيز، لا نحب أن يُبْنىٰ عندنا مسجد نصلي فيه، دراهمه ممن يسكن في حلب، ولكن حنا نعطيك نفقته، وأرجع على راعي حلب دراهمه. «قصة المسجد هذه، ذكرها صالح العمري، في كتابه آل سليم وأعيان بريدة». (انتهى).

قصيدة القاضي[1]: أدب وحكم

الصبر محمود العواقب فِعْالـه
والعقل أشرف ما تحلت به الحال

والصمت به سر سَعَدْ من يناله
والهـذر بـه شـر وشـؤم وغـربـال

وأشر آفات الفتى البخـلُ بمـالـه
وأشر منه المطل في كل ما قال

ولا خير با للي ما يُصَدِّق مَقاله
فِعْـلٌ بحـالات قصيـرات وطـوال

فـالإبـل معلـوم بـالأيـدي عقـالـه
والخيل تزلج بالشبيلي والأقفال

والرجل بالواجب لسانه عقاله
لَقـْالَ علـم تـم لـو حـال بـه حـال

الصـدق يَبْقـىْ والتِّصِنَّـفْ جَهـْالِـه
والْقِدْ ما لانَتْ مُطاويه بِاتْفال[2]

والمـال كِثْـرُه عـارٌ إلاّ بْحـالِـه
فضـلٌ ومعـروف لِيَنـال مـا نـال

ومن جاد جَدّه صار ضده نعاله
ومن ساءت اخلاقه فراقه هو الغال

ومن لا يفارق موضع الهضم عاله
فالقهر والحيف مثل السيف قتال

ومن هاش حاش المرجله والشِّكاله
ومن ذَل ذِل وكل من حال يغتال

---

(١) شاعر نجد: محمد بن عبد الله القاضي، من أهالي عنيزة.

(٢) كانوا إذا أرادوا استعمال القِدْ للربط به، وضعوه بالماء في قعره (الْغَرْبَةْ الْمُنْتِنْ) لعدة أيام، حتى يلين جدًا، فكلما يَرْضَخْ باللين يكون أجود لشده وقوته، (يعني إذًا فلا يُلَيِّنُهُ تَفْلُكَ فيـه مِنْ فَمِك) ويعني: هكذا الصدق والكذب (التَّصنُّفْ).

ومن جاد ساد ومن يشح بحلاله ... ما أدرك مرامٍ ولا صعد مصعدٍ عال

والفقـر هَـدّامٌ لِمَـنْ بِـهْ صَعـْالِـه ... والجود مِنْ ماجوده إنْ ثار بعقال

ولا يفتخـر مَـنْ جـاد جِـدُّه وخـالـه ... هي بالهمم لا بالرمم مثل ما قال

فالجمر يمسي كالخلاص شتعاله ... ويصبح رماد خامد عقب الاشعال

ومن قالب الدنيا بالاريا لحاله ... اخطا وصاب وله دليل بالاقوال

كـم خَيِّـرٍ مـا نـال منهـا سـؤالـه ... وكم ثَوْر هَوْرٍ ساعفت له بالاقبال

وكم عاقل بَهْ حـاذِق راس ماله ... عقله وكم بِهْلُول عَقْلٍ جـامِعٍ مال

فـالسَّبُـعْ رزقـه مـن جيفهـا ختـالـه ... وجند ضعيف مرغد رزقه أشكال

ومـن كـرر أفكـاره بـالاشيـا بـدالـه ... ضغاين تكْشِف خفيات الأحوال

فإن جَلْ رجل في عيونك فْما لُه ... ووازن ثقـل عقلـه بعقلـك بمثقـال

وتكشف ضغاين غايته بالرساله ... أو لفـظ مـرسـالـه بعنـوان مـا قـال

ويَبِيْن لك فضل الرجال بمجاله ... إن جا جدال فيه فض للأشكال(١)

إيلا صرت ما تدعا إيلا صار قاله ... فتراك من حسبة رجال بالازوال

والصاحب الصافي تحمل خَمـاله ... يلزمك وإلا الضد حده على الجال

واِصْحـا ترى طرد المقفى عَذْا له ... يتعبك والمقبل عطه وجه واقبال

تـرى بـوجـه اللـي يـودك دلالـه ... وضده بِمَنْ تكره تراهن بالاغزال

واحفظ صحيح أو صاة أمين الرسالة ... لا تغضب أو تجزع لِياحَلْ بك حال

من ضاق ما ادرك مرامه محاله ... والْبِصِرْ قبل يربع الفكر لك تال

---

(١) قوله: إذا جاء مِجَالٍ فيه فَضّ للإشكال: أي: إذا جاء موجب لتخليص المشكل بين الناس، أو قالة الحرب ونحوه، فإن ستدعوك له لعلمهم كفأتك فيه فأنت ذاك، أو ستدعوا غيرك فأنت من عداد الأزوال فقط.

فالدهر له حال اكترابٍ وحاله ... ينفك منه العسر باليسر ينجال
كم ضيقة ينفض مشكل مجاله ... بلطف منه ما عاد يخطر على البال
فإن رمت رأي فاستخر ثم واله ... واعزم واجزم على الحال بالحال
كم فات راعي الهون عِلْيًا يناله ... وكم حصل العليا غشوم بالأجزال
ليا صدر بالرأي والشور قاله ... ما طاع ذلال برايه وعذال
ومن يفش أسراره وقع بالجهاله ... عطا العدو زمام عقله وهو عال
فالسد له خل وثيق صفاله ... نقاض مفتول بالاريا وفتال
ليا احتجت رأي فُرْ فِكْرٍ تخاله ... يخاطب عواقب كل أمر بالإجمال
يبصرك باشيا مشكلات صحا له ... يوريك ما صور على صفحة البال
واِشْك الحوال لمن تحول بحا له ... يسعدك أو يبصرك أو يشرح البال
هذا وكل من ادعى بالكماله ... عج وتاه بمظلم الليل بالتلال
ومن اغتر بالدنيا فهو من اهباله ... ما يعتبر باجال جولات الاجيال
صولات دولات عصاة مضى له ... ملكٌ وحطتهم تواريخ وامثال
ذَهْبَوا وْذِهْبَ المال مَنْ له ولاله ... والحمد هو والمجد يبقى لِيا التال
والعمر ظل زايل لا محا له ... وبالحشر ينشر عن عمل وزن خردال
فالله تواب مثيب نسا له ... عفوه ليانشر الصحايف بالأعمال
لياجا غريم الروح باغي زواله ... والروح يصعد بيد قصاف الآجال
وشالوا ثيابه ثم دَنَّوْا آله ... زفوه عَجْلٍ لين جَوْبه على الجال
قبر يشوف الهول به والهواله ... متفرد في وَحْشٍ مظلم خال
طالبك روح لا عليها ولا له ... تغفر خَطا ما فات يا غافِر الزَّال
وصلوا على المختار والصحب وآله ... ما الْتَجْ حجاج بهذيك الاميال

وقال أيضًا :

يا محل[1] العفو عفوك يا كريم ولطفك اللي كافل كل الأنام
يا سميع ويا بصير يا عليم يا قوي ويا متين ويا سلام
يا حميد يا مجيد يا حكيم يا عزيز ذو الجلال والاكرام
يا عطوف يا رؤوف يا رحيم جل شانه ما يهام ولا يرام
بنورك اللي يوم ناجاك الكليم دك سينا خر موسى ثم قام
موحد يدعوك بالليل البهيم بالتخضع والتضرع بالظلام
خاشع لك خاضع لك مستقيم أسألك وأدعوك بَاسْمَاكَ العظام
أن ترأف بحال مَنْ جسمه سقيم علته تبراه له خمسة اعوام
داوني يا دواك من داء أليم واشفني بشفاك يا من لا يضام
من انتحالي دوك حالي حام حيم والمرض رض الاعضاء والعظام
مدله نفسي بتدليه الفطيم عن لذيذ النوم مع طيب الطعام
ولا لي أشكو غير للرب الرحيم خالق السبع السموات العظام
ذا ومع ذا لو تمادوا بالنعيم فإن عمر المرء مرده للعدام
كل بن أنثى ولو طالَ سليم لازمٌ يشرب بكاسات الحِمام
من عميم احسانك ارحم يا رحيم يوم نزع الروح وإن جاها حِمام
قامَ يصعدها ويحدرها غريم في عضاها من الدماغ إلى الابهام
شاخص طرفه وريقُه ريقُ هيم كل عرق بالعرق يرشح شمام
يوم نَزَعَ الروح لَجَّنْ الحريم وجضَّوْا اهل البيت واشتغل الغلام
والشفيق اللي يوده والرحيم يستشين بشان تجهيز قوام

---

(١) لو قال يا صاحب لكان أحسن.

والخشب دُنٍّ مع الخام الرخيم ... وفصلوله وزرة فوقه حزام
ثم شاله كل شغموم حشيم ... مرجلين معجلين بالهمام
ووضعوه بموحش قبر ظليم ... ووسدوه اللبن عن ريش النعام
واكشفوا عنه الغطا قبل الهديم ... وفككوا عنه العصايب والحزام
ورصفوا فوقه من اللبن الضخيم ... وادخلوه وودعوهُ بلا كلام
وَحَّدوه بموحِشٍ ماله نديم ... غيرُ ما قدم من أعمال قدّام
عند خلق بارزين في صميم ... صامتين ما يردون السلام
حال ما خلوه بالبرزخ مقيم ... جاه مَنْ ناجاه عن ثلاث تمام
إسأله يلهمك رشدك يا غريم ... في ثباتك للملائكة الكرام
وعقب هذا البعث والهول العظيم ... يوم حشره يوم نشره للأنام
يوم يبعث كل ذي عظم رميم ... في صعيد للحساب وللخصام
يوم نصبه للصراط العظيم ... لنسل يافث ثم حام ثم سام
حاسرين عابرين به نظيم ... ذا يصيح وذا يطيح من الزحام
وذا جريح وذا عطيب وذا سليم ... وذا يمر مرور برق في غمام
وذا يسر وذا يجر إلى الجحيم ... وذا إلى الفردوس مع باب السلام
وذا يخلد بالنعيم اللي مقيم ... وذا مسيم في لظي دوم الدوام
كيف من يقن بهذا يا غشيم ... يفنى للدنيا ويغرى بالحطام
وين أبوك وين جدك؟ يا عديم ... وين خالك وين خلك والعمام؟
وين شبان يهدون العديم ... وين شيبان شغاميم كرام؟
صيروا في قبورهم مثل الهشيم ... خامدين هامدين في هدام
تبرم الدنيا وينقض للبريم ... وآخرها منقضية مثل الاحلام

يـا أحـد يـا واحـد شـأنـه عظيـم		يـا صمـد يـا عـالـم كـل العـلام
سـامـع فـي غبـة البحـر البهيـم		صوت يونس يوم نادى بالظلام
يـا إلٰهـي خـذ بيـد قلـب سليـم		عـن عـذابك يـوم للخلـق ازدحـام
من بحر مجدك وجودك يا كريم		نفحـــة نسعـــد بهـــا دوم الـــدوام
أنـا دسـت الخطـايـا مـن قـديـم		طالبك صفحك وعفوك لي ختام

❊ ❊ ❊

من حالات الأسفار

سار محمد الصمعاني، وصاحبه، يمشيان على أَرْجُلِهِما، من بريدة إلى مكة المكرمة، يريدان الحج، فلما وصلا (رُكْبَةَ) أثناء الطريق، وإذا قد قربت أيام الحج، فلا يمكنهما وصول مكة في هذه الأيام، قبل فوات الحج؟ فقال له صاحبه: قد فاتنا الحج دعنا نرجع؟ فقال اعزم وتوكّل على الله، فما زال صاحبه يَعْذِلْ به يقول: قد كَلَّيْنا من التعب ولسنا مظنة إدراك الحج فدعنا نرجع؟ فقال: نحن في سبيل الله، ونرجوا أن يتم لنا ما أدرنا به وجهه، فبينما هما يتحاوران، إذ لحقتهم سيارات الإمام عبد العزيز آل سعود، حيث كان يحج على السيارات على طريق البر، فأوقفوا وحملوهما إلى مكة، فما تم يومهما إلا وهما يطوفان بالكعبة، نسئل الله من فضله ورحمته.

أيضًا:

سافرت قافلة، أوقات الإبل، إلى بعض بلدان الخليج، فعصفت عليهم ريح شديدة، في البر أثناء الطريق، واستمرت عدة أيام، فَعَقَّلُوا إبلهم تلك الأيام، ونفد ماءهم، وكادوا يهلكون ظمأً، فلما رأوا الهلاك، ذبحوا إحدى الإبل وأخرجوا كرشها، وعصروا فرثها، وشربوا مائه، إلا أحدهم أبت كبده أن تشرب ماء الكرش، ثم ربطوا أنفسهم

على أَشِدَّة الإبل، وتركوها تذهب هي كي ترد الماء كالعادة، وهم على ظهورها لا شعور لهم، (وكانت الإبل ترد الماء حيث كان: إذا تركت على هواها، معها حذاها وسقاها)، فوردت الماء، وإذا عليه رجال، فأنزلوهم من ظهور الإبل، وسقوهم كالعادة، فحيوا إلاَّ الذي لم يشرب من ماء الفرث فقد مات، فأحدهم موجود هنا حتى الآن. (انتهى).

* * *

من مآثر العروبة: فُهَيد والجربا

ومن عادات أهل البادية: أن لكل قبيلة شيخٌ يرأسهم، (والشيخ هنا: هو كبير الجماعة)، حيث قدَّمَتْهُ فيهم يمينُهُ بالشجاعة والسخاء وإصَابَةِ الرأي، وكلهم يخضعون لأمره، وينفذون أوامره مهما كانت، وكل فخذ منهم أو عائلة، لهم رئيس يتبع هذا الرئيس الكبير، كما هو معلوم.

وهناك إحدى القبائل الكبار، شيخهم يقال له الجربا: وظهر في جماعته شاب اسمه (فهيد)، تطلع للإمارة في جماعته وصلح لها، لشجاعته وسخائه وسداد رأيه، ولكن الأمير الجربا لم يأنس لنبوغ فهيد، مما حَدَا بافهيد وجماعته أن يرتحلوا وَيَتَّحِدُوا عن الجربا وجماعته، فاتحدوا ونجحوا، حيث استطاعوا مقاومة الغارات والهجمات الشعبية الفوضوية، ففيه معنى قولهم: (اعتمد على نفسك)، وحين استقرت حالهم على ذلك، (وكان لافهيد أخ طيب، يوازره بالرأي والأمر)، أشار على أخيه فهيد، أن يذهب يخطب بنت الأمير (الجربا) يتزوجها، وكانت نادرة في الجمال والذكاء، فانتبه فهيد واهتز وقال: ما يزوجنيها إلا يزوجنيها، هاه ما يزوجنيها، إلا يزوجنيها، يردد هذا الكلام على نفسه، نفيًا وإثباتًا، ثم استقر رأيه على

أن يذهب إليه يخطبها، لما يراه من أَهْلِيَّتِهِ لذلك، فركب ناقته الذلول، وقدم على الأمير الجربا، وكان الجماعة جلوسًا حول الأمير في بيته، وحين رأوا فهيد أقبل عرفوه، فأخبروا الأمير: (هذا فهيد جاء يالأمير): فلامسه الغيض والإنقباض، فسلم عليه فهيد فناوله الأمير يده عن جفاء، لظنه أنه جاء يستنصر به على أعدائه، ثم سلم على الجماعة وجلس، وصبوا له القهوة، فلما استقرَّ به المكان واطمئن، حادثه الأمير بكلام جافى بناءً على ظنه، قال: (وش جابك يا فهيد: هم جوك اعنزه؟) يعني بذلك هجوم بعضهم على بعض، يعني (هل تريدنا نفزع معك عليهم)؟، فاعتز فهيد بنفسه وانتخا: وأجاب الأمير بمثل قوله، قال: (عاد إيلاجون اعنزه أجي يَمِّكْ؟ قال الأمير: أجل وش جابك؟ قال جاى أبـي البنت: قال تكذب، قال ما أنا أكذب، قال أقول تكذب، قال ما أنا أكذب، أنا جاي أبـي البنت كان تعطينيها؟، فقال الأمير: رح جب أربعين ناقة من البل، (الإبل) والكحيلة (الفرس)، قال فهيد: أنا أجيب أربعين من البل، ولكن الكحيلة أنا ما أعرف أركب ألا هي، فقال الأمير لازم تجيب الكحيلة مع أربعين من البل، قال فهيد: أنا أجيب أربعين مع الأربعين، ثمانين من البل، وأما الكحيلة فأنا وش اركب إذا صاح الصياح؟ فقال الأمير: انهج جب أربعين من البل والكحيلة، وإلا ارجع في طريقك.

وحيث أيس فهيد من سماح الأمير عن فرسه الكحيلة، شامت نفسه عن البنت، شاحًا بفرسه، بجانب إمرأة، فقام يأتي بناقته ويحمل عليها رحله (عفشه) ويرجع لأهله.

أمَّا بنت الأمير: فهي في البيت، وعرفت فهيد حين قدم على أبيها، وتسمع نجواهما، وقد رغبت فيه، وأحبت إجابته، وأشفقت من إفلاسها منه، لأنه كفؤ لها، وإذا لم يتزوجها هو وأمثاله فمن يتزوجها إذًا، وهي إبنة شيخ القبيلة، وحين رأت المآمرة فشلت بين الرجلين، قامت تعمل سببًا لاستدراك الأمر، فأخذت الحبل، وذهبت تحتطب بعيدًا عن البيوت، حول طريق فهيد إذا رجع لأهله، لتكلمه بالأمر هي، فلما ركب ناقته وكر راجعًا، لَقَفَتْ له واعترضته، ونادته (يا راع الذلول باللّه رَيِّضْ أريد أنشدك، فقال: إقْفِي وراكِ مانِي فَيْد حَطّابات، فقالت ريض أنشدك وأنت ابْفالك، ألله يأخذ الرخوم؟، فريض ناقته، فلما وصلته قالت: سلام، قال عليكم السلام، قالت وش جابك ــ وش راح بكِ؟ قال: جيت أبغي بنت الجربا ولاعطانيها، قالت: وش يقول؟ قال: يقول جب أربعين من البل والكحيلة، وقلت أنا أجيب أربعين من البل، وأما الكحيلة فأنا ما أعرف أركب إلاَّ هي، فقال لازم تجيب الكحيلة، وقلت أنا أجيب أربعين مع الأربعين: ثمانين من البل، وقال جب الكحيلة وإلاَّ ارجع مع دربك، وقلت لا واللّه الكحيلة ما أنا معطيها، (هو عيا: وأنا عييت ورجعت).

قالت المرأة: اعطه الكحيلة، فقال: أعطيه الكحيلة؟ أنا وش أركب: أدخل بالرُّفَّه إذا صاح الصياح؟ فقالت أعطه الكحيلة وأنت رَبْحان، فقال: لا ما أعطيه الكحيلة، فكشفت اللثام عن وجهها وقالت أنت تشوفن؟ قال نعم: قالت: كِنَّكْ تشوف بنت الجربا، فأخذت قلبه بجمالها وذكائها، وعذوبة منطقها، وقال: أنتي صادقة؟، قالت نعم:

فقال لواللّه إلاّ أعطيه الكحيلة، فأرجع ناقته، وأناخها عند مجلس الأمير (الجربا) وقال: يالأمير: هأنا أروح أجيب أربعين من البل والكحيلة؟ فقال الأمير: نعم انهج جب أربعين من البل والكحيلة. فركب فهيد ناقته ورجع، فلما وصل أخاه أخبره أَخْبَارَه، وأنه طلب الكحيلة؟ فقال أخوه: قم اعزل أربعين ناقة واركب الكحيلة وسلمه إياها، فقال: وأنا وش اركب يا خوي إذا أعطيته الكحيلة؟ فعزم عليه أخوه، وأحضر له الإبل والفرس وأركبه، فذهب بها وقدم على الأمير الجربا: فاستلمها وأدخله على البنت، فلما أصبح الأمير، نادى أهله (هَيْش: نادوا فهيد يتقهوى) فحضر فهيد، فلما كان اليوم الثاني كذلك: فلما كانت الليلة الثالثة، قالت البنت لفهيد: وأنت تبغي تبتل عندي هنا؟ (تعني تبقى عندي هنا)؟ فقال: وين أروح؟ قالت انهج لاهلك، قال وأنت وش أحملك عليه؟ قالت: انهج أنت وأنا أجيك، فقال (لا) ما أنا ذاهب إلاّ أنت معي، قالت (أنت تعرف المرأة التي عارضتك وأنت على الذلول راجع؟) فانتبه لها وقال أهي أنت؟ قالت نعم، فحينئذٍ طابت نفسه أن يذهب ويتركها، على ثقة أنها تريده. فسار من عندها ليلاً على رجليه، وقدم على أخيه هكذا راجلاً، فضحك عليه جماعته، وقالوا لعب عليك الجربا، أخذ حلالك وفرسك وجئت وحدك حافيًا، فقال أخوه: يا آل فلان خلوا فهيد عنكم، والله يا ليلة نامها عند بنت الجربا إن تسوا سبعين اكحيله، فسكتوا.

فلما أصبح الأمير الجربا كالعادة، ناداهم: هيش، نادوا فهيد يتقهوى، وإذا البنت حوله قد تهيأت للجواب، قالت: وين فهيد ناهج

مـن ليلـه منهـاج جـدي، فثـار غضـب الأميـر أبـوهـا، وقـال: وراكِ مـا علمتينا، تتركينه يروح على رجليه، يا المشتومة ياللي كذا وكذا؟، قالت: وش يقعد له؟ قال انهجي له أنت وش تقعدين له عساك كذا وكذا، قالت: هاه، أروح له وأنت سَبَبْتَ حلاله، (جَعَفْتَ وِثْرَه، وَكَفَيْتَ صَبُوحَه) قال خوذى حلاله حل بطنك، وكذا وكذا، قالت: هاه، أروح له وأنت آخذ فرسه، إذا صاح الصياح دخل عندي بالرفه، كِنُّه حرمه؟ قال خوذي فرسه فرسكِ الذيب وكذا وكذا. فضحكت وأمرت الخدام العبيد أن يأتوا بإبلِ فهيد، وجملين من جِمال أبيها الكبار التي يحمل عليها عادة، يسمونها (جِمال الرِّحْلة). فحملت عليهن من بيت أبيها جميع تجهيزها وما تحتاجه هناك، من أواني وفرش وأَكْسِيَة وذِرْيان وغيره، ووضعت المقصر (المظلة) فوق أحدهن، وركبت فيه، وسارت إلى زوجها، وبيتها (عاصمة مملكتها) ومعها إبِلُهُ وفرسه وزيادة، وركب معها بعض إخوانها، يجنبون لها على الخيل. فلما طلع مظهـورهـا على جمـاعـة فهيـد، وكـانـوا ينتظـرونهـا: جعلـوا يتنـادون يبشـرونـه: يـا فهيـد ابشـر بـالكحيلـة، يعنـون البنـت، والكحيلـة معهـا الكحيلة، فقام فهيد باستقبالهم، وذبح عددًا من الإبل والغنم، وعشا جميع جماعته ومن حولهم، حتى شبعت الطيور والسباع من فضولها، فما مرّ عليهم يوم أَحلى من يوم قدومها. (انتهى).

* * *

صبـي حنّكته الشدائد

هناك صبـي ضربه أهله فهرب عنهم، في إحدى قرى وسط نجد، وله من العمر نحو عشر سنين، وحين جاوز محل أهله، صادف عربًا من البادية، يسيرون بمظهورهم في البر، فالتجأ الصبـي إليهم، فذهبوا به معهم في البر، فيما دون الكويت، فكانوا عربًا طيبين: أهل مروءة ووفاء، وصار الصبـي مؤدّبًا عاقلاً أمينًا، حافظًا للأمر الموكول إليه، فقالوا له نريدك ترعى لنا الغنم، ونعطيك أجرتك من أولاد الغنم سنويًا، فقال: نعم، فاستمر معهم لمدة، نحو عشر سنين، اكتسب فيها رُجُولَةً، وتحملاً، وصبرًا على الشدائد، ومالاً: فكل سنة يعطونه أجرته من أولاد الغنـم، فيستلمهـا ويسمهـا وسـم أهلـه، ليميـزهـا ويثبـت ملكيتـه عليها، فأنتجت له أولادًا، والسنة الثانية كذلك، وهكذا كل سنة، حتى اجتمع له قطيع من الغنم، في هذه العشر سنين، ولما بلغ مبلغ الرجال وتم له نحو عشرون سنة، أراد رفع مستواه عن التبعية، ويعتمد على نفسه، فعزل غنمه واتحد يرعاها وحدها ويعزب بها، يبيت في البر وحده، يتتبع المراتع الطيبة، وقد استعار من جماعته بندقية، وكان شجاعًا حذرًا، يترقب ويتخوف الحرامية والسراق. وفي مساء ذات يوم قبل المغرب، أبصر أَزْوالاً يُشْرِفون عليه ويختفون، فعرف أنهم حرامية

يريدون يُبَيِّتُونه، يهجمون عليه يقتلونه ويأخذون غنمه، ولكنه أخذ احتياطه عنهم، فإنه لما أدمس الظلام، ربط الحمار، والغنم تبعه، وتركها تُمْرِحْ حول الحمار، ثم هرب وأبعد عنها وختفا في الشجر، فلما ظنوه قد نامَ أتوا يهجمون عليه، فلم يجدوه، وداروا حول أمراح الغنم فلم يجدوه، فأطلقوا الحمار واستاقوها وذهبوا بها، وتبعهم هو عن بعد. فَسَرْوا كل ليلهم يمشون، فلما طلع الصبح واسفر حاد عنهم واسرع، حتى تقدمهم، وقعد لهم على طريقهم، وَتَرَّسَ بشجرة، فلما قربوا منه، صوب البندقية بالأول منهم فرماه فقتله فهرب الباقون، فاستاق غنمه إلى جماعته وضوى عليهم، ولم يعلمهم بالحاصل، ولكن هذا الأمر أحدث له فكرة جديدة، فتذكر أهله بنجد، فعزم على الرجوع إليهم، فأخبر جماعته بما عزم عليه، فقالوا له شأنك وما تريد. فعزل الجلايب (الخرفان) من غنمه نحو أربعين أو خمسين خروفًا، وترك البقية عندهم، وذهب بالجلايب يبيعها بالكويت، فباعها واشترى له ناقة ذلولاً، وأثاث السفر، وبندقية، وكسوة لأهله وفرايح، ثم ركبها وخرج لنجد وحده يترقب ويتخوف الحرامية، وذات يوم وهو يسير في الطريق، أبصر ثلاث ركائب قد قصدوه ولحقوه ليأخذوه، (والحزم لو أناخ ناقته وعقل يدها، وترس بها أو بالشجرة، ثم يرميهم إذا قربوا)، ولكنه أركض ناقته يهرب عنهم، فأركضوا ركائبهم بلحاقه، فلما قربوا منه، رماه أحدهم بالبندقية، فأصاب ناقته، فانكسرت يدها وسقطت بالأرض، ووقع هو على الأرض، وبندقيته بيده، فانسحب وترس بالشجرة، ثم صوب البندقية بالأول، فأطلق الرصاصة عليه في صدره

فقتله، فسقط على الأرض، وكانت ناقته ذلولاً فوقفت عليه، وهرب رِفاقُه، فقام هو وذهب لناقة الرجل الميت، فأوقفها الله له، فمسك خِطامَها وأتى بها، وأناخها عند ناقته وعقل يدها، ثم رجع للميت وأخذ سلبه، بندقيته وحزامه، ثم ذبح ناقته وأخذ منها لحمة، وحمل عفشه على الناقة، وسار إلى أهله بسلام، حتى وصلهم، وهم قد نسوه، يظنونه ميتًا وقت هروبه. (انتهى).

* * *

جلالة الإمام: الملك عبد العزيز في جماعته

حدثنا أحد رجال عُقيل، وكان حاضرًا المسئلة، يقول: حين سافر الملك عبد العزيز بن عبد الرحمـٰن آل سعود رحمه الله، إلى بعض بلاد الأمصار، ليحضر مؤتمرًا دوليًّا هناك، فلما انتهى ورجع، صاحَبَه في رجوعه: أحدُ ملوك بعض الأمصار، ودخل معه بلاده. وأقام ذاك الملكُ للإمام عبد العزيز مائدة كرامة، (أكثر ما وضع عليها: دِيْكًا رُوْمِيًّا)، فانتقده رجال عُقيل، لأنهم من جماعة الإمام عبد العزيز: إذ كانوا هناك، يزاولون أعمال التجارة في الإبل والخيل، وأرادوا إظهار إجْلالِ إمامهم عبد العزيز، لا سيما أمام الأجانب، حتى وإن كانوا في بلاد غربة، فذهبوا لملك البلاد، وعزموه منه، وطلبوا منه أن يأخذ لهم إذْنًا من الملك عبد العزيز، بأن يُقِيموا له عزيمة كرامة له، فأجابهم، واستأذن الإمامَ لجماعته، فوافق الإمامُ على إجابتهم، فواعدهم على العشا غدًا بعد العصر.

فقام رجال عُقيل، وذبحوا أربعين خروفًا وجملاً حاشي، طبخوها كاملة بعد تجهيزها بدون تقطيع، وضعوها كل ذبيحة على صينية، ظهورها وأذنابها الأَلْيَةُ (الشحم) فوق (يسمّى مفَطَّح) وكان يؤكل الشحم إذ ذاك، وكذلك الجمل الحاشي، طبخوه كاملاً بعد

تجهيزه، ووضعوه فوق الصينية على هيئته، سنامه فوق، وجعلوه بين الصحون، والصحون صياني كبار لها كراسي منها ترفعها، يجلس الرجال حولها دائرة يأكلون منها، كما هو معروف في نجد حتى الآن.

فتقدم إليهم الملك عبد العزيز، وملك البلاد ومعه بعض الوفود والسفراء والصحافيون، فهالهم هذا الفعل، لأنهم لم يعرفوا مثل هذا الوضع.

يقول ابن عَمّار: فأخرج الصحافيون عَكّاساتهم، يعني (كامراتهم) وجعلوا يصورون هذه المائدة من كل جهاتها، وكيف جلوسهم عليها، وكيف يأكلون منها.

أما الملك عبد العزيز: ففرح بهذه الشجاعة والسخاء، وتشبب واعتز بجماعته ورعيته أمام الأجانب، ولم يستنكر هو هذا الفعل، لأنه هو يفعله في محله، كما هو فعل عموم رعيته أهل نجد، في المناسبات حتى الآن. (انتهى).

* * *

عبد المحسن أبا بطين

ومن تمام الفائدة، أن ننقل من مجموع الأستاذ الأديب: عبد المحسن أبا بطين: بعض الفوائد النادرة الوجود، ليشترك هو في الأجر والثناء، فمما قال عبد المحسن أبا بطين:

رحت أبا خذ لي مفتاح   وابا واصل هالكفاح
وابا استاجر وابا ارتاح   واخفف عني الاتعاب

* * *

جيت للمجِّر أبي مسكن   كلمني بهرج وتمسكن
واشار عليّ بترهبن   وهقيت إن هرجه صواب

* * *

عنده مفاتيح فله   ووصف لي بيت في الْحِلِّه
وصفه وكاد أدله   والساتر رب الارباب

* * *

فتحت الباب ولاقاني   صوت من داخل نابانی
صوت ناعم يا اخواني   واثره غزال مرتاب

* * *

قلـــت مكـــانـــك يـــا غـــزال   جـــابـــك الله لـــي فـــي الحـــال
وفكنـــــي الله مــــن الـــــدلال   مـــا جـــايفتـــح لـــي هـــالبـــاب

* * *

قـال لـي خـف ربـك يـا راجـل   أنـــــا تـــوي فيـــــذا نـــــازل
ويـش اللـي جـابـك للغـافـل   مـــانـــي مـــن ربعـــك وانســـاب

* * *

ويـش اللـي جـابـك فـي هـذا   أنـــا ســـاكـــن وانـــت مـــاذا
أخـــــرج عنـــــي وإلا بهـــــذا   ضـــرب مـــوجـــع بـــالمشعـــاب

* * *

أنـــا مستـــاجـــر مـــن مـــده   وعفشـــــي جبتـــه وابـــا رده
هـــــذا بيـــــت مـــــا اوده   كـــل يفتـــح فـــي هـــالبـــاب

* * *

ورحـــت لشقـــه بـــاستـــاجـــرهـــا   وشفـــت اللـــي شفتـــه بحجـــرهـــا
واسبـــاب اللـــي مـــا ذكـــرهـــا   ظـــــلام وضيـــــق الاسيـــــاب

* * *

وتمشيـــــت بمنـــــاهجهـــــا   ولا اعجبتنـــــي درجهـــــا
وقبلـــي مثلـــي مـــن نهجهـــا   طـــالـــع نـــازل يـــا اصحـــاب

* * *

وفكـــرت استـــاجـــر لـــي فلـــه   أبـــى أشجـــار وأبـــى ظلـــه
وبغـــى يجـــي عقلـــي خِلـــه   يـــوم إنـــي فتحـــت البـــاب

* * *

لقيــــت الفلـــه مسكـــونـــه   وبهـــا عفـــش وبهـــا مـــونـــه
والســاكــن مــا هــو يــاهــونــه   واللـــي حصـــل لـــه اسبـــاب

* * *

بعــد دخــولــي فــي مبنــاهــا   والتمشـــى فـــي أدنـــاهـــا
سمعــت الصــوت مــن أعــلاهــا   قلــت مكــانــك خــذ جــواب

* * *

هـــذا المفتـــاح مـــن المكتـــب   مـــن المجِّـــريبـــي يكســـب
ولا عنـــده بـــاللـــي يعطـــب   بيـــن الشـــرطـــه والكتـــاب

* * *

راجـــــع عقلـــــه وتفكـــــر   وذهـــب معـــي يـــم المجـــر
وَخْـــذَ المفتـــاح وتصبـــر   كنـــه قـــارٍ فـــي الاداب

* * *

ولـــوه غشيـــم يـــا كـــافـــي   دهـــانـــي بـــام الـــدواهـــي
واحمـــد الله بـــالعـــوافـــي   وعـــدم سحبـــي للـــدبـــاب[1]

* * *

اللـــي يشتـــري لـــه منـــزل   ولا يبـــدل قفلـــه مهمـــل
يُـــدخـــل بيتـــه وهـــو يعمـــل   والـــداخـــل مـــا هـــو مـــرتـــاب

* * *

ابحجـــة أنـــه بيستـــاجـــر   والله أعلـــم أنـــه فـــاجـــر
يبـــي يســـرق وهـــو خـــابـــر   معـــه الحجـــة مـــا يهـــاب

* * *

(١) الدباب هنا: هو السجن.

إمـــا القطـــه مـــع أجـــرانـــه   وخلـــط بطنـــه مـــع مصـــرانـــه
والْحقـــه إلْمِجـــرٍ وإخـــوانـــه   وكـــــــلٌّ ورَاه العـــــــذاب

* * *

هـــذا صـــايـــر مـــا يحتـــاج   وازلـــج بـــابـــك بـــالمـــزلاج
وارم قفلـــــه بـــــالحـــــراج   فـــالشـــرع آمـــر بـــالاسبـــاب

* * *

وصـــلاة ربـــي للـــرســـول   عـــدد مـــا قـــال ونقـــول
وعـــدد أسبـــاب النـــزول   كـــذا آلـــه والاصحـــاب

* * *

البناء بالطين في القديم

كيف تستطيع تبني لك بيتًا من الطين والماء في القديم؟

إنك لتعجب من قدرة الله سبحانه ورحمته وفضله، أن سخر لخلقه هذا الطين المختلط بالماء، يبنون منه بيوتًا يسكنونها، والقصور الشامخة المشرّفة، والمربعات للحرب، والأسوار والقِلاع وغير ذلك، كما تشاهد منها البقايا والآثار العجيبة، وعندما تسأل كيف يستقيم البناء بالطين هكذا، ويصمد تجاه المطر والعواصف، طوال السنين، بل ربما يمر عليه قرون من السنين؟. وأعجب من ذلك، لو تعلم سهولة عمليته، وقلة نفقاته، وذلك: لأنهم يعملونه بأيديهم: لِتَسَاعُد الأيدي واجتماعها.

أما صفة العملية: فأولاً: يأتون بالطين، على الحمار أو البعير من المواضع الطينية في البر، والطين تختلف مادة صلاحيته للبناء، فبعضه أصلح وأصمد من بعض: فالطين المالح السَّبِخْ لا يصلح للبناء بتاتًا، لأنه سريع التحلل مع الرطوبة، ويعرفونه بالتجربة. ويكون البدء بالبنا وقت القيظ، وقت الشمس والجفاف، لا وقت المطر والرطوبة.

والبناء بالطين على ضربين: فضربٌ باللَّبِنْ: وضربٌ عُرُوق.

أما اللَّبِن: فهو أسرع إنتاجًا ولكنه أقصر عمرًا، واللبن الطين موجود الآن في المقبرة، يعملونه لسد اللحد على الميت.

وأما العروق: فهو البناء المعتمد، ولكنه يحتاج عناية بعملية الطين وتخليطه، فعلى قدر العناية تكون جودته وطول عمره، (إذا حُفِظَ أُسُّهُ عن تسرب الماء فيه، ويُمْلَط رأسه عن شَغْفِ المطر)، كما في المثل: (الجدار سأس ورأس).

فالعملية الجيدة هي: أولاً: يخمِّرون الطين بالماء عدة أيام، ويخلطون الطين بشيء من التبن، حتى لا يتصدع إذا يبس، والبدء بعمليته بعد التخمير، هو أن يحتزم أحدهم، ويرفع ثوبه عن ساقيه، ويأخذ المسحات، ويَدْخُل وسط الطين برجليه، يبدأ مع جانبه يهذوه بالمسحات، ويدوسه برجليه مع الماء والتبن، تحريكًا وخلطًا جيدًا، حتى يمتزج بعضه ببعض، ويتماسك عن التفكك، ويكون لينه أو شدّه حسب الطلب، ثم يركب أحدهم وهو الستاد جالسًا فوق الأساس، والأساس قد يبس بعد أن خُلِطَ طينه في مكانه، فيناوله المساعد (المزُوري)، والجماعة يناولونه من الطين، قطعة قطعة بيديه، بعد خبصه وخلطه جيدًا، والستاد يُحْكِم البنا، زاحفًا على قفاه فوق الجدار، فكلما أحكم ما أمامه زحف خلفًا، ويطرق نظره على جوانب الجدار، ليقيمه معتدلاً نظريًا بدون ميزان ولا خيط، ويُنَبِّهُهُ أصحابه إذا وصل طرف الجدار، حتى لا يسقط من خلف، فيقولون: مَقْفِي ــ مَقْفِي! فيقول هو: عدوك مَكْفِي: يعني مكبوبًا على وجهه، كما يقولون ذلك، حالة المضاربة، والمقاتلة، إذا لحقه أحد

ليضربه أو يقتله، فيخبره صاحبه، مقفي ــ مقفي، ليأخذ حذره ويلتفت.

كان رجل يبني، فوق جدار بيته جهة الشارع، وزوجته تناوله الطين وحدها من الداخل، ومن عادة الستاد، أنه يَنْهَم خوياه حالة العمل، يحثهم وينخاهم، وهذا الرجل جعل ينهم، يقول (شِيْلُوا يَامْيِه) ليوهم الناس أن معه عُمّال، ولكنه سُمِعَ يقول: (ارفعي سِرْوالَكِ عن الطين).

الحاصل: أن الستاد، يبني عِرْقًا متطاولاً جُدْران البيت والغرف حتى يستكملها، ثم بعد يومين يبني عليه مثله، وهكذا حتى تتم جدران البيت ارتفاعًا، ويكون عرض الْعِرْق نحو ثلاثين سم، بارتفاع ثلاثين سم، أو أقل أو أكثر حسب النشاط والطلب.

ثانيًا: التسقيف: فإنهم يأتون بخشب يابس، من الأثل فيقصونه، (يقطعونه على مقاس المنازل عرضًا، فيرفعونه فوق جدران المنازل، يخالفونه، رأس هذه عند جذع هذه، فيتقابل الستاد ومساعده عند رؤوس الخشب هنا وهنا، فيربطان رَأْسَيْ الخشبة، بالطين والشّقُوص، (الشظيف) وهي كِسَر الحجارة، (رضَم) ويكون ظهر الخشبة المتحمل إلى فوق، ثم الأخرى إلى جنبها كذلك، تربط بالطين والشظيف، حتى نهاية سقف الغرفة، ثم الغرفة الأخرى مثلها على وزنها، وبقية الغرف كذلك، فإذا يبس الطين بعد يومين أو أكثر، وإذا هم قد أتوا بجريد أخضر، من الجريد الذي يقطع من النخل، فيزيلون عنه ورقه، هو (الخوص)، ثم يقطمون جذع الجريدة الغليظ، حتى لا يبعدها عن

أختها عند الرصف، (وتحسينًا لمنظر السقف). فيرفعون هذا الجريد، ويرصفونه فوق الخشب عرضًا، مخالفًا: رأس هذه عند جذع هذه، ثم يأتون بهذا الورق (الخوص)، ويفرشونه فوق الجريد عرضًا، فوق الخشب، ثم يفرشون فوقه طبقة طين، غير لين وغير كثير، نحو سمك (أربع أصابع) فالخوص يمنع تَسَرُّب الطين من بين الجريد. يستكملون بذلك جميع سقوف البيت، ويسمون هذه العملية (طمومًا)، ثم بعد يومين أو أكثر: يقومون بالعملية الثانية المهمة، يسمونها (النعال: أو الطراى) فيخلطون فوقه طبقة أخرى جيدة من الطين الخالص، مع التبن الْمُنَعَّم بالخلط والخبص، كذلك سمك أربع أصابع أو أكثر، يضبطون به عموم السطح ورؤوس الجدران، لأن هذه الطبقة الأخيرة هي التي تمنع تسرب ماء (المطر) داخل المنزل، وإذا ضعفت هذه الطبقة الأخيرة جددوها، ويصلحون مخراج الماء السيل من السطح، يكون ميلان السطح إليه، لينحدر الماء إليه، يسمونه (الميزاب)، (والمرزام)، (والمثعب)، وهو خشبة منحوت جانبها طولاً، شبه زاوية مثلثة، يُدْخل جذعها تحت السقف، ورأسها المفتوح خارج البيت، جهة الشارع ليبعد الماء عن الجدار، ينحدر عليه سيل السطح.

ثالثًا: أبواب البيت والحُجَر (الغرف) يصلحها النجار، من خشب الأثل، وجذوع النخل اليابس. ثم أرض بطن البيت والحجر، يخلطونها بالطين والماء، ويسوونها لتشتد وتتماسك. ثم يسكنونه، باردًا في الصيف، دافئًا في الشتاء، إذ أنها لم تظهر إذاك الصناعات، والكهرباء والمكيفات: فسبحان الخالق الرازق.

أما البناء باللَّبِن بعد إصلاح اللبن ويبسه: فإنه يناولونه قطعة من الطين، أكثر من ملأ اليدين، فيضعها فوق الأساس، ويفرشها، ثم يناولونه اللَّبِنَة فيضعها فوقها عرضًا، ثم الطينة الثانية إلى جنبها، ثم اللبنة فوقها، ثم طينة فوقهن، بين ظهورهن، ثم اللبنة فوقها، وهكذا حتى تكمل جدران البيت، ثم يقومون بتلبيص جوانبه بالطين والتبن بعد الطموم، يسمونها لياقة، أو مشاش، أو مِلاط. (انتهى).

* * *

سهولة الزواج عندهم

وأما عادات أهلينا بالزواج، فمِن أسهل شيء وأيسره، قد سادهم التواضع وخفت مؤنة النفس، وقلة البذخ، فإذا جاءهم الخاطب، إنما يتعرفون على أبي المخطوب له، لأن الابن غالبًا على طريقة أبيه في غالب أحواله، والذي يتولى النظر في الأمر للبنت: هو أبوها فقط، لأن الأسرة كلهم قد وثقوا بِولايته وكِفايته، فإذا صلح له الرجل، أعطاه الإجابة في الساعة الراهنة، على ريال وشيمة رجال غالبًا: فإذا تزوجها وذهب بها، فقد لا تزور أهلها إلاَّ بعد سنة أو لوضع حملها. (انتهى).

نقول كما قال الشاعر:

لسنا وإن أحسابنا كَرُمت ... يومًا على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل فوق ما فعلوا

ويقال:

أول بادي وش نقول ... صلاة على الرسول

وقيل: (من جد وجد). وقيل:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا ... وليس أخو عِلمٍ كمن هو جاهل

وقـيـل:

مـن لـم يكتـب رسـالتـه ويقـراهـا　　　فليختـر غنمًـا أو بقـرًا يـرعـاهـا

ويقال: (رَبْعٌ تعاونوا ما ذَلَّوْا). يعني تساعدوا حالة الحرب أو الضرب، إذا اعتُديَ على أحدهم، تساعدوا لأخذ الثائر والانتصار، فلا يتخاذلون فيستهان بهم، ويكثر الاعتداء عليهم، كما قيل:

إيلا صار مالك عيال عم يحضرون　　　يحذف دلوك من فوق جال الرَّكِيَّةْ

وهذا التساعد يشمل عموم الأحوال.

قيل: أقبل جمل يمشي في البر، وإذا في وجهه بيت جماعة من النمل، فقالت إحداهن: تفرقن لا يطأكن الجمل فيهلككن؟، فقالت أخرى: (لا) بل اجتمعن عليه نقتله أو يهرب. هكذا التساعد عِزٌّ ومنجاة.

وقيل أيضًا:

يُمْنًـا بـلا يُسْـرىٰ تـراهـا ضعيفـه　　　ورَجْلٌ بلا رَبْـعٍ على الْغَبِنْ صَبّار

وقـيـل:

لَصَـار مـا تَفْـزَعْ يُمْنـىً ليُسْـراهـا　　　فاعرف ترى ما وطا هذيك واطيها.

وقـال:

وصَغِيـرُنـا يَعْـرِفْ وَقـارَ المسِنِّيْـن　　　وْلاَ هُـوْ كَسُـول إيـلا زهمتـه تَـوَنَّـى

والمسن: هو الإنسان الكبير، بالنسبة لمن هو دونه. انتهى.

* * *

الافْتِيَات على الولات

كان رجال عُقيل، يذهبون بالإبل والخيل، من بلاد نجد، يسوِّقونها في بلاد الغربية (الأمصار)، ويحصلون على مكاسب جيدة، في بعض الأحيان.

وهناك تاجر من أهل تلك البلاد: غار من هذه المكاسب للأجانب في بلاده، وأراد أن يشاركهم فيها، فحمل أحمالاً من الذهب والدراهم، وقدم في نجد (بريده) من غير اتفاق مع ولات البلاد (آل سعود)، وجعل يستأجر رجالاً وُكَلاءَ، يشترون له إبلاً من البادية وغيرهم، على موارد الماء، والقرى والأسواق، ورجالاً يحفظونها ويرعونها.

فذهب بعض أهل الحمية والرعاية في البلد، إلى الإمام الملك عبد العزيز: يخبرونه بذلك، وهل ذلك عن أمره؟ فسمعًا وطاعة، أو بغير أمره فيحيطونه علمًا به، حيث أغلا أسعار الإبل على المواطنين.

فقال الإمام: لم يكن ذلك عن أمرنا، ولكن دعوه وما يصنع.

فلما اشترى نحو مائة رعية من الإبل، نحو عشرة آلاف بعير، سار بها متوجهًا للأمصار، فأغار عليه في أثناء الطريق، عموم البوادي هناك،

ونهبوا إبله كلها، (وقد يكون ذلك بإيعَازٍ من الإمام عبد العزيز بنهبها، حيث لم يستأذنه ولم يتفق معه للعهد والحماية والأمان). فرجع الرجل صاحبها، وذهب للملك عبد العزيز، يشتكي عليه رعيته وما فعلوا به؟، فقال له الإمام: هل اتفقت معنا على الإذن والأمان؟، قال لا، ولكن ظننت أن التجارة حرة، فقال الملك: هي حرة بالإتفاق مع ولات البلاد، ولكن هذا فعلك بنفسك، ونحن سوف نساعدك ولو كنت كذلك، فعيِّن لنا الرجال والبادية الذين أخذوك وسوف نعاقبهم لك؟ فقال الرجل: أنا لا أعرفهم ولا أعلم من أين أتوا ولا أين ذهبوا، فقال الإمام: ونحن إذًا لا نعرفهم ولا نعلم أين ذهبوا. فرجع الرجل إلى بلاده مفلسًا. (انتهى).

* * *

الدّوامة

الدَّوَّامة: هي من آلات اللعب للصبيان الكبار في القديم، وهي الخذروف المذكور في معلقة (امرىء القيس) قال:

دريــر كخـــذروف الــوليــد أمــرَّه   تتــابــع كَفَّيْــه بخيــط مــوصــل

وكثيرًا يضرب بها المثل في قواعد الكلمات شعرًا ونثرًا، وهي قطعة من رأس خشبة، يصلحها النجار ونحوه، وصفتها: أن يبراها فتكون قريبًا من المثلثة، بطول خمسة أو ستة سنتي متر، أعلاها بعرض أربع سنتي متر، وأسفلها صفر، (فالضخمة منها تسمى صحفة: والخفيفة تسمى مغزل)، فيأخذ رأس مسمار فيطقه برأسها الصفر، حتى يبقى منه نحو خمس ملم، فيأخذ خيط قطن لطيف قوي نحو بوع، فيلوي طرفه على المسمار، ومنه يأخذ يطوي الخيط على الدوامة إلى أعلاها، يرصه إلى بعضه ويشده شدًّا عاديًا لأجل يثبت عليها، حتى يقارب فرعها، فينتهي الخيط، وآخره دركة شبه حلقة، يدخل فيها أصبعه الأوسط، ويمسك الدوامة بأصبعه الأوسط والإبهام، ويضع السبابة فوقها، وجهة المسمار إلى تحت، فيقف على ركبته وينصب الأخرى، وأمامه أرض طينية مستوية صلبة مرصوصة، قرارها نحو شبر

بشبر[1]، فيقذفها فيها باعتدال بسرعة ويجذب الخيط بقوة، فتقع الدوامة على المدام المنعم، تدور على المسمار بسرعة جيدة، فتبقى بضع دقائق تدوم وأنت تحسبها واقفة، هذا إذا كان الدوام ماهرًا، أما إذا كان الدوام (القاذف غير ماهر، فإنها تأخذ تموج هنا وهناك، فلا يطول دومها ولكنه يحرص على المهارة في قذفها. ثم إن بعضهم يفحج أصبعيه ويدخلها من تحتها وهي تدوم ويخطفها خطفًا بسرعة إلى داخل كفه، فتركب في راحة كفه وهي على دومها وسرعتها، حتى ينتهي دومها. واللعب بالدوامة: من الألعاب القديمة الأصيلة عندهم، والدوامة هذه: يسمونها رعبوبة وجمعهارَعَابِيب، والدَّوْمُ بها رَعْبٌ، يَرْعَبْها رَعْبًا: أي تدوم بسرعة فائقة حتى ربما ظهر لها صوت وَنِينٍ من السرعة. وشبهوا بها البنت: فسموها رعبوبة: وجمع البنات (رعابيب)، لميلانها للأفراح: قال الشاعر:

وللشبـــاب إذا دامـــة بشـــاشتـــه ... وِدُّ القلوب من البيض الرَّعَابِيبِ

وشبهوا بالدوامة: الإنسان إذا ضاعت أفكاره، والْتَبَسَتْ عليه أموره، فلا يعرف وجه خطأها من صوابها، كما يقولون: تدهورت أفكاره: دماغه كالدوامة. نسأل الله لنا تسهيل الأمور. (انتهى).

* * *

(١) تسمى لِعْسَه: فيقال: لَعَسَتْ الدوامة: إذا استقرت فيه واعتدلت وطال دومها، وشبهوا بها الإنسان يرغب في مكان ويستقر فيه: فيقال لَعَسَ فلان: يعني رغب واستقر بالمكان.

أرجوزة بقعا

كلمة الناس (بَقْعَا جَاتِكْ)، كان رجل أكل لقمة حارة، فقال:

الـروغ يـا كبـدي بقعـا جـاتِـكِ   إنْ كَلَيْتُهْ كَلانِي، وإن خَليْتُه كَلُوه

ومعنى ذلك: أن الطعام هذا كان حارًا، وهو لا يستطيع ابتلاعه حارًا، ولكن ربعه يأكلونه وهو حار ويريد يغامر في أكل الحار معهم بسبب الجوع، فيخبر كبده أن جائتها اللقمة الحارة، لتروغ عنها، لكن ليس لها مراغ، ويشبّه ذلك بما جرت به العادة عندهم، فإن كلمة الروغ لها معنى آخر، وهو أنهم إذا كانوا يعملون بحفر البئر وهي القليب: فالرجل الذي ينزل يعمل في أسفل البئر، عليه خطر من الشيء الذي يسقط عليه من فوق، كحجرٍ أو خشبةٍ أو زنبيل التراب ينقطع حبله، أو غير ذلك من الأخطار، ولكن الرجال الذين هم فوق: إذا رأوا الخطر نادوا الأسفل، الروغ، الروغ، فإذا سمعهم راغ من وسط البئر إلى جانبها، وإن كان فيها غارٌ لجأ فيه، لعله يسلم من الشيء الساقط الخطير. فإذا خرج منها سالمًا: فحين يرونه يقولون له (خارجٌ من شرها وشر غيرها: تفائلاً بالسلامة الدائمة، فصارت هذه الكلمة: تستعمل في كل محذور مباغت، فيقال: (الروغ، الروغ)، يروغ: يعني يهرب بسرعة، أو يذهب بخفية، وكلمة (بقعا) تقال في الأمر العصيب القاسي

(بقعا جاتك)، والمراد ببقعا هنا: هي مشاكل الفقر، كما قال الشاعر الشعبي:

باسم الإلٰه مبدانا ... ما نجحد نعمة مولانا
راع الفضل والإحسانا ... مُنْزِلْ طه والفرقان
كُلٌّ باسم الله بادى ... واللي ما يبدي الله غادي
بين الأبيض والسواد ... لو شاف بعينه عميان
دنيّا جاني بلاها ... بقعا خذتني عصاها
بلتني ألله يبلاها ... دَرْيَت إن مالي أعوان
قالت جيتك طِرْقِيّهْ ... وبيتك طقيت الغِيِّمه
مالي عن محلك نيه ... بيتك ورثي من جدان
قلت اخسى خسيتي ... يا الغبرى ماستحيتي
وش ذا للي دلك لُبَيتي ... مثلك ما ينصا العزبان
قالت جيتك وانت اوليدي ... واسقيك الحنظل من ديدي
بيني وبينك حُدَيْد ... وتالِ احطك نيشان
قلت: الشيخ ابن دايل ... يفك الحق من العايل
هرجك ما به صمايل ... يطير اسواة الدخان
قالت هرجي تلقى مره ... على كبدك تونس حره
كم انسان شكا ضِرّه ... يوقد بكبدك نيران
قلت: بقعا الغبرا عذبتني ... شِدَّهْ عني لا تلحقني
أغديها بقصر العمقني ... أو غديها ما تلقان
سريت من الوشم الحالي ... عن ديرة جدي جالي

يـا منشي الغيـم ارحـم حـالي ارحمنـي وانـت الـرحمـان
يـومنٍّـي جيـت الـدرعيـة وايـلاهـا لـي بظـل الفيـه
قـالـت مـالـك عنـي نيـه مستفـزعـة بـالـديـان
وقـالـت عـلامِـكْ هـارب منـي وِشْ ظَنَّـكْ بِتَـزْبِـنْ عنـي
والله مـا يضحـك لـك سنـي لـو تـزبـن سبعـة شيخـان
قلـت ازبـن عنـك شيخـان اعتيبـه يَصُـوعُـونِـك صَـوْع كْلَيْبِـه
إن جيتـي فـالمـوت اِهْقَـيْ بـه ورحتـي عشّـا للجِعْـران
قـالـت مـالـك عنـي نيـه لـو تـزبـن جحـر الحيـه
يـا دون اشـدك بيـديّـه لـو فـزعـوا كـل العتبـان
قلـت أنـا وايـاك للشـريعـه إن كنـت لَلَّـه مطيعـه
وتعشـى كـانـك امجيعـة والميعـاد ابـن عَـوْدان
قـالـت هَيّـا إمْشِـي قـدامـي ننحـر منصـوب الإمـام
بـاغيـن نَتْخـاصـم بـالكـلام هـرج يـوزن بـالميـزان
قلـت نعـم بـامـرك مشينـا للشـريعـه مـا عصينـا
شيـخ يـرضيـك ويـرضينـا شيـخ يصطـع بـالبـرهـان
يـوم جينـا للشـريعـه انكـرت بقعـا سـريعـه
قـالـت مـا ارضـى بـالهـزيعـه أللـي مـريضكـم مـا ارضـان
قـال الشيـخ الحـق ارضـى بـه ارضـى بـه طيـب أو غَصِيْبِـه
كـل الخـلائـق تمشـي بـه وش نَفِّلَـكِ يـا ام اضْنـان
قـالـت بقعـا ام الطمـايـع كـل يمشـي بـامـري طـايـع
ولا تـرضيـن الشـرايـع لـو يمشـي الـوادي دِمَّـان

قال القاضي يا جاهل	انحر ماضين الفعايل
ازبِن شيخ ذكره طايل	في جزاير العربان
نعم زِبَنْت أخو نوره	ومتعنا اللّه باخيوره
وردت بقعا مذعوره	فاندحرت هي والشيطان

* * *

المعاني:

يزهاه أخو نوره: الإمام عبد العزيز رحمه الله: «ودونك رمز بعض المعاني» قوله: (مالي أعوان)، أي: مالي أولاد، إذ: أعوان الرجل على مشاكل الحياة والفقر هم أولاده، (الغِيِّه): هي رباط الدابة والخيمة ونحوها في الأرض، (حبل معقود بطرفه حجر أو قطع عود أو نحوه، يدفن في الأرض، يسمى غِيِّه: يعني لا يزول عن محله، (مالي عن محلك نيه)، أي: ليس تحول ولا محال، (الدَّيْد: هو الثدي)، (بيني وبينك حْدَيْد)، أي: لم يبقى إلاَّ قليل واستولي عليك، واجعلك نيشانًا للبلى. (النيشان، هو الشيء المنصوب يرمى بالسهام.

(الجِعْران بكسر الجيم، واحدها: جْعَرِي: هي الكلاب والسباع.

(اشدك بيديه)، أي: امسكك، (ابن عَوْدان) قاضي معروف، (ننحر منصوب الإمام)، أي: نذهب إليه ونقصده، قولها: (ولا ترضين الشرايع: كناية عن أنها أقدار كونية)، (ومتعنا الله باخيوره): هو كذلك، فَمِنْ حين حكم الإمامَ عبد العزيز آل سعود: والناس بخير في دينهم ودنياهم.

حدثني رجل ثقة، يقول: حضر أعرابيٌّ في سوق الإبل، فمسك أعرابيًا آخر، وأحضره لدى القاضي هنا يخاصمه، قائلاً: إن هذا اعتدى عليَّ وأخذ ثيابي وثياب امرأتي، وأريد الاقتصاص منه.

فأجاب الأعرابي الثاني، قائلاً: (صدق يا شيخ، والله إنه عجز يغطي عورة امرأته: ولكن هذا قبل الكمام). فقال الشيخ: أللي قبل الكمام مالنا عليه حكم.

(والكمام هنا: هو حكم الإمام عبد العزيز ابن سعود، حيث كَمّ الناس عن الفوضى) فصان الأموال والأعراض والدما. غفر الله له ورحمه.

والكمام: بتصغير حرف الكاف على لغة البادية. (انتهى).

* * *

تنبيهٌ هام

قرره شيخنا: عبد الله بن محمد بن حميد، رئيس الحرم المكي، رحمه الله تعالى، قال:

كان عامة ضلال أهل نجد وسائر العرب في الجزيرة: هو الشرك (عبادة القبور، والتوسل بالأموات وغيرهم من المخلوقات، وطلب شفاعتهم منهم، قائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1]) وهو الزمن الذي ظهر فيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ووازره آل سعود رحمهم الله تعالى، فأظهر التوحيد وانجلى ظلام الشرك، في نجد وغالب أنحاء الجزيرة والحمد لله.

يقول: وأما ضَلال اليوم فهو نوع آخر، (قد انْدَلَقَ علينا الغرب) بدسائسه المنفَّذه في الظلام، بدعوى التمدن، والتنور، والتطور، والتقدم، وهم يركزون على التدهور، لا يمتون إلى شيء من الأديان: لا توحيد ولا شرك، إنما هو التدهور في المادة واللذات العاجلة، هذا هو غايتهم المقصودة، ويسمونه (السلاح البارد) فصار أضر على الإسلام والمسلمين من السلاح الحار وأبلغ في تفريق الكلمة وتشتيت القلوب، (ومن رأوه يميل إلى التديُّن، أتوه من قِبَلِه، فغرروه من حيث

(١) سورة الزمر: الآية ٣.

يهوى، فأعجبوه بنفسه، وأزروه بماضيه، وزينوا له الخروج على مجتمعه، بتفريق القلوب، وشق عصاهم، (بدعوى الإصلاح)، فربما يربو ضرره على إصلاحه، فيزيد الطين بلَّةً والليل ظلام)، وحسبنا الله ونعم الوكيل، قال الله تعالى: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾[1].

قيل: قد تواتر خبر قصة قديمة في مصر، على دولة إسلامية مستقيمة، وكانت الدول الكافرة حولها، تضادها وتحاول الاستيلاء عليها، ولكنهم قد بنوا بمصر مرقبًا عاليًا يرقبون فيه، فلا يأتيهم أحد إلاَّ رأوه من بعيد قبل وصوله، فاستعدوا له يرمونه بالمنجنيق وغيره، فلم يستطع العدو وصولهم بسبب هذا المرقب، فجعلت الدول تخطط لهدم هذا المرقب، فأتوهم من جهة الدِّين والزهد، فأتوا أولاً: [بكنوز ذهب] في جملة من يتطرق البلاد، ودفنوها في موضعين من البلد، لم يعلم بها أحد. فانتدب منهم زنديق متجنس رائد للدولة لتنظيم تلك التخطيط. فتعلَّم القرآن والدين الإسلامي، ووفر لحيته، فاستوطن المسجد في مصر، للصلاة والقراءة والتزهد، وانزوى عن الدنيا وأهلها، واستمر مدة حتى عرفوه، ووثقوا بزهده وديانته، فلما أصبح ذات يوم، خرج وقصد قصر الحاكم، فاستأذن عليه فأذن له، فلما جلس إليه وهو خاشع متواضع يذكر الله ويستغفره، جعل ينصح الحاكم ويحثه على الزهد في الدنيا والإقبال على طاعة الله سبحانه، ثم قال: أيها الرئيس إني قد أوقظت بكنز في مكان هنا، فلا أدري أهو صحيح أم لا، وأنا ليس لي

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

أَرَبٌ بالمال، فأنا أهديه عليك أيها الأمير، أرجو أن تجدوا ما ذكر لي، ففرح الزعيم وقال: لا بأس فأين هو؟ فذهب بهم وأراهم موضع أحد الكنزين، فحفروا فوجدوه، فقبلوا رأس الشيخ وعرضوا عليه المكافئة؟ فأبى أن يقبل شيًا، وانصرف إلى المسجد واستمر في صلاته وزهده، فصاروا ينظرون إليه بعين المحبة والإجلال والتعظيم، فلما كان بعد مدة خرج كذلك، وقصد قصر الحاكم واستأذن عليه، فاستقبله بصدر رحب وعين إجلال، فأخذ الشيخ ينصح الحاكم ويزهده في الدنيا، ثم زعم له أنه أوقظ بكنز أخر، قال ولكني غير واثق من صدق الخبر، فإن شئتم أن تختبروا الموضع لعلكم تجدوا شيًا، وإلا فلا تلحقونني ملام؟ فقال الزعيم: لا بأس، وإذا ما وجدنا شيًا فلا ملام عليك، ما على المحسنين من سبيل، فذهبوا معه فأراهم موضع الدِّفْنِ الثاني، فحفروا فوجدوه أكثر من الأول، فزاد تعظيمه عندهم، فانصرف لمسجده وصلاته وتزهده.

فلما كان بعد مدة، أعطى دولتَه إخباريةً، أن الخطة نجحت، فَلْتُحَظِّبْ قواتها وعتادها حول حدود مصر، وترقب هذا المرقب، إذا زال فَلْتُقْدِمْ.

ثم خرج يومًا وقصد قصر الحاكم، واستأذن عليه فأذن له، واستقبله يقبل رأسه ويجلسه معه على تَخَت الحكم، (وينظر شفتيه ماذا عسى أن يقول) فأخذ الشيخ ينصح الأمير على عادته، ويزهده في الدنيا ويحظه على العدل، والأخذ على أيد المفسدين، ولكنه في هذه المرة، جعل يتنهت (تنفس الصعداء) ويحوقل ويسترجع، فأنكر الزعيم حاله

وسأله (لعل ما شر يا شيخ؟ كأن خاطرك مشغول) فقال لا ما هنا إلا خير إنشاء الله ولكن أنا أوقظت بكنز عظيم، يمون دولتكم كلها، إلا أنه في محل مشكل؟ فسئله الحاكم أين؟ فقال: هو في موضع مشكل حفره: قال أين هو؟ فقال إنه تحت المرقاب قد بني عليه، فما ترى أيها الرئيس؟ قال هل أنت متأكد؟ قال: اضمن لك أنه أكيد عظيم، ولكن أنتم كيف يمكنكم حفره؟ قال الرئيس: نستطيع نجمع قوانا، ونهدم المرقب بسرعة ونرجعه مكانه بسرعة، فقال الزنديق: إن فعلتم هكذا تحصلتم على كنز عظيم. (والحزم لو بنوا مرقبًا آخرًا قبل هدم هذا).

فلما أخذوا يهدمون المرقب، خرج الزنديق يمشي مدبرًا وهو يقول:

صلـى المصلّـي لأمـرٍ كـان يطلبـه … فلما انقضى الأمر لا صلّى ولا صام

فذهب ولم يعرف له مكان، فما استكملوا هدم المرقب، إلاَّ وقد رست عليهم المراكب وانهالة عليهم الجنود، فاستولوا على البلد ونهبوها.

(وقد قال بعض أهل العلم في رَدِّه على مبتدعٍ، أشعل فتنة بين المسلمين):

فَقَبْلَـك ابـن السـوداء مِـنْ يَمَـنٍ … أشعل الفتنة بين أصحاب محمد

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد. (انتهى).

* * *

نـكـتـة

كان الأجبع ينكت لأصحابه، وذات ليلة قال لهم: إني خرجت مرة من هنا، أمشي على رجلي، فلما أتيت الضاحي (وهو موضع خارج البلد معروف)، وجدت ثمانين مخلبًا ساقطة، فبسطت شماغي وحملتها، ومشيت في طريقي حتى أتيت الطعميات، (والطُّعْميات: هي محلات مزارع الشتاء، أما وقت القيظ فهي قفر: أي خلو من الناس)، يقول فقصدت موضع مزرعة آل فلان، فلما وصلت باب القصر (البيت)، وإذا قد دخل فيه ثمانون ظبي (غزال)، فتناطقتْ وهربتْ، وفزعتُ لأمسكها، فلم أدرك منها إلاَّ واحدًا، ولكن بَحِلْتُ به إذ لم أجد شيًا أذبحه به؟، فقال أحد الحاضرين (المخالب ــ المخالب) فقال صدقت: ألله يُفَطِّنُك للشهادة، قال: وأنا آخذ مخلب وَأَلِتُّه، وأشار بيده هكذا على الأخرى شبه الذبح، واللَّتْ هنا: هو الذبح بسرعة.

قوله: وجدت ثمانين مخلبًا: هو غير ممكن ذاك الوقت، لأنهم يعملونها الحدادين حسب الطلب، فلا يوجد كميات متوفرة، فذكره إياها، هو شيء من التنكيت، مع بقية القصة.

قيـل:

وطالب المعروف من بخيل ... كطالب السُّقْيا من النار

كما قيل:

لا تطلـــب حـــاجـــة مـــن لئيـــم لو هي بكفه حال دونه جبل قاف

يقال: (غنم جُحـا، واحدة رابضة، وواحدة واقفة)، يضرب مثلاً لقلة الجماعة، كما يقال: (قال: صفوا صفين، قالوا: حنا اثنين).

نـكـتـة جُـمْـعَـه

قيـل: كـان رجـل اسمـه جُمْعَـه، كـان يـداوي النـاس، ولكـن بالمسهل، فمن جاءه يشتكي شيئًا أعطاه شربة مسهل؛ حتى إنه جاءه رجل وقال: قد ضاعت حمارتي فماذا ترى؟ فقال له: خذ شربة مسهل، فأخذها وشربها، فَأَتاه بطنه، فذهب إلى خَربَةٍ هناك ليقضي فيها حاجته، (إذ لا حمامات ذاك الوقت)، فوجد حمارته في الخربة. (انتهى).

* * *

لا تُمْرِضين طِفلَك

إن بعض مرض الأطفال الآن: هو من سوء تصرف أمه، حيث تنشأ شابة منعزلة عن الأمهات اللآتي يعرفن نظام تربية الطفل، فهي الآن تزيد بتدفئته عن اللازم وقت الشتاء، وتبريده وقت الصيف، حيث توفرت الآن الملابس واللحف الصوفية والإسفنجية والمكيفات، فتجدها تلبد على طفلها عدة ملابس، على جسمه ورأسه وقدميه، هذا وهي في البيت أو السيارة، حتى لو كان البرد غير شديد، ولا يخفى: أن التدفئة الزائدة عن اللازم تَسْمل صحته: ومثله تبريده بالصيف، وليعلم أن جسم الإنسان مخلوق من تربة الأرض (وطبيعة باطن الأرض دافئة بالشتاء باردة بالصيف) بقدرة الله تعالى وتصريفه، وهكذا جسم الإنسان يشبه أصله الأرض، فحرارة الجسم تكمن بالشتاء في باطن الجسم فتقاوم البرد، وتظهر الحرارة بالصيف في ظاهر الجسم ويبرد باطنه فتقاوم الحر، والتمرن على البرد في وقته من أوله صحة للجسم، ومثله التمرن على الحر في وقته صحة للجسم.

ومن حكمة الباري سبحانه في خلقه، أن البرد لا يأتي بعد الحر دفعة واحدة، فلو أتى دفعة واحدة لضر الأجسام والنبات، ولكنه يأتي شيئًا فشيًا، فَتَكْمُن الحرارة في الأجسام والأرض شيئًا فشيئًا، ومثله

الحر بعد البرد، يأتي شيئًا فشيئًا، فتظهر الحرارة ويبرد الباطن، فإذا تمرن الجسم على البرد بالتدريج، فإنه لا يحتاج كثير تدفئة ولا كثير تبريد، وخصوصًا الطفل لحرارة دمه، كما سيأتي بيانه إنشاء الله، وكشف الرأس صحة، فغطاء خفيف حالة البرد، ولكن الأم الحديثة التجربة، تظن أن الطفل لا يتحمل البرد ولا الحر أبدًا، والحقيقة خلاف ذلك، فإن دم الطفل أحر من دم الكبير، كما ذكره ابن القيم في كتابه الطب، وتحفة الودود في أحكام المولود: فراجعه تعرف كثيرًا من حالات الطفل، فحرارة الدم تساعد على التحمل؛ قال: ويدل على ذلك أن الطفل يهضم الغذاء أسرع هضمًا من الكبير وذلك بسبب حرارة دمه.

أما لو كانت هذه التدفئة الزائدة، في حالة بروزه في البر، وعصف الرياح الباردة لكانت تعذر، أما وهو في البيت أو السيارة فهو مرض.

وقد اشتكت إحداهن إلى والدتي رحمها الله، (قلق طفلها بالليل؟ فقالت لها: لعلك تكثرين عليه التدفئة؟ قالت نعم: فقالت خففي عليه.. ثم جاءت بعد ذلك، تدعو لها وتخبرها بأن طفلها استراح حين خففت عليه التدفئة.

وكذلك الحفاظة، ليست مما يرتاح لها الطفل، بل هي مما يتعبه ويقلقه، لا سيما وقت الحر، لأنها من الإختراعات الحديثة قريبًا، لإراحة الأم والنظافة لا من أجل الطفل، أما الطفل فإنه لا يستطيع أن يدافع عن نفسه فيخبر عن ضناه من الحفاظة، أما الذي اخترعها هكذا

للطفل، فإنما يريد تحصيل المال، حيث تاحت له الفرصة، كما قال الشاعر لأهل السوق الباعة:

ألِّلي يبي عشره تجي له ثمانين يجيب طلبات ناقصات العقول

هكذا بعض أحوال الناس، أما الطفل فالمسؤول عنه أبواه بالعناية به، والصبر على ما يناسب حاله، وذلك بسلامته منها، وقد أفتى بعض العلماء بتحريمها، لأنها تعذيب للطفل على طول الزمن، وهو أمانة في ذمتك.

أما أهلونا ومن قبلهم فلم تظهر في وقتهم ولا يعرفونها، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يأتون بصبيانهم، النبي ﷺ فيدعو لهم ليبارك الله فيهم، فقد يبول الصبي في حجر النبي ﷺ فيغسل ثوبه من بول الجارية (البنت)، وينضحه من بول الغلام نضحًا[1]: أي يرش عليه الماء رشًا ويكفي، ثم لا يظهر على وجه النبي ﷺ الكراهة لذلك، لحسن خلقه وتواضعه وعدم إنفعاله للوسواس. وكان أهلونا يتخذون لهم جاعَدًا من جلد الغنم المدبوغ الرقيق الناعم المجمل، فراشًا تحت الطفل، في حالة حملهم إياه، يقي ثيابهم من بوله.

والمهد ضروري للطفل، في أول حياته، يؤنسه فلا يرتاح إلا به، لقرب عهده ببطن أمه، من حين ولادته حتى يبدأ يَقْلِب نفسه، فتترك له إحدى يديه خارج المهد يعتمد عليها إذا انقلب، ثم يُتْرَك المهد بعد، نحو الشهر الرابع أو الخامس.

(١) رواه الأربعة من حديث أبي السمح.

مسئلة:

هنا: أناس قلق طفلهم، فذهبوا به إلى الطبيب فصرف له علاجًا، فما زاده إلا قلقًا، فذهبوا به إلى امرأة وطنية، تعرف مرض الأطفال؟ فقالت أسقوه ماءً، فإن عليه أثر العطش، وسقته هي الماء، فسكن قلقه واستراح وطاب. فلاحظي طفلك بالماء، ويمرس معه قليل من تمر، أو سكرة نبات. (انتهى).

* * *

عناء المعيشة في هذه الحياة

قيل: لما أُهْبِط آدم عليه السلام من الجنة، جاع وضطر للأكل، أتاه جبريل عليه السلام، بحب القمح (الحنطة) وقال له: هذا قوتك في هذه الدنيا، ولكن قم ازرعه وكل من ناتجه، فأراه كيف يبذر الزرع، وأتاه بمسحاة، وأراه كيف يحرثه، وأراه كيف يسقيه، فنبت وستوى ونضج بالحال، فأتاه بالمخلب (المحش) وأراه كيف يحصده، وكيف يدوسه، وكيف يذراة يُنَقِّيه، ثم أتاه بالرحا (حجرين) وأراه كيف يطحنه وكيف يعجنه، وأتاه بالزند، وأراه كيف يقبس النار، وكيف يخبزه، فلما نضج القرص أخذه جبريل فحذفه بين الشجر فذهب القرص يجري، فقال جبريل لآدم اتبعه وكله، فذهب يتطلبه فما وجده حتى تعب، فأخذه وأكله، فقال له جبريل، هذه عيشتك في هذه الدنيا، بهذه الصعوبة، فلن تحصل لك بدون ذلك.

قلت: قد أدركنا الناس على مثل هذه الأحوال، حتى زماننا القريب، حيث ظهرت هذه الصناعات الآلية. فسبحان مصرف خلقه كيف يشاء. (انتهى).

* * *

تابع ناتج الأرض

وكان كثيرًا ومتيسرًا لخصوبة الأرض، فأنا أذكر في وقت صغري ونحن في إحدى القرى وقت الربيع، أن والدتي رحمها الله، تعطينا أكياسًا صغارًا وترسلنا نأتي بفقع من عند ذيك الشجرة، فنذهب إليه فنجده مزابير فنلتقط منه ما يكفي عشانا اليوم، والباقي في مكانه ما يتعرض له أحد، لأن سائر البر كذلك.

وحدثني رجل ثقة، وكان يذهب مع رجال عُقيل للغربية، ويذكر وفرة وجود الفقع وقت الربيع، خصوصًا في شمالي بلدان نجد، يقول: إن الإبل تَتَزلَّق بالفقع إذا مشت، واللّٰهِ إنها لا تستطيع تبرك على الأرض للمبيت في بعض المواضع حتى نزيل الفقع عن مباركها، ونقذفه هنا وهناك، كما نقذف بالحجارة، من وفرته، فييبس في مكانه.

كما أننا دائمًا نصيد كثيرًا من صيد البر لتواجده ونحن صغار. (انتهى).

* * *

قاعد في ضرية للهافية والهفية

ضَرِيَّةُ موردُ ماءٍ طيب، على طريق الحج من نجد وقت الإبل، هي: المورد الرسمي على الطريق، ولا تزال عامرة حتى الآن، ولكن إذا وصلها الحُجّاج، وإذا بعض الإبل قد هزلت وبعضها قد أدْبَرَ ظهرها، والدَّبَرَةُ هو: جرح يحدث في ظهر البعير أو الحمار، بسبب ثقل الحمل أو ضعف الوقاية (الشداد) ونحوه، كما يقال: [دبر تحت وَبَرْ] للأمر المكروه المخفي.

الحاصل: أن الحُجّاج إذا وصلوا ضرية، باعوا الراحلة الهزلانة، والمدبر ظهرها، فيشتريها القاعد (المقيم) في ضرية بقيمة قليلة، ويبيع الناقة الطيبة بقيمة كثيرة، لأن الحاج مضطر لذلك، وكذلك الطعام وأثاث المسافر على هذا النمط، ويضرب بذلك، المثل: للإنسان يتحين الفرص للمصالح، أين كانت، ومتى كانت، (قاعد في ضرية للهافية والهفية). (انتهى).

قيل: (الذئب ما يأكل لحم ذرعانه)، يضرب مثلاً بالحمية للقرابة، والصبر على النواقص منهم.

قيل: (الحمار إدفعه ويطأ رجلك)، يضرب مثلاً للإنسان البليد العنيد. قيل: أبرد من نار الشتاء، قيل: (الله يغنيك عن سِحَا وْوِرْدِهِ)،

كان الناس إذا سافروا، لا بد أن يمروا في طريقهم، على أبيار فيها ماء يسمونها (موارد)، يشربون منه ويسقون الإبل ويملؤون القِرب، ويحملونه معهم إلى المارَدِ الثاني وهكذا، وبعضها ماءه عذب طيب وبعضها غير طيب، ولكن لا يحصل لهم غيره، فيضطرهم الظمأ لورده، كما قيل: (يحدك على مران أمر منه)، (مران بئر ماؤه مر ولكن الظمأ أمر منه): وسجا هذا مورد ماء على طريق الحج من نجد وقت الإبل، ماؤه غير طيب وغير وافر، فلا يرغب أحد ورده إلاَّ عند الاضطرار، ولهذا يضرب به المثل، للإنسان قليل المروءة قليل النفع، قليل الخير للغير، (الله يغنيك عن سجا ووروده). (انتهى).

نريد نعالاً من الماء

قال: شاعر يصف حبيبته بالترف والنعومة ويبالغ فيقول:

لي صاحب يمشي على القطن واحفاه … يا من يصنع له من الماء نعال

* * *

هل تعرف الدِّخش؟

قال شاعر نبطي:

يـا شيـب عينـي يـا هَنِـي البهـايـم ما يفرقن درب الْهدَى من عواجه

هنـــى دِخْـــشٍ دِبْ الأيـــام دايـــم ما له اِخْذا ما حَطْ بالبطن حاجة

الـمـعـانـي:

هذا شعر نبطي رديء اللفظ: لكنه جيد المعنى: فهو يعني به بعض الناس، ليس به شهامة، ولا مرؤة، فلا يهمه إلاَّ شهوة بطنه ونفسه، وهي صفة غريزية: يقدرونها بين طبع الحمار والثور، فصاحبها هو الدِّخْش فَيَهْنَأُ هَنَاءَةَ البهايم: لا أَرَبَ له بالمروءة والمعالي، ولا يأنف من المنقود والعيب عليه، وسقوط شرفه أمام الناس وعند اللّٰه سبحانه، (وقوله: (دِبْ الأيام دايم) يعني سائر الأيام مستمر شأنه هكذا)، (اِخْذَا) بمعنى غير. (انتهى).

❊ ❊ ❊

حطى بالعاروك من طيب اللحم

كانت عائلة في البادية، وكان لهم عبد مملوك، يسرح بإبلهم يرعاها في البر، وذات ليلة لما هضل من السرح عِشاءً، وإذا قد التف مع إبله قعود (ولد ناقة)، قد ضاع من أهله، فطمعوا في أكله، فذبحوه ليلاً، فلما أصبحوا، وكان الراعي يريد أن يعطوه نصيبه من اللحم يذهب به معه يأكله في العزيب (البر)، وكانت عمته صاحبة البيت (سيدته) هي التي في البيت ذيك الساعة، فطلب منها أن تفرد له نصيبًا من طيب اللحم، وتعبئه له في العاروك، (والعاروك: هو وعاء شبه علاقة، يجعل فيه بعض المتاع)، فالمرأة قد شحت باللحم عليه، وجعلت تضع له بالعاروك من رديء اللحم، فلم يقنعه ذلك، فجعل يقول (حطي بالعاروك من طيب اللحم)، فتزيده لكن من الرديء، وفي اللحظة: سمعوا مناديًا يشيد عن الحاشي، فيقول: (من عَيَّنَ القعود جزاه اللّه خير؟) ويرفع صوته بذلك، فالعبد انتهزها فرصة للحصول على شيء من طيب اللحم، وكان العبد ذكيًا، فحين سمع المنادي: برز من البيت، وجعل ينادي راعي القعود، (يا وَلَدْ إِلْحَقْ جايْ، اِلْحَقْ جاي) يعني تعال، ويومىء له بثوبه، ففزعت المرأة وارتاعت، وجعلت تصيح له: لا تفضحنا لا تورطنا، فقال لها (حطي بالعاروك من طيب اللحم)،

فأفرغت اللحم الرديء عن العاروك، وجعلت تعبئه من طيب اللحم، فلم يقنعه ذلك، فرجع ينهم الرجل يستعجله إليه، ليزعجها، فتصخو له بزيادة من طيب اللحم، فضجت المرأة تتدخله، فضحتنا فضحتنا ياشين، فيقول: حطي بالعاروك من طيب اللحم، فجعلت تزيد العاروك من طيب اللحم حتى رضي عنها، وإذا الرجل المشيد قد أقبل عليهم، (هاه وش تقول يا ولد)؟، لكن العبد في الأصل، لا يريد يفضح عمته ويخبر عنها حقيقة، وإنما يريد يخيفها لتعطيه من طيب اللحم، وإذْ أحرز مطلوبه لقي الرجل المشيد، وجاوبه بإخبارية بعيدة عن الموضوع، فقال مجاوبًا الرجل: (أمس قبل أمس، وقبل أمس أمس، سرحت بإبلي، ورا الزبارة هذيك، أو ورا الزبارة زبارة، أو ورا الزبارة زبارة، ونفجت أرنب، ترفع إذن واتْطَمِّن إذن، أظن بين أذْنَيْها من قعودك خبر. فغضب عليه الرجل، واستهزل عقله، وشتمه، وراح وتركه. فسرى عن المرأة وفرج همها، قوله: (نفجت الأرنب)، أي قفزت وخرجت من مخبأها في الشجرة وهربت. أما عمل هذه المرأة مع مملوكها، فهو يوجد في بعض الناس، من عدم العناية بالخادم المملوك والأجير وغيرهم، لاختلاف طبائع الناس في الفضل وعدمه، وقد كان رجل هناك له زوجتان، وله عبد مملوك، فتختلف سيرة المرأتين مع العبد، فيسمي هذه: عمته الحبيبة، وهذه عمته النَّزْرة، حتى جاء أولادهن كذلك، وهم أولاد رجل واحد. (انتهى).

* * *

فوائد الألفة بين الزوجين

ومن فوائد المودة والألفة بين الزوجين، حفظ النفس (الْعِرْض) والحرص على الاكتساب، لزوجته وأولاده ليمكنه الاستقرار فيهم.

سافر شاب لطلب الرزق، فوله واشتاق إلى أهله فقال:

يـا شَيْـب عينـي مـن الفـرقـا ... بـالليـل عينـي شقـاويـه
ألعـي كمـا تلعـي الـورقـا ... علـى اعيـون النـداويـه
أنـا ورا ديـرة البلقـا ... والتـرف نجـيدِ حـراويـه
أنـا ورا ديـرة البلقـا ... والجيـب مـا فيـه خـرجيـه
وَجْـدِي عليكـم بعـد وَجْـدا ... وَجْـدَ الحميـدي علـى ارقيـه

الـمـعـانـي:

الورقا: هي القِمرية نوع من الحمام، تلعي: أي تغرد وتصوت كثيرًا، الخرجية: هي الفلوس التي معه يُخَرِّج منها حسب حاجته. الجيب: هو المخباة على الصدر في جهة اليسار، لِيُدْخِل فيها يده اليمنى، تكون داخل الثوب، فمها مستطيل مع الجيب، وتنتهي تحت حول الجيب، وتكون شبه كيس مخفية غالبًا، فهي حرز الإنسان البدني، وهي أحفظ وآمن من المخباة على الجنب، وإنما جعلت على

الجنب في الثوب: في الأوقات الأخيرة. قيل: أرسل إنسان مع آخر أمانةً، (دراهمًا) فادعى أنها ضاعت منه أو سرقت؛ فخاصمه صاحبها، وطلب تغريمه إياها، فقال القاضي للمدعىٰ عليه: إن كنتَ قد وضعتها في مخباتك في الجيب فلا غرامة عليك لأنها حِرْزٌ وهذا فوات الحرص، وإن كنت قد وضعتها في مخباتك على الجنب فأنت مفرط فتغرمها.

وقالت امرأة حين غاب عنها زوجها مدة طويلة:

يا حيف يا رجل شَرا له معاميل	ذا لـه ثمـان سنيـن مـا دق فيهـن
إما ايسويهن أسواة الرجاجيل	وألا يخليهـن لْمَـنْ يعتنيهـن

الـمـعـانـي:

المعاميل: هي مجموع أواني عمل القهوة، وهي هنا: لِغز تعني به نفسها حين صَبَّرت نفسها هذه المدة الطويلة، حتى خشيت الضرر على نفسها، فلا ملام عليها في ذلك إذًا. وقيل: إنه حاضر ولكنه عِنِّينٌ لا يصل إليها بشيء: فتمثلت بهذه الأبيات، بعد هذه المدة الطويلة، فسمعها فطلقها رحمهم الله. (انتهى).

* * *

الْجَدَايِل في القديم

الجدايل هنا: هي ضفائر المرأة، وهي شعر رأسها، وتسمى قرون، واحدتها: جديلة ـ ظفيرة ـ قرن، وهي لكمال المرأة وجمالها، وعدمها يُعَدُّ عيبًا في المرأة، يشترط عند الزواج، ولكن تُرِك الاعتناء بها في هذا الوقت، وكانوا يصفون المرأة بجودة قرونها، قال شاعر:

قرن الغَضِي يورد البِرِّيت   إيلا جِيت عطشان تدلى به

والبريت: هي بئر معروفة في الموارد البرية الشرقية الشمالية من نجد، عمقها خمس وثلاثون باعًا: نحو خمس وستون مترًا، لا يُخرج الماء منها بالدلو إلاّ على جمل لبعد المدا، وهذه مبالغة من الشاعر، في وصف محبوبته، بالجمال الفائق بذلك. وكان لهم عناية في تغذية الشَّعَر ونموه وجماله، وذلك بموالاته بِالْمِشْطَة: فهي تغذيه وتصونه عن التساقط والتكسر، والمشطة، هي أولاً: غسله بالماء والتنظيف، ثم يجدلونه جديلتين تغطي الأذنين، وكان لا يوجد الصابون، ولا الدهانات الحديثة للتنظيف، ولكن يتخذون للتنظيف: أنواعًا من الإنتاج الوطني، فالبادية يغسلون الشعر ببول الناقة، أو الشاة وبعده الماء، أما الحاضرة: فهم يتخذون الإشنان والجص للتنظيف العام، وورق السدر

المسحوق لتنظيف الشعر، ويخصصون غسل الثياب بالجص لسلامته من الخشونة، ثم اليوم الثاني بالمشطة: يدهنون الرأس بالسمن الطبيعي: سمن البقر أو الغنم، ويسرحونه بالمشط، ثم يضعون فيه معجون الورد: أحسن طيب للنساء، هو مسحوق ثمر الورد (السلطاني) وهو زهور الورد، ناشف يستورد من الهند، معروف عند العطارين، يخلط بورق السدر، ويجعلون لونه زهري يميل إلى الحمرة، من أجل الجمال، والمرأة ذات الزوج تخلط الورد بقرص الورد إن أمكن، وهو طيب تعمله النساء من الجاوني حيث يصهر على النار، ويكون عجنه ليِّنًا سائلاً ليداخلوه بعموم الشعر أصوله وفروعه، ويمشطونه بالمشط ليداخله الورد، ثم يفرقونه ثمان أو عشرًا أو اثنا عشر جديلة، حسب جودة الشعر. فالأماميتين كبيرتين رَخْوتين تغطي الأذنين ليكلل الشعرُ الوجهَ، ليظهر عليه رونق الملاحة والتعطف، كما في المثل: (وِجْنَةٌ وجديلة، وعينٌ كحيلة)، فالوِجْنَةُ هي أعلى الخد، تكون بها حمرة، وعين مكحولة، وجديلة متدلية حول جوانب الوجه، وبقية الجدايل مستديرة تكلل جوانب العنق والقفى، فهذا هو الجمال والملاحة والتَّغَنُّج في المرأة، ولكن حَسَدَنا عليه الأعداء، فزينوا للمرأة التصليع والإنحسار، باسم الموضة والتمدن، وقد قيل: (أقبح ما في المرأة إنكشاف أذنيها وصُدْغَيْها عن الشعر)، فيذهب عن الوجه ماء الحياء غالبًا.

الحاصل أنهم يجدلون الجديلة، من ثلاث بسائل: جديلة مثلثة من أصلها إلى فرعها، ولا يشدون أصلها بالجدل، ليكون هيكل الشعر

جميل، يتركونه هكذا لمدة أكثر من أسبوع، ثم ينقضون الجدايل ويغسلونه. وهكذا يتكثف الشعر، ولا يحدث به حساسية في الرأس، حيث يدهنونه بالسمن الطبيعي.

(وهنا مسألة فقهية) يذكرها أهل الفقه في خصال الفطرة، نريد إيضاحها، حيث قد تركت غالبًا في هذا الزمان، فخفية على بعض الناشئين، وهي من ضروريات الحال: (وهي إزالة شعر العانة في الرجل والمرأة: فالرجل يحلق شعره، والمرأة تنتفه نتفًا، لصعوبة نتفه في الرجل، وسهولته في المرأة، (لاستدامة الطراوة والنعومة)، فالشعر يضعف بالنتف، ويستغلظ ويشتد بالقص، (ولا ينبغي الاستحياء من ذكر ذلك، فإن اللّٰه لا يستحي من الحق)، وكانت النساء من قديم الزمان يوصي بعضهنَّ بعضًا بذلك، وقد رُزِىءَ بعض الرجال بترك نساءهم هذه الفضيلة، حيث ضعفت فيهم الحماسة، أما شعر الأبط: فهو ينتف في الرجل والمرأة نتفًا، وقد يشق عليهم نتف الشعر في أول الأمر، ولكنه إذا عاود عليه الإنسان صار يتلذذ للنتف، ويرتاح من أذى الخشونة (جربوه تعرفوا ما ذكر). (انتهى).

* * *

الجوع أبو موسى

قال الشاعر (حميدان الشويعر):

لقيــت الجــوع أبــو مــوســى بــانــي لــه بيــت فــي الْحَجِــرِهْ
عليـــه اشْمَيِّـــغِ إزيْـــرِقْ وابْشيـــتِ مـــرقـــوعٌ اظهـــره
حـــاكـــانـــي وحـــاكيتـــه وعطـــانـــي هـــرج لـــه أثمـــره
يقــول النعمــه خمــر جيــاشــه مـــا يحملهـــا كـــود أوثقـــه
والجــوع إخْــدِيــديــم اجــواد وِدِّكْ يـْــا طـْــا كِـــلّ ازْلقِـــه

تمتاز بعض الأرض والبلاد على بعض، بالخصب واليسر، وتبتلي تيك بالجدب والعسر، حكمة لله سبحانه، كما قال بعضهم حين انتقل بعض قبائل عنزة، من بلاد كانوا يسكنون فيها، إلى بلاد الشمال:

انتقلــوا مـــن الأرض الضبـــابـــة الجـــدبـــة
إلـى الأرض ذات الأنهـار والأشجـار الخصبـة

وقد أخبرني رجل ثقة رحمه الله، ممن كان يذهب مع رجال عُقيل للغربية، يقول: خرجتِ مع معزبـي فلان من رجال عُقيل، وسرنا في الطريق ما بين نجد والعراق على طريق الْحِجِرهْ، يقول: مرينا على بيت شعر (لأعراب)، فأنخنا عنده للضيافة (ننيخ الركايب) أمام البيت جهة

الرجال، وننزل العفش ونجلس حتى يدعوننا للضيافة، ولكن صادفت الحال أن الرجل صاحب البيت غير موجود؛ فجاءتنا المرأة صاحبة البيت بإناءين، فوضعتهن عندنا ورجعت، وإذا واحد فيه ذرة حب، والثاني صغير فيه دبس، (وهو ماء التمر شبه عسل)، يقول: فتحيرنا لا ندري ماذا نصنع به. ثم جاء ابنها الصغير فوقف ينظر فينا ليس عليه ثوب، فقال خويـي للصبـي: تعال كل يا وليْدِي: ودفع إليه العيش، فقرب الصبـي بسرعة وجلس فَغَطّ (أدخل) أصبعه بالدبس، ثم أدخله في الذرة، ثم أدخله في فمه وخرط الحب الذرة فيه، وجعل يجرشه بفمه وأكله، فقال خويـي: ما تسمون هذا وأنا عمك؟ فقال الصبـي: (هذا قضوم) فقال له خويـي: شله إلى أهلك، فحمله الصبـي إلى أهله، ثم قال خويـي: قم يا سليمان خذ من زهابنا عيش (تِمَّنْ) وإيْدام دهن واعطها تطبخ لنا وإياهم، فأعطيناهم وطبخته، فلما أبرزته لنا قالت: (العذر من الله ثم منكم يا رجال والله ما عندنا غير ما قدمنا لكم).

قلت: الحمد لله على ما أنعم به علينا من النعم العظيمة الظاهرة والباطنة، والتِّمَّنْ: نوع من الأرز، ينتج بالعراق، إنتاج عراقي زراعي، غليظ عند الأكل غير شهي، يقتاته غالب عرب الجزيرة، ويوجد عند بعضهم حتى الآن. (انتهى).

* * *

تابع ـ تبادل المروءة

كان رجل في البادية، له فرس طيبة قد اشتهرت بالجودة، وهناك رجل من غير جماعته يتعاطا أعمال الصعلكة، هو نهب الإبل وغيرها من بعضهم، فقال له أحد الجماعة، أريدك تنهب لي فرس فلان؟ فقال الحرامي للرجل: اشترها مني: فاتفق معه على قيمة معلومة، فذهب الرجل يتحين الفرصة لنهب الفرس من صاحبها، وكان صاحب الفرس، يذهب كل يوم من هنا إلى هناك، على فرسه لبعض شؤونه، ويرجع من طريقه. فهذا الحرامي ترصد لصاحب الفرس ليصيب منه غرة ينهبها، فلم يمكنه ذلك، إلاَّ أنه عمل حيلة شنيعة، بأن جرّح نفسه ولطّخ الدم بوجهه وجسمه وثيابه، ثم تماوت في طريق صاحب الفرس، فلما أتى عليه صاحب الفرس، ورآه هكذا أخذته الحمية الإنسانية، فنزل عن فرسه وجعل يحمله عليها، فيسقط على أنه منصرع؛ وأخيرًا ثبت على ظهرها على أنه قد انتعش بعد الإغماء (الموت)، فانطلق بـه الرجل يمشي، يقود الفرس بهذا الجريح لينقذه من الهلاك، فما راعه إلا والمريض يفسخ العذار وهو حبل الرشمة من رأس الفرس ويتركه بيد صاحبها، ويعتدل على ظهر الفرس، ويرجفها ويهرب بـهـا عـن صاحبها، فاهتز الرجـل وبـادره الفكر، فناداه قائلا:

(يا رجل ــ يا رجل أنت أخذتها وتستاهِلْها، ولكن ريضها قليلاً أريد أوصيك وصية؟). وحيث كان الرجل الحرامي على ظهر الفرس، قد أمن أن يلحقه صاحبها على رِجليه، فأوقفها؟، فقال له الرجل: (تراها معك أَمانة: لا تقل للناس إنه وجدني ميتًا وحملني فأخذت فرسه، فإنهم يتركون إنقاذ الميت، وتنقطع المروءة، ولكن قل إني غلبته وأخذت فرسه، حتى لا يتركون المضرور، فَأَثَّرَ هذا الكلام في ذلك الحرامي، فأرجع الفرس ونزل عنها وسلمها صاحبها. (انتهى).

* * *

المطر

إذا أراد الله سبحانه المطر، أرسل الرياح غالبًا، فتثير السحاب، فيمطر بإذن الله تعالى، وفي المثل (عجاج يتبعه مطر)، فالمطر النازل من السماء على ثلاث درجات: مطر ــ ولى ــ سبيل، فالمطر هو القليل، والولى أكثر، والسيل هو المطر الكثير الذي تجري منه الأودية، وحيث كان الناس في القديم صحراويين، وأكثر مصالحهم ومادة حياتهم على اللّه ثم على السيل، فإنهم يهتمون بمعرفة مقاديره، (المقدار المنتج منه وغير المنتج).

(أ) المطر: هو القليل الغير منتج، إذا نزل على الأرض لا يعدونه سيلاً، وإنما يقولون فراش خير، يعني تفاؤلاً أن الله يأتي بمطر آخر يَعُلُّه، لأجل يغذو نبات العشب فيه، (ومقدار المطر مثلاً): هو إذا صب ميزاب السطح الطين ووكف بيت الشعر، ولو درج مائه على الأرض الصمد، لأن مثل هذا لا يكون له عمق رِيٍّ في الأرض، فسريعًا ينشف إذا تأخر عَلَلُه، (هو السيل الآخر).

(ب) **أما الولى**: فهو أكثر من المطر، ومقداره أن تسيل الأودية الصغار، والشوارع، والأرض الصمد، لكنها لم تجرِ الأدوية الكبار،

فيقولون (سيل شَغِيَّةٍ وجادة). يعني أن ماءه أجرى فروع الأودية، ومثلها الجادة، فالشغية هي: أحد فروع الوادي، والجادة هو الطريق ونحوه، فيكون مقدار نزول الثرى (الري) في الأرض الرملية نحو شبر، فهو أطول تغذية للعشب من المطر، ولا يعدونه سيلاً، وإنما ينتظرون من الله إتبوعه (المطر الآخر) ليعل نبات العشب فينتج، ولكن في هذا الوقت تغيرت معرفة الناس مقادير السيل، (المفيد منه وغير المفيد)، لأنهم الآن غير صحراويين، ولا كانت مصالحهم ومادة حياتهم متركبة على وجود السيل المفيد فيعرفونه، لكنهم الآن إذا رأوا وبيص الماء في الأرض قالوا مطرت البلاد، جأنا سيل جيد، ولم يعتبروا بمرور مثله، وأنه لم يظهر له أثر يعتبر، (ربيع ومنافع)، فمثل هذا لا يعد سيلاً، إلاَّ إذا تتابع مرة بعد أخرى. والأرض الرملية (السهل) قد يفيد فيها ما لا يفيد في الأرض الصلبة.

(ج) **السيل**: أما الناس الصحراويون فإنهم لا يعتبرون إلاَّ السيل: وهو الذي تجري منه الأودية الكبار، وينزل الثرى في الأرض حتى لا تدرك فيها يباسًا إذا حفرت في التراب، فيقال: (سيل أودية): وإذا زاد: قالوا: (لم يترك حية في جحرها)، ويقال [سيلٌ جارف] فهذا هو الذي يغذو العشب، والأشجار، والمراعي في البر، والزرع، وتحيا منه الأرض، وتكثر المنافع فيه بإذن الله، وينزل خزينًا في الأرض، يستخرجونه من الآبار طول الزمن، إذ قسيميه: المطر ـ والولى، ليسا كذلك.

فصل:

أما أهل المدن والقرى، فهم يهتمون لمجاري السيل ومجابيه (مخابئه)، داخل البلد وخارجه، فله عندهم شأن عظيم، فكل أهل جهة من البلد، أو حارة، أو شارع (حسب تحول السيل)، لا بد أن يعرفوا مجرى السيل لبيوتهم وشوارعهم ومقره، حتى صاحب البيت: وحتى إذا اشترى أرضًا سكنيةً ولو كانت رمليةً فلا بد أن يعرف مجرى سيلها ومستقره، إذ السيل يملك مجراه قبل التملك لما بعده، ويلزم البائع الالتزام بمسيلها ومخبأه حسب عرف البلد، إلَّا أن يشترطه البائع على المشتري ويرضا بتصريفه هو، ومجبى السيل (المخبأ) هو قطعة أرض في أخفضها (مجتمع) السيول: يحفرون به حفرة كبيرة جدًا، تخبأ ماء السيل عنهم، وسعتها وعمقها حسب كثرت المجاري عليها، مع الاحتياط لزيادة السيل، فأنا أعرف مسايل كثيرة: منها مسيل عام وسط البلد قديم، يحضن غالب سيل البلد، وبه يعرفون مقادير السيل، فإذا بلغ الماء نصفه قالوا سيل أودية، (يعني جيد) فإذا قارب الامتلاء قالوا: سيل غرق، وهذا سِوا ما تغيضه الأرض حالة المطر وينفذ فيها، حيث كانت الشوارع تراب طبيعي، ولهذا يرتفع الماء في الآبار إذا امتلأت المسايل وجرت الأودية.

فإذا نزل المطر وجرت الشوارع خرج بعضهم يرقبون مسايلهم عن أَحَدٍ يحول سيله عليهم، فيمتلىء مسيلهم فيرجع عليهم يدخل بيوتهم فيغرقهم، وقد يحصل بينهم نزاع وشِجار، ومضاربة بالعِصي وخصومات. والمسيل يجعلون عليه سورًا وبابًا يغلق، حتى لا يغرق فيه

أحد، وأسفله حجارة به منافذ لدخول الماء فيه يسمونه (اعْراصُ السيل: وصُنْع السيل). وإذا اجتمع فيه طين وتراب من السيل، قاموا بإخراجه وتنظيفه وقت الصيف، وحفره زيادة إذا احتاجوا ذلك.

فإياك أن تهمل هذه المسألة لبيتك، ومحلك، وشارعك، وطريقك، لأنه إذا خنقك السيل فقد لا يمكنك التصرف، وإذا أردت بناء بيت فاجعله في أَعْلاَ الأرض، فالمنازل أعلا من الحوش، والحوش أعلا من الشارع مجرى السيل، حتى لا يرجع السيل على المنازل. ولا تستهن بأمر السيل؛ فقد يمتلىء مسيلك ثم يزيد اللّٰه سحابة، فكم سمعت بغريق، وهدم، وانجراف، من جراء الاستهانة به، كما قيل:

وادٍ جرى من الحيا لا بد ما يجري إيلا ما جرى عام جرى العام الآخر

سال وادٍ بجانب البلد، وكان ماؤه يَحِيرُ: لأنه قد بنى في مجراه (منتهاه) حارة مباكن (بيوت طين) لبطىء جريه، وقد سدوا نفوذ الوادي إليهم، فلما كثر الماء، خرج أهل جهة البلد، يريدون فتحه لمجراه حتى لا يرتفع الماء لبيوتهم يهدمها، وخرج أهل الحارة، يردمون السد ويرصدونه لا يُفْتَح يُغْرِقهم. فتنازعوا وتشاجروا وتضاربوا بالمساحي والعصي، فوصل الصائح للأمير: فأتى مسرعًا على الحصان، فتخاصموا لديه: فقال لخادمه: اركب الحصان، واذهب انظر في مجرى الوادي من الفرع، فإن كان يجري فتحناه لمجراه، وإن كان قد وقف انتهينا؟، فذهب الخادم ورجع سريعًا فأخبره أنه قد وقف، فقال الأمير تفرقوا ودعوه، فتفرقوا. (انتهى).

* * *

كلام أبو زويد يوصي ابنه.. قال:

من قال أنا الفعال فهو من اهباله   الفـاعـل المـولـى إيـلا راد فعـال

مير يا بني تراي مودعك لك مسالة   مسـالـة مـا يفهمـه كـل رجـال

أحشم خويك عن اعلوم الرزالة   ترى الخوي عند الاجاويد له حال

وايـلا صـار لـك مـن عُـوْصَ النِّضـا ازمـالـه

حمـــرًا تـــوردك ايـــلا ســـرب الـــلال

خلهـــا مـــع الـــدِّيّـــان تمشـــي الحـــالـــه

إيـلا صـار مـانْـت للمسـة الخشـم حمّـال[1]

والمـرجلـه بـالـك تـرخـي احبـالـه   وبالك تعيل ولا تراخا الْمِنْ عال

وصديقك الداني ايلا شفت حاله   ودك انـه مـن المعـاليـق يكتـال[2]

---

(١) هذا وصف للناقة المركوبة، كما يشمل غيرها من المركوبات، وهو هنا كناية للغناة عن الناس، وعدم الاحتياج إليهم: لأن بعض الناس ليس عنده أخلاق وعقل يتحمل الأذى والأخطاء من الجيران والأصحاب، فالأحسن له أن يعيش وحده، لأن لمس الخشم (الأنف) لا يسمح به العزيز من الناس إذا كان بمعنى الإهانة، وهو هنا كناية عن الخطأ إذ لا يمكن أن لا يحصل على الإنسان إخطاء من الجيران والأصحاب، فيتحملها الكرام ويضيق بها اللئام.

(٢) قوله: من المعاليق يكتال. المعاليق هـي عروق القلب داخل الصدر، والكيل هو الطعام، وإحضاره للبيت اكتيال، واللفظ هنا يشمل غيره من الحاجات.

ياعل رجل شوفته دوب حاله[1] عسى زوجته اتدور بيه الابدال
الحمره تدرك معوشة اعياله والا الرجل يبغىٰ منه بعض الاحوال

* * *

(١) قوله: دوب حاله، أي: همته بفضله لنفسه فقط، فلا مرؤة فيه لمراعاة غيره، خصوصًا الأقارب والجيران والأصحاب، فالحُمَّرَة من أضعف الطيور، ومع ذلك فقد قامت بنفسها وأولادها فقط.

والدِّيَّان هي (الجِيَّان) واحدها جو، مواضع في البر منخفضة واسعة، حيث كان أبو زويد من أهل البادية. (والمساله هي المسئلة عند العامة).

قوله: إيلا سرب اللآل، (اللآل هنا: هو الظمأ والهلاك في البر، وسرب: أي ظهر لك السراب بسبب امتداده وبعده، فإذا خفت الهلاك وعندك ناقة طيبة فاركبها واذهب إلى الماء فهي توردك إياه وتنقذك من الهلاك)، يعني: فاستخدم عموم مالك هكذا في سائر شئونك. (وأبو زويد من فطاحلة الرجال وشجعانهم، وله أخبار جيّدة عند عامة العرب). (انتهى).

هل يكون

هناك رجل أتى ليلة عرسه ومعه شنطته (علاقة في يده)، وحين أدخله أبو البنت الغرفة عند عروسته وأغلق الباب، فتح الرجل شنطته وأخرج أوراقه وجعل يشتغل فيها، حتى غلبه النوم فنام، ولم ينظر إلى الفتاة، فلما أصبح حمل حقيبته وخرج، جاء أهلها يسألونها: كيف الحال؟ أخبرتهم أنه لم ينظر إليها، فقالوا: يمكن أن عنده أمر ضروري مباغت، وكان العريس ذاك الوقت يبيت عندهم عدة ليال، ويخرج الصباح مبكرًا، ويرجع وسط الضُّحا للقيلولة. فهو جاء للقيلولة على العادة، يحمل حقيبته وحين دخل الغرفة عند عروسته فتح الحقيبة واشتغل بها، ثم خرج الظهر ولم ينظر إلى الفتاة، جاء في الليلة الثانية بعد صلاة العشاء الآخرة، ليدخل؛ سأله أبوها: لماذا أنت تشتغل بالأوراق وأنت عِرِّيس؟، فشهق الرجل وقال: (ألله يُفَطِّنُكَ للشهادة: والله إني نسيت أني معرس)، فقال أبوها: إذًا هات الحقيبة، فأخذها منه.

قوله: ألله يذكرك الشهادة: أي شهادة أن لا إلـه إلاّ الله عند الموت، وكانوا يحرصون على تلقين المحتضر الشهادة، والدعاء

بها، لحديث: (من كـان آخر كلامه لا إلـه إلاَّ الله دخل الجنة)، رواه أحمد عن معاذ: وهو حسن. والمحتضر هو الذي حضره الموت: بأن يذكروا الله حوله برفق (لا إلـه إلاَّ الله) فلعله يسمعها فيذكرها فيقولها، فإن رأوا أنه قالها ولو إشارة ترك، فإن تكلم أو جضر أعادوا التذكير حوله لعله يذكرها فيقولها، فإن قالها ولو إشارة ترك، ولا يقال له: قل لا إلـه إلاَّ الله: فربما أضجره ذلك لما هو فيه من الشدة، فيكفي قولها حوله ليذكرها إذا كان مسلمًا، فكلمة (لا إلـه إلاَّ الله): لها فضل عظيم في الحياة وعند الممات، فهي العروة الوثقى، والخاتمة الحسنة، وهي مكفرة الذنوب، والمنجية من النار، الموصلة الجنة، ولا نجاة لأحد إلاَّ بتحقيقها، وأعظم الناس انتفاعًا بها عند الموت وبعده أحسنهم تحقيقًا لها في الحياة والصحة، قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾[١].

وهناك: راعي غنم سرح بها يرعاها في البر؛ ومعروف عمل الراعي في السرح، أنه يذهب بالغنم للمرعىٰ الخصب ينتقل بها من مكان لآخر، ويحميها عن الذئب، حيث يكون الراعي ملازمًا لها طول نهاره، قال الشاعر العربـي:

ومـن رعـا غنمـه فـي أرض مسبعـة فنـام عنهـا تـولـى رعيهـا الأسـد

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

وقيل:

وراعي الشاءِ يحمي الذئب عنها   فكيف إذا كان الرعاة هم الذئاب

فالراعي يحفظها عن الضياع، ويحضرها للبيت قبالة الليل، ولكن هذا الراعي حضر قبالة الليل وليست معه الغنم؟ فقالوا له أين الغنم؟ فشهق، واهتز، وقال أنا أقول وش أنا ناسي؟. (انتهى).

* * *

استرح يا من قعوده على العِشّه

كان الناس في القديم، عامة وسائل الحياة عندهم (الإبل والغنم والبقر والحمير)، وكان غالب تغذيتها ورعيها في البر: رعي العشب والشجر، وكل أهل بلدة أو حارة يكون لديهم مجموعة من المواشي، ويستأجرون أحدًا يسرح بها، كل رأس من الإبل أو البقر أو الغنم عليه أجرة معروفة، وإذا أفْخَتَ (أي ذهب عنهم) الراعي ولم يكن عندهم من يرعاها بالأجرة، تساعدوا على السرح بها، كل واحد يسرح بها يوم، فـ (صاحب الجمل الواحد عليه يوم، وصاحب الجملين عليه يومي، وهكذ).

وكان جماعة كذلك يسرحون بالزام، وكان أحدهم له جمل قَعُودٌ يعني غير كبير، فإذا قالوا له اسرح اليوم قال: لا، خلون آخر؟ وكل ما قالوا له اسرح، قال: لا، بعد بعد، فلما وقف عليه الدور، لم يبق غيره ويلزم سرحه في الصباح، قام على جمله بالليل وذبحه، وشرَّح لحمه ونشره فوق العشه، عادت الناس إذا كان عندهم لحم كثير، شرّحوه شرائح وملّحوه ونشروه فوق الحبال والخشب والشجر، (ولا يصلح أن تصيبه الشمس وهو رطب)، فإذا نشف ويبس ـ يسمونه: (وشيق)، (قفر) (قَدِيد) ـ ثم يكنزونه طيّبًا، يأكلون منه مدة بقائه عندهم. وهذا

الرجل لما أصبح، قال: (لا إلـه إلاَّ الله، استرح يا من قعوده على العِشّه)، هذا والجماعة ينتظرون قيامه بواجبه، وإذا هو قد خانهم وتخاذل عنهم، وهذه جريمة منه في حق جماعته، ويستحق عليها النكال، ولو أحسن جماعته لنهبوا شرائح لحمه وأكلوها.

كذلك: جماعة حجّوا في وقت الإبل، وفيهم رجل قد ابتلي بلحمة بين كتفيه، يقال لها (سلعة) ويقال لها زايدة، وهي ممتدة تشبه الجرو، أكبر من اليدين إذا جمعتها، وقد أمسكها فيه عرقها يشبه الأصبع، وقد أتعبته ويشتهي السلامة منها، وفي حال وصولهم إلى ريعان الحجاز، قرب منهم حرامي، يسبر أحوالهم، يريد يسرقهم بالليل، يمشي إلى جانبهم هو يراهم وهم لا يرونه، فهذا الحرامي رأى الرجل يزاول هذا الذي بين كتفيه من خلف، فظن أنه جراب فيه دراهمهم، فركز الحرامي على نهبه، فجعل يسبره خاصة، فلما جاء الليل قرب منهم بحيث لا يغيب عن بصره الرجل، فلما ناموا قرب منهم حتى إذا هجعوا، جاء إلى الرجل وهو نائم، فأبرز الحرامي سكينه الخنجر فأمسك الجراب بيده، وقطعه من الرجل بالخنجر بسرعة وهرب به، وصرخ الرجل وفزع وقام، وإذا هو قد قطع منه هذا الذي قد آذاه، فقال: (الله يأخذ عنك ما مؤذيك)، ثم قام جماعته (اخوياه) فأوقدوا نارًا وأحموا حديدة وكووا محله بالنار، فوقف الدم وبريء منه واستراح. (انتهى).

* * *

عقبات التزوج: من مجموع أبا بطين

(قصيدة: عبد الرحمن الراضي: نلخص منها ما يناسب المقام:

قال:

صحيح أنا كبرت والعرس ملزوم   وقلبـي يفـز إيـلا حكـى واحـد فيـه
لا شك دون العرس عادات واسلوم   من يسمعه ما عاد نفسه تهقويه

إلى أن قال:

سعادتك صارت غرابيل وهموم   الدَّيْن لحقك وانت من اين توفيه
خلاص أَبَا نْهِي باقي العمر بالصوم   ما نِيْـب قـادر لـه ولا نيـب قـاويـه
كم واحد مثلي مع الناس محروم   وِدِّكْ تشـوفـه كيـف ليلـه يمضيـه
وكم بنت وسط الدار والباب مردوم   الظـاهـر أن اللـي أعـانـي تعـانيـه
رسـولنـا زوج بـآيـات واختـوم   سـن الـزواج ويـن مَـنْ يقتـدي فيـه
عادات شيلوها ترى ما لها الزوم   لو شيلت العادات كل شرع فيه

قوله: (الظاهر أن اللي أعاني تعانيه): أقول: بل هو أكيد، دليله قول الرسول ﷺ (النساء شقائق الرجال). يعني في الحالات الجنسية، فما تريده بها أنت: هي تهواه منك، (فالنساء شقائق الرجال) الحديث رواه أحمد وأبو داود وفيه ضعف.

كذلك قول الله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[1]: يعني لا يكاد يتمالك عن الحالة الجنسية عند الإمكانية[2].

واسم الإنسان: يشمل الذكور والإناث. (انتهى).

* * *

(١) سورة النساء: الآية ٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير.

إكرام النفس بالمروءة

كان الأصمعي: يتتبع اللغة العربية والأحوال والأمثال، ويبحث مع كل أحد ليستخرج ما عنده من ذلك، قال: رأيت رجلاً يحمل على ظهره للناس بالأجرة، وهو يقول:

وَأُكْـــرِمُ نفســـي إنـــي إن أهنتهـــا وحقك لن تَـكْرُمْ على أحد بعدي

فقلت له: بما أكرمتها وأنت تحمل على ظهرك هكذا؟، فقال نعم: (اكرمها عن الوقوف بباب مثلك). (انتهى).

* * *

هـيــار

الهيار خلاف الصلابة: وهو الرمل الغير متماسك، كالنفود (الكثيب) والرمل الذي تغرز به السيارة حاليًا، ويعم كل شيء لين لا يشد نفسه ولا يحمل غيره، ومعنى الهيار يشمل كلمات متصرفة منه، هيار ــ إنهيار ــ إنهار ــ منهار ــ تهور ــ مهور ــ هَرْ، وغير ذلك. وكانوا إذا أرادوا بناء جدار وصارت الأرض هيارًا، لينة فلا بد أنهم يحفرون له بالأرض، يعمقون أسه نحو ذراع وأكثر، حتى لا ينهال الرمل تحته فيعيب ويسقط، كما قال الشاعر:

والْجَدِرْ ما يبنى على غير تسويس ... ومــن لا تعلــم مــا تفيــد العلــوم

وأضر ما يكون الهيار عليهم، إذا حفروا بئرًا فوجدوا الأرض هيارًا، فلا بد مِنْ إتخاذ عمليات لسمته، فإذا كان أعلى الأرض هيارًا، وسعوا فوهت البئر وحفروا، فإذا وصلوا العزا (هي طبقة جبلية) إن كانت؟ احضروا حجارة وطووها شبه بناء مدور، والحجارة تتماسك جيدًا، فتمنع إنهيال الرمل (الهيار)، وتوجد بعض الآبار هكذا حتى الآن، ثم يخرقون الطبقة الجبلية، ويحفرون تحت حتى يصلوا منبع الماء، ويحفرون موضعه حتى يكثر الماء فيها. لكن إن كان منبع الماء هيارًا (رمل)، فإنه يتهدم ويدفن مجتمع الماء، فلا بد أن يعملوا له ردمًا

يمنع إنهيال الجوانب، لكن ما هو؟: هو أنهم يأتون بأربع خشبات أثل أو نحوه، أخضر رطبة غليظة، فيخرقون كل واحدة في طرفها الغليظ، ويبرون رأسها الثاني، وينزلونها في أسفل البئر، فيدخلون رأس هذه بخرق هذه، شبه حلقة مربعة على سعة البئر، يسمونه (محمل ـ محامل) ويأتون بمثلها ويضعونها فوقها، ثم يأتون بشجر ناعم أخضر، لأجل يطول بقائه في الماء، ويضعونه خلف الخشب يمسك الرمل، ثم يحفرون الرمل وسط البئر ويضعونه فوق الشجر، ويخرجون الزيادة من الرمل برًا، وهكذا حتى يكثر الماء وسط المحامل (الخشب والشجر) ثم يستخرجون الماء منها متحًا بالدلو أو زغبًا في الغرب.

فأنتم إحمدوا الله على هذه النعم، وقيدوها بالشكر، فالماء الآن كثير، يسقي مزارعكم ويدخل عليكم في بيوتكم، ما عليك إلاّ أن تفتح صمام الماء وتأخذ حاجتك وتغلقه، فهذا بفضل الله لا بحولك ولا قوتك، (والله خلقكم وما تعلمون) فالحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعظيم سلطانه.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[1]. (انتهى).

* * *

(١) سورة الواقعة: الآيات ٦٨ ـ ٧٠.

جبل سنام.. وابن جفران

كان ابن جفران شاعرًا من أهل القرى البرية، فأشاروا عليه بركوب البحر للغياصة، رجاء الحصول على شيء من جواهر البحر: فركب البحر ودش الغوص، ولكن حيث كان من أهل البر، لم تتفق له طبيعة البحريين، فضاق صدره وتأسف لتورطه في البحر، لأنه قد اعتاد في البر: شب النار وعمل القهوة واستقبال الضيوف والجلوس عليها والكيف مع أصحابه وتبادل السوالف والأخبار، أما حالة البحر فليس فيها شيء من ذلك، فجعل يتمثل بقصيدة منها قوله:

حسبـــي الله علـى اللـي بـالبحـر وهّقـونـي
مــاشِ بَــرٍّ اقــريِّــب والسبــاحــه رديــه
لا اخطــوط تجينـي ولا اطــروش يجــونـي
آه يـــا قيظـــة راحـــت فـــواتّـــا عليَّـــه
ايــلا بغيتــوا تجــرون الخــراب انهمــونــي
واسمعــوا قيـل ابـن جفـران يـا هـل الحميـه
وايـلا وصلـت الـزبـارة نـاولـونـي اهـدومـي
شــايـم شـومـة الجبـل (سنـام) عـن طميـه

ولكن بعض الناس يقول: ليس الأمر على ظاهره، بل هو يعني في البحر: بحر الهوى في حب معشوقته، وأنه تورط فيه وأشرف على الهلاك: والزبارة في الأصل هي الرمال المرتفعة؛ فإن خرج من البحر ووصلها فقد نجي من الهلاك، والهدوم: جمع هِدِم وهي الثياب، فالزبارة هنا كناية عن محبوبته، والهدوم كناية عن اجتماع شمله بها، وجر الخراب من أعمال السفينة، وطمية، جبل متحد، غربًا من عقلة الصقور، على طريق المدينة من نجد، فالناس يجعلونها امرأة، والجبال حولها رجال، فهي منظورة لديهم، وكل له معها حال: فذاك الجبل (قَطَن) هو جبل أبيض، شرقًا من عقلة الصقور، خطبها ليتزوجها فأجابته، وواعدته تأتيه هي، على عادة العرب القدامى، فنصب خيمته وانتظرها، وأرض الخيمة معروفة الآن جنوب قطن، ظاهرها أبيض، ولكنها منابت للفقع، فأتت طمية إليه على موعدها، ولكن اعترضها الجبل (دَيْم)، فاستلقى على ظهره، فلما رأته هكذا حارت رجليها عن المشي، فوقفت مكانها حتى الآن، وديم مستلقيًا على ظهره في جانب الطريق حتى الآن، وقطن عند خيمته ينتظرها حتى الآن، وهذا الجبل سنام، قد شام عنها لأمرٍ (ما) فانسحب من هناك، حتى وقف على بلدة الزبير بالعراق، وهذا الوادي المعروف وادي الرُّمَة[1] ويقال له الباطن، هو مسحبه فيما يزعم الناس، يمر بعقلة الصقور، ثم القصيم ما بين

(١) واد الرُّمه: بتشديد الراء والضم: وبعضهم ينطقها بإسكان الراء: والميم بين التسكين والخفض، وذكره الأستاذ العبودي في معجم بلاد القصيم على حرف (و) وذكر سبب تسميته.

بريدة وعنيزة، متجهًا إلى الشرق، وظهرت رمال نفود الثويرات والد هنا فقطعته، ثم بعدها يمر بالحفر الباطن، حتى ينتهي بجبل سنام ببلاد الزبير، هذا ما يتصوره الناس ويتناقلونه، فانسحاب هذا الوادي من بين جبال شمالي الحجاز، ومروره وسط الجزيرة، حتى انتهى بجبل سنام بالعراق على خط سوي يلفت النظر، وأنه حين مضى من حول بريدة شرقًا، وإذا في طريقه جبل الربيعية والشماسية والمستوى، فخشي الاصطدام به، فأخذ يسارًا، ويسمى الآن الْمَعَرَج، فلما انتهى جبل المستوي لف المسحب (الوادي) في طريقه شرقًا. فإن كان هو مسحب سنام كما يقول الناس، فهو من صنع قدرة الله تعالى، (والله على كل شيء قدير). (انتهى).

* * *

من الأحوال الماضية

كانت هناك أم كبر سنها وكف بصرها، وكانت عند أحد أولادها، قد برها وأكرمها، والباقون قد شغلهم طلب المعاش عن كثير مواصلتها وزيارتها، فأخذها الشَّرَهُ عليهم، فتذكرت حِيَّانَها وماضي شبابها في بلدان أهلها، بلدان شمالي نجد، فتمثلت بقصيدة منها قولها:

لَـوَا عَـلا مَـنْ لـه ذلـول امْعَنَّـاه   والعمـر والشـوف ينكـس جـديـد
نبـي نـزور دار حَـيٍّ ذكـرنـاه   يَـمْ الحليفـه دون قصـر العبيـد
أَمْ اربعةٍ كلٌّ نسي حلو ما جاه؟   إلا ابو الحميدي عَلْ عمره يزيد
أطلـب مـن الله يبسـط لـه إبـدنيـاه   مـع جنـة الفـردوس وامْـرٍ حميـد
ألـلِّـي مَـاجَـا عَبَّـرَ الله بَلَيَّـاه   عسـاهـم بحـل كـل صبـح جـديـد

الـمـعـانـي:

الذلول المعناة: هي الناقة الطيبة، المجهزة بجميع لوازم السفر، والشوف هنا هو البصر، والحليفة: قرية من قرى نجد الشمالية الغربية معروفة هناك حتى الآن، والأربعة؛ هم أولادها وهي أمهم، وأبو الحميدي هو أحدهم، قد برها وأكرمها، فهي تدعو له بطول العمر وبخيري الدنيا والآخرة، فطال عمره، ومات على خير، وصار له عقب طيب، وما عند الله خير وأبقى.

قولها: (كل نسي حلو ماجاه)، أي: حلو لبنها وتغذيتها ولطفها وحنانها وعنائها به. (والأب بحمايته وولايته وكفايته، فهو يتعب نفسه ويغامر بها، ليقوم للأم بجميع شئونها وأمنها، لتنتج له الأولاد، وتغذوهم وتحفظهم له) فهو بطبيعته قيِّم الأم وأولادها، لذا عظم الله حق الوالدين، فلا يقبل شكره من أحد إلاَّ بشكر الوالدين: كما هو معلوم، لقوله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1].

ويأتي إنشاء الله ما قاله الأب في ولده في الأثر:

غَذَّيْتُكَ مولودًا وعلتك يافِعًا ... تُعَلُّ بما أسدى إليك وتنهل

إذا ليلة ضاقتك بالسُّقم لم أبت ... لغمك إلاَّ ساهرًا أتململ

كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني وعيناي تهمل

تخاف الردا نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت شيء مسجل

إلى آخر القصة كما يأتي إنشاء الله، حتى قال النبي ﷺ للإبن: أنت ومالك لأبيك.

جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن زوجي فلانًا طلقني، جعلني عليه كظهر أمه، ولي منه صِبْيَة، إن ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا؟. فأنزل الله آية كفارة (الظهار) الحديث في بعض ألفاظ أحاديث المجادلة.

وهناك شيخ كبير شايب جعل يبكي، فرآه ابن إبنه، فأشكل عليه بكائه، فسأله: ماذا يبكيك يا جدي؟ فأنشأ قصيدة قال فيها:

---

(١) سورة لقمان: الآية ١٤.

يا خْضَيْر تنشدني وهذي علومي　　　شـوفـى دَنَـا والظهـر فيـه خِلّـه
زَوْدٍ علـى الثنتيـن حطيـت شُـوم　　　واليـد مـن قضـب العصـا مستملـه
مـا كـل مَـنْ حيـا حيـاة تـدوم　　　أَوْلا كل مَنْ حَصَّلْ حَصِيْلٍ حَصَلْ له
والعشـب لا بـده يجيـه السمـوم　　　ويموت لوْ السيل كل يوم يعله

الـمـعـانـي:

الشوم: بدون همز، هو العصا الجيدة الغليظة: يتخذونه نوعًا من السلاح حالة المضاربه، وللحمايه من السباع والحيوان الصائل، كالجمل والثور والكلب العقور، ويتوكىء عليه الشايب،

والثنتين: هي الأرجل.

قوله: (ما كل من حصل حصيل حصل له) يعني أن بعض الناس يتعب ويحرص على جمع المال، ولا ينتفع به فيكون محرومًا، وينتفع به غيره، ومثل ذلك عامة وسائل الحياة: فإذا لم ينتفع به في حياته ولا في آخرته فهو لم يحصل له، ولو كان في حوزته وعليه حسابه، حتى أولادك فقد لا ينفعك بعضهم، فلم يحصل لك وإن كان هو من حصيلك وكسبك. فهذا البيت يحمل معنى جيدًا، والقصيدة طويلة وتحمل معانٍ جيدة. قوله:

(والعشـب لا بـده يجيـه السمـوم　　　ويموت لو السيل كل يوم يعله)

يعني: وهكذا عمر الإنسان، إذا لم يمت صغيرًا فإنه يهرم ويفسد مثل حالة العشب في البر. (انتهى).

* * *

الصلة في الأولاد

أصاب بلاد نجد مجاعة، بسبب الحروب والفوضى في بعض الأزمنة، فأرسل أحد الجماعة إبنه إلى بلاد الكويت، يتطلب لهم أسباب المعيشة، في غياصة البحر، ويرسلها لهم، فلما وصل الإبن الكويت، وجدهم في رغد من العيش، لم تصبهم هذه المجاعة والفوضى، فلم تطب نفسه أن يشبع وأبوه جائع، إذ علمه بأبيه وأهله في حاجة، وكان الابن حين وصل الكويت، أعطا رجلاً ريالاً (ربية) يذهب بناقته يودعها في البر ترعى مع إبل الجماعة، ولكنه عزم على الرجوع لأبيه في نجد، فذهب للرجل الذي ذهب بناقته للبر، فأعطاه ربية أخرى وقال: هات ناقتي التي أنت ذهبت بها أمس، فأتى بها الرجل، فركبها الإبن وخرج وحده لنجد، فلما وصل، ورآه أبوه، اهتز الأب لرجوعه سريعًا وقال: عسى ما شر ياحمد؟ فقال: الابن لا ما يجيك الشر إنشاء الله، ولكن أنا وجدت الخبز والعيش راهي بالكويت، وأريدك تذهب معي تشاركني في هذا الرغد؟ فقال الأب أنا لا أريد الذهاب للكويت، فقال الابن إنها لا تطب نفسي إلاَّ أن تذهب معي هناك، تشاركني في الرغد، أو أجلس أنا عندك هنا أشاركك في مجاعتك؟ فاضطر الأب أن يسافر مع ابنه مجاراتاً له، أن يقتلهم الجوع هنا جميعًا. فذهب معه فلما وصلا الكويت: اشتغل الأب في سوق التمر والابن دش الغوص في البحر.

وكان هذا الابن قبل ذلك هنا: يعمل على جمل على حساب أبيه، يذهب يأتي بحمل حطب على الجمل من البر، ليبيعه بالسوق لطلب لقمة العيش لأهله، فذهب يومًا للبر ليأتي بحمل على الجمل على عادته، ولكن الجمل هزلان، وعجز عن نقل الحمل، فجعل الابن يدرجه شيئًا فشيئًا حتى وصل أهله متأخرًا عن العادة، وكان الأب قد ضاق صدره لتأخر ابنه، فلما جاء الابن ورآه الأب أخذ عصا وجعل يضربه، فوقف له الابن مستسلمًا للضرب حتى برد الأبُ كبدَه من ضرب ابنه وانتهى، ثم أخذ الأب يؤنبه ويوبخه: لماذا تتأخر وأنت تعرف أنه يضيق صدري لتأخرك؟ فأخذ الابن يعتذر برفق: الله يهديك يا أبـي إن الجمل هزل، وكاد ينقطع في الطريق، ولكني ماهلته بالتدريج حتى وصل بحمله. فتأسف الأب على ضربه وجعل يبكي، ثم جعل الابن يبكي لبكاء أبيه، ويقول: لا بأس عليك يا أبـي فأنا نفسي سامحة بِضَرْبِكَ إيّايْ. فرحمهم الله.

البـر سـلـف:

فقد ظهر لهذا الولد إبن بار به، فذهب هذا الإبن الأخير، يعمل في مدينة الرياض ويجمع محصوله، فلما قدم على أبيه هنا، أعطاه محصوله (الفلوس) بإصرارها، وقال: هذا الذي تحصل معي يا أبـي، فأخذها الأب ودعا له بالصلاح والتوفيق، يقول الإبن: والله إني ما أعلم كم عددها، والحمد لله، يقول: فلبست بشتى وخرجت للسوق أسلم على الجماعة بعد الغيبة، فلما سلمت على أحدهم (صاحب دكان) قال: أَشْوا جئت يا محمد؟ إن والدك قد أخذ منا أغراضًا ويقول:

(القيمة إذا جاء الولد محمد نوفيك إياها انشاء الله)؟ فقلت له؛ أبشر بالخير، جزال الله خيرًا، وفرحت بقوله ذلك، وبكيت في نفسي فرحًا، أن أعتمد أبوي في حاله على الله ثم على محصولي.

قـصـة أخـرى:

مشت امرأة هنا وابنها، صبـي لا يتجاوز عمره ثمان سنين، في وقت الضحى، وكانت الأرض حارة شيئًا، وكان الصبـي عليه نعال، ونظر إلى أمه وإذا ليس عليها نعال، فخلع نعليه وقال لأمه: دونكي النعال البسيها عن الرمضاء، فقالت أمه: لا بل ابق عليك نعالك عن الرمضاء، فأبـى إلاَّ تلبسها هي: فلبستها، (تشجيعًا له وتمرينًا له على المروءة والصلة والتحمل) فبارك الله فيهما. (انتهى).

* * *

ومن الأحوال الماضية

قال شاب شاعر:

مليت من كَدْ النَّكَدْ والكلوفه　　يمضي عليْ سبتين ما شفت انا ريال
واعلى من يقضب ريال يشوفه　　يبرد لهيب بالحشا يشعل اشعال
قمت اتمنى جِمْع عيش نِرُوْفُه　　عن حاجة تُوْزِيني لِخَطْو الانذال
تِكْفَون يا الربع تراي ابحال المروفه　　اجمعوا لي ولو على ربع فنجال
يا الله يا اللي ما تهابه ضيوفه　　تفرج لمن مثلي قعد ما معه مال

قوله: ندوفه، أي نعصده، فالدوف هو: تحريك الدقيق بالماء بالمحراك على النار، يعني يتمنى ولو ملىء كفه دقيقًا يعصده. (انتهى).

❊ ❊ ❊

مصادر التجارة في القديم.. قال:

يـــا الله علـــى كـــور منجـــوبــه   مـــن شـــايبـــات المحـــاقيـــب
أحلـــى مـــن الْهِـــرْش وركـــوبــه   بـــاطـــراف زمـــل المعـــازيـــب

الـمـعـانـي:

المنجوبة: هنا هي الناقة الذلول الطيبة المتعلمة الركوب عليها، والكور هو شدادها، إذ الشداد نوعان، نوع هو الشداد العادي ملء ظهر البعير يركب عليه ويحمل عليه الحمل الثقيل، والنوع الثاني: هو شداد الكور للراكب فقط ولكنه جميل، فركوبها بهذه الصفة يعجب ومريح، لأنها مركوبة الأغنياء غالبًا، بخلاف ركوب الهرش وهو الجمل الكبير السن لثقل طبعه ونكد مشيه؛ فهو مركوب الفقراء الذين يعملون بالأجرة عند المعازيب، في رعي الإبل في البر والسفر ومزاولة حمل الأحمال عليها، فهو يدعو الله أن يغنيه عن هذه الحالة، (والمعازيب جمع معزب، وهم أصحاب المال والمحل)، والزمل هي مجموعة الإبل الجمال (الذكور) لا واحد لها من هذا اللفظ.

ومثل هذه الحال هي: مصدر من مصادر التجارة سابقًا، وذلك أن الناس أكثر ما يتعاطون أسباب التجارة: (هو عمل المضاربة)، وتسميه العامة (البضاعة) وصفته: هو أن يكون عند الرجل مال من

دراهم أو غيره، ولكنه لا يزاول أعمال التجارة أو الأسفار هو بنفسه، فيأتيه رجل آخر ليس بيده مال، فيستبضع منه شيئًا من هذا المال، فالرجل الأول منه عين المال، والثاني عليه العمل، وهو مزاولة أعمال التجارة والسفر إن كان، وبعد انتهاء المدة أو انقضاء السفر والمحاسبة، يرجع رأس المال لصاحبه الأول وما حصل من المكسب (الربح) فهو بينهما أنصاف أو على ما يكون بينهم من الشروط والاتفاق، وهذا المصدر والعمل به فيه بركة في المال، كما في الحديث «ثلاث فيهنَّ البركة (البيع إلى أجل، والمضاربة، وخلط الشعير مع البر للبيت لا للبيع) رواه ابن ماجه، وهذا المصدر وهو استبضاع المال: هو غالب عمل أهل نجد سابقًا، كرجال عُقيل وغيرهم، يستبضع بعضهم المال من التجار، (كما هو اسم لعموم أنواع التجارة، فبعضهم يستورد الأموال الاستهلاكية من الأمصار، كبعض الأطعمة والملابس والأواني وأدوات العطارة، والتجميل وغيرها، وبعضهم يشتري إبلاً ويذهب بها إلى الأمصار، لتسويقها هناك طلبًا للمكاسب، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ . . .﴾[1] الآية.

وحدثني رجل ثقة قال: ذهبت مع معزبـي من رجال عُقيل، وأنا جذع غير كبير، فجعلني مساعدًا لراعي الإبل، ويسمونه (ملحاق)، وهو الذي يحفظ أطراف الإبل على الراعي في البر، فتارة يركب إحدى الإبل ولو أنه هِرْش، وتارة يمشي على رجليه ويركض، فهذا عمل الملحاق دائمًا.

---

(١) سورة المزمل: الآية ٢٠.

الحاصل أنه يقول: هذه حالي مع الراعي حتى وصلنا بلدان فلسطين، والمعزب معنا راكبًا على ناقته الذلول على شداد الكور؛ فوجدوا الأسواق كاسدة، لأنه لم يأت وقت الزرع والحراثة؛ إذ هو موسم بيع الإبل هناك، فكل عُقيل أمروا رعاتهم أن يخرجوا بالإبل يرعونها في البر وموعد إحضارها في السوق للبيع: هو إذا نزل مطر: وحيث كانت البلاد باردة والوقت بارد، وهناك مراعي في أرض منخفضة يقال لها (الغور) جوها دافيء، يقول فخرجنا بالإبل لنرعاها هناك، وجلس المعازيب أصحاب الإبل في البلد (القدس) ينتظرون قيام الأسواق لتصفية بضائعهم (الإبل).

(وهنا مسألة) فبعض الناس من أصحاب الإبل، حيث يستأجرون رجالاً من نجد لرعي الإبل وأعمالها، فإذا وصلوا هناك وباعوا إبلهم انتهى غرضهم من عمالهم الرعاة فأرخص لهم، أي: (أنهى عقد أجرتهم) وتركهم وهم في بلاد الغربة، فتفلتت أيديهم من المصالح، وقد لا يجدون أعمالاً يكتسبون فيها، فيعوزهم حتى قوت أنفسهم فتضيق عليهم الحال وتصكهم بقعا.

الحاصل: يقول هذا الرجل: إن مغربي لما رأى حالة هؤلاء الرجال المنفلتين، ثارت في نفسه الحمية لهم، كبعض الجماعة، فنصب خيمة وأثثها أواني ودلال وطعام ولحاف، وجعلها مأوى لهم، فكل من لم يجد له عملاً فهو يأتي لهذه الخيمة يأكل ويشرب وينام ويذهب يتطلب المصالح، وحيث كان الرجل له شريك في البضاعة (الإبل) قال الشريك أنا لا أرضى أن تجعل خيمة ومصاريفًا للناس على

حسابنا؟ فقال الرجل: أنا لا أرضى أن يضيع رجال نجد في بلاد الغربة ولو خسرت مالي كله، ولكن إقسم نصيبك من البضاعة واتحد، وأنا أتحمل مصروفاتهم كلها، فسكت الشريك فلم يقسم ولم يتحد.

يقول وبعد مدة نزل المطر ونحن نرعى الإبل في الغور، فهذا يوم جلب الإبل وبيعها، وإذا لم تباع في هذه الأيام فلا سوق لها بعد ذلك. يقول: فأقبلنا من البر نحو البلد، وأقبل الرعاة كلهم وعلينا مطر، ولكن الغور دافيء لأنه منخفض، فلما ظهرنا منه على مستوى البلاد، لقينا البرد الشديد مع المطر: فوقف الرعاة وتشاوروا فرجعوا بإبلهم للغور، ولكن صاحبي عزم على المضي للبلاد حسب موعد المعازيب، ولعلمه بموسم بيع الإبل في مثل هذا اليوم، فقلت له: خلنا نرجع مثل غيرنا عن الهلاك، فقال: أما تستطيع تتمسك على ظهر البعير فقط؟ قلت: بلى، فقال: تمسك واسكت: فاحتزم الرجل وشد جهده وساق الإبل ويصيح من خلفها كأنه سَبُعْ، فتارة يركب وتارة يمشي على رجليه ويركض، ثم غشينا الليل ونحن كذلك في الطريق. وكانت الإبل لا تعرف السيارات فإذا لقيتنا سيارة رجعت الإبل ونفرت واضطربت فينزل الرجل على رجليه ويقوم في نحورها ويضربها بالعصا ويصيح بها ويرغمها على السير في الطريق، فوالله لهو أصبر من الحديد في هذا الطريق، وما ذاك إلاّ لما يريده الله من الرزق لصاحب الخيمة عوضًا عما أنفقه لهؤلاء المساكين الغرباء (وما عند الله خير وأبقى)، يقول فمضى الليل بعد أمس ونحن هكذا في الطريق، ثم النهار بعده إلى بعد الظهر على ما بنا من الجوع والبرد والتعب والسهر، فوصلنا أول قرى البلد، وهي قرية أكثر

إنتاجها شجر التين، فضفنا عندهم واشترينا علفًا للإبل وبتنا عندهم أول الليل. ثم قمنا آخر الليل، وسرنا في الطريق إلى البلد القدس، وفعل الرجل في الطريق بالإبل مثل فعله الأول، حتى الصباح، وصلنا السوق في أول امتداده، وإذا معزبنا واقف ينتظرنا، وأصحاب الإبل كذلك ينتظرون إبلهم، ولكن لم يحضر في السوق غير إبلنا، وإذا أهل البلد قد حضروا يريدون يشترون إبلاً، يحرثون عليها الزرع على المطر: فكل رجلين أو ثلاثة مسكوا جملاً وكل واحد يقول: أنا أشتريه فباعوها من سبعين وخمس وسبعين وخمس وستين جنيهًا: بينما هم يتمنون قبل ذلك بيعها بخمسة عشر جنيهًا وعشرين جنيهًا (ومربح) ولكن هذه الزيادة نادرة عجيبة، بسبب جهود هذا الراعي الرجل الشجاع، وهو رجل من الجماعة موجود هنا حتى الآن، ولهذا أعطاه المعزب إكرامية ترضيه غير أجرته.

أما أصحاب الإبل الأخرى فلم يحصل لهم مثل هذا البيع ولا قريب منه، ولهذا لاموا رعاتهم أشد اللوم.

أما البركة المذكورة في هذا الحديث، فمن أسبابها: صلاح النية من الشريكين، بأن يخلص كل واحد لصاحبه كما يخلص لنفسه أو أحسن، أما إذا فسدت النية من أحدهم، فإنها تنزع عنهما البركة والتوفيق، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: (أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما الآخر) رواه أبو داود، وعقد المضاربة (البضاعة) هي أحد أقسام الشراكة والله الموفق. . . (انتهى).

* * *

السواني تصب الماء على الحيش

نشر بعض الكتاب مقالاً حول صب السواني: الماء على الحيش، وذكر قول الشاعر النبطي في مدح محبوبته:

يا بنت مَنْ حَطْ نِجْره لـ لـ مداغيش ويذبح من الحيل في عسر وليان
دام السواني تصب الماء على الحيش حلفت ما انساك يا جال الثمان

فهذا الشعر من الألفاظ والأوضاع القديمة، فالناشئون في حاجة لإيضاحه ووصفه لهم.

فالسواني هي آلة إخراج الماء من البئر، لسقي النخل والزرع وغيره، وكانت على ظهور الإبل والحمير أو البقر أو على ظهورهم، ولا زالت السواني تصب الماء على الحيش وغيره، إلاَّ أنه تغير نوعها، فصارت الآن آلات صناعية، ويطلق عليها اسم السواني عندنا حتى الآن، والحيش هو النخل الجديد الصغار في لغة بلدان جنوبي نجد، أما بلدان وسط نجد فيسمونه الغريس، كما قال شاعرهم:

يا على فجر بالغرايس مسيان لعلهن عقب الظما يطلِعِنّي

وكلام الشاعر هذا الذي ذكره الكاتب له معان جيدة، فقوله:

يا بنت من حط نجره للمداغيش ويذبح من الحيل في عسر وليان

فالمداغيش، والهشاهيش، والنشاما، والصبايا، والزقرت، والقروم، ونحو هذه الألفاظ: هي عند العامة أسماء نوع من الرجال، يُعنىٰ به أهل السخا، والشجاعة، والمروءة، والحمية، وخفة النفس، وغير ذلك من الأحوال المحبوبة. وفي ذاك الوقت لم يكثر استعمال الناس القهوة، فلا توجد المعاميل إلاَّ عند أمير القرية أو كبير الجماعة ونحو ذلك، فمن أراد القهوة أتى إلى مجلس القهوة وقت راتبها، وهو بعد صلاة الظهر وبعد صلاة الفجر، إذ لا يعرفون النوم في الصباح، حتى إن الرجل إذا أتاه ضيف أو زائر، ذهب به يقهويه في مجلس الدلال، حتى ولو في غير وقت الراتب، وكانت النساء لا تشرب القهوة ولا تعرفها ولا تقرب محلها ويستعيبون ذلك، ثم صار بعض الرجال يشتري له معاميل القهوة في بيته حتى كثرت المعاميل فيهم، لذلك صارت النساء تشربها خفية، حتى كثر فيهم كلام الشعراء يهجنون حالة شرب النساء القهوة، كما قالت الفتاة الشريفة: تفتخر بالتزامها الأنوثة والعفاف:

أنا احْمِدَ اللَّهْ ما شربت القهاوى ولا وقفت بْـدَرْب ذَرْبِيـنَ الايْمـان

ثم صارت عندهم عادة جيدة، حيث كان الرجل يدعو الرجال إلى قهوته بصوت النجر حالة دق القهوة فيه، ويسميه بعضهم الهاون، والنجر من الصفر الأصفر الصَّلب، يظهر له طنين وصلصلة يسمع مِنْ بُعْد، إن أراد صاحبه ذلك، لأنه إعلام لمن سمعه فأراد القهوة والكيف فليحضر، وهذا إنما يفعله الرجل الطيب عندهم، وصفة الدق بالنجر للكيف، هو: أن يضع فيه القهوة بعد حمسها وتبريدها قليلاً، والنجر له

عمود يدوي يمسكه بيده يدق به القهوة، ويضع يده الأخرى مفروشة على فوهة النجر حول العمود، تمنع تناثر القهوة وصوتَ النجر حالة ضربها، فإذا هشمها به جعل يَثْلِثْ النجر، فضربتين على تحت على البن، وضربة عرضًا على جانب النجر، ومعها يرفع يده المفروشة قليلاً عن حافة النجر، ليظهر طنينه عاليًا، ثم يعود يدق على القهوة البن، ضربتين ثم يضرب جانب النجر، فيقولون هذا فلان ثَلَثَ النجر فيأتونه فيرحب بهم. قال الشاعر:

ودِقَّـهْ بنجـر يسمعـه كـل مشتـاق   راع الهوى يطرب إيلاطِقْ باخفوق

وعندهم فن آخر للكيف بالقهوة، وهو كيفية صبها، فلو تصبها له ذاك الوقت كصب بعض أهل وقتنا، لعزفت نفسه عنها ولم يأخذ الفنجال من يدك، ويعدونها صبة نسائية.

أما كيفية صبهم إياها غالبًا: يقوم أحدهم واقفًا، وإن كان فيهم جذع فهو يقوم، فيأخذ الدلة بيده اليسرى على البيز، ويمسكها بأسفل عروتها، ويجعل أَصْبُعَهُ الإبهام وأَشْجَعَه داخل العروة، فيرفعها ماسكًا الفنجال باليمنى أمامها، فيصب فيه ذَلْقًا بخفةٍ، نازلاً بالفنجال إلى تحت حال الصب، ثم يرفع الفنجال بخفة مع انتهاء الصب، فيضرب بحافته طرف مصب الدلة، فيسمع له صقع، كما في المثل: (صقع فناجيل بلا قهوة ـ في الأمر الذي ليس له نتيجة)، يدور على الجالسين، ويصب هكذا جالسًا إذا كان الرجال قليلاً، ولا يصب إلاَّ هكذا حتى لنفسه. ويجعلون مصب الدلة ممتدًا أَشَمًّا، لينطلق منه الصب على المطلوب، ولا يكثر الصَّبة بالفنجال، بل مقدار ربعه أو أقل، فإن زادت عن ذلك

نثر الزيادة بالأرض، وأكثرهم لا يكثر شربها دفعة واحدة، ويستعيبون ذلك، ولا يشربها باردة، بل قريبًا من الغليان، فيرشفها رشفًا يتبردها بين شفتيه وأسنانه، قال الشاعر:

فنجالها شفه من بين الاشافي   ياكِنْ يقلع من شِفا شاربه شِيْف

وهنا فن آخر وهو فعل صَبّاب القهوة، فبعضهم احذق من بعض، فإذا قام يصب الصبة المذكورة آنفًا وهو قائم، فإنه يبعد عن الجالس قليلاً، احترامًا للجالس، وحتى لا يوسخ ثيابه إن نثر من الفنجال شيء أو انكسر، ويحني ظهره وذراعه قليلاً بعد الصب، ويقدم الفنجال للجالس حذاء يده، فيأخذه بسهولة وبدون تكلف تناول، وكانت عادتهم يرغبون (بنت الانسان الطيب)، ويمدحونها بأفعال أبيها، في السخاء والشجاعة، وبأفعال أمها، من الحياء والمصونة والأمانة والعفاف وانسجامها مع أحوال زوجها وغير ذلك، كما في المثل (إذا أردت أن تضمها فاسئل عن أمها). وهذا الشاعر يمدح محبوبته بأفعال أبيها في السخاء، وأنه يرفع صوت النجر لذلك، وأنه يذبح للزوار والضيوف من الحيل، وهي سمان الغنم، والحيل جمع حايل (ليس فيها ولد) حتى في حالة العسر وهو الفقر، والليان هو اليسر والغنى، ويمدحها بالتجمل، وهو جلو الأسنان للبياض والزينة، وهن (الثمان) أربعة فوق وأربعة تحت، هن الثنايا والرباعيات، كما قال الشاعر الآخر:

والثنا يا قِحْوِيَان في قراره   نافل نَبْتُه على كل النبات

أي أسنانها، تشبه وَحْداة زهر القحويان، في بياضه وجماله.

وأما قول الكاتب: إن الشاعر أقسم بأغلظ الأَيْمان أنه لا ينساها، فهذا غير مطابق، فإن أغلظ الأَيْمان هو الحلف بالله، والحلف أنواع: منه ما هو صريح، ومنه ما هو كنيه، ومنه ما هو اسم يمين، ومنه ما هو بمعنى اليمين. ويمين الشاعر هذه إنما هو اسم يمين أو بمعنى اليمين، وأما ذكره أياها بلفظ المذكر وهي أنثى، فهذا سائغ كثير في ألفاظ العرب وأشعارهم، ويعرف المعنى بدليل قرينة الحال، حتى وجد هذا اللفظ في القرآن ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ يعني زوجة. (انتهى).

* * *

وفاء زوجة ومروءة جار

قيل: كانت عائلة في البلد، بقي منهم شاب يأوي إلى البيت وحده، فرآه أحد جيرانه فرحمه، وقال له: ألا تزوجت يا فلان؟ فاعتذر بأن الأمور لا تساعده، فقال له الرجل: هذه فلوس سلف قرضة حسنة، تزوج منها وأصلح بيتك، حتى يرزقك الله يا ولدي. فأخذها الشاب وتزوج، وبعد نحو أسبوع من عرسه، وكانت عادته يسافر مع بعض رجال عُقيل لطلب المعايش، فنهضوا ومشوا على عادتهم، فضاق صدره، لأنه يريد الخروج معهم، ويريد المقام عند عروسته، وإذا لم يخرج معهم فليس هنا أسباب للمعايش تكفيه، فقالت له عروسته: سافر معهم وأنا أقعد في بيتك حتى ترجع إن شاء الله تعالى: فالرجل غلبت عليه الرجولة في طلب المعالي، فترك عرسه وذهب مع المسافرين رجاء الرزق، ولكن الله لم يعجل له رزقًا، فأقام في الغربية إحدى عشرة سنة، كل يوم يقول لعل الله يرزقنا فنخرج.

وأما زوجته فبقيت في بيته، ونشأت بحمل، وولدت له ابنًا، وسمته باسم أبيه، ووجهته للدراسة وما زال أهلها يعذلون بها على فسخها منه بسبب طول غيبته يريدون تزويجها غيره، فأبت وقالت ما دام زوجي حي ويأتي خبره فلا أريد غيره، ولأنه يرسل لها فلوسًا بعض

مصرف. ثم قدم زوجها بعد هذه المدة الطويلة وقرع الباب، وقال: (هُوْبِذَا أَحَد) عادة الرجال ذاك الوقت، فعرفت صوته وقالت لولدها قم افتح لأبوك، فدخل الرجل مندهشًا من الفرح ببقائها في بيته، فلما أصبح قال لابنه: هل تعرف فلانًا؟ قال: نعم، فأعطاه الفلوس وقال: دوك اعطه هذه الفلوس وقل يسلم عليك أبوي ويقول الله يجزاه خيرًا ويكثر خيره ويوسع له في الدنيا والآخرة، فلما أعطاه الفلوس قال الرجل: (الحمد لله الذي أخرج هذا النسل بسببي). شعرًا:

لولا المشقة ساد الناس كلهمو ... الجود يُفقر والإقدام قتال

(انتهى).

قيل:

لا تأخذ الْهَزله من شان زينه ... يطغيها وتشوف منها حياة النكايد
ولا تأخذ الْهَزْله من شان ماله ... ولا تقتبس من نارهم بالوقايد
لا تأخذ إلا بنت قوم حميدة ... لعل الولد منها يجيب الفوايد
يجازي راعي الحساني بمثله ... وراع النكد يسقيه مُرَّ النكايد

وقيل:

العلم صيد والكتابة قيده ... قيد صيودك بالحبال الواثقة

وفي الحديث: «الدنيا ملعونة. ملعون ما فيها إلاَّ ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم»(١). وقيل:

وأحزم الناس من لم يرتكب عملاً ... حتى يفكر ما تجنو عواقبه

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة.

وقيل:

وأحزم الناس من لو مات من ظمأ لا يقرب الورد حتى يعلم الصَّدْرا
لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصَّبْرا

وقال:

لأستسهلنَّ الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

يعني حتى أدرك المنى، أي يصبر على صعاب الأمور حتى يدرك ما أراد وما يؤمله، فإنه لا يدركه بدون ذلك.

وقيل:

وما من كاتب إلاَّ سيفنى ويبقي الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه:

(انتهى).

* * *

المراوح في القديم

كان الناس لا يحتاجون المراوح الهوائية، وتكييفه إلا قليلاً، لأن البيوت كلها من الطين، وطبيعة الطين معتدلة فهو عازل، لا يحمل الحرارة ولا البرودة، فتجد داخلي البيت في الصيف بارد، وفي الشتاء دافيء، على طبيعة باطن الأرض، فهذا ارتياحهم في المساكن، وشيء آخر هو: اعتياد أجسام الناس للحر والبرد، لممارستهم الأعمال البارزة، وممارسة التعب الذي هو يشد الجسم ويقويه، فيتحمل أكثر، قد ارتاضت نفوسهم على ذلك فلا ضجر ولا تألم.

كان رجل هنا صاحب تجارة فيجلس في دكانه للتجارة، وعنده عامل يزاول أعمال البضائع تحميلاً وتنزيلاً، فأعجب المعزبَ قوتُه ونشاطُه، فقال الرجل لجليسه، انظر قوة هذا العامل وضعف قوتنا؟ والله إني أود أن يعطيني قوته وعافيته وأعطيه تجارتي.

(هنا حكاية) سئل الطبيب الأخصائي (فلان).... ما هو هذا المرض الحادث (مرض السكر)؟ فقال: هذا مرض الأغنياء. (يعني أنه قد تغيرت أحوال الأجسام عن الحالات القديمة).

الحاصل أنهم يتخذون نوعين من المراوح، أحدها المروحة

(المهفة) اليدوية معروفة موجودة حتى الآن يعملونها من سعف النخل وجريده.

النوع الثاني: مروحة سقفية شبه مطرحة (فراش) تعلق بجنبها في سقف الغرفة عرضًا، ويربط في أحد جنبيها خيط (حبل) ويمد إلى طرف الغرفة أو خارجه فوق بكرة (محالة) صغيرة تدور به، وتجلس الخادمة أو الخادم أو غيرهما تحت البكرة، وتمسك طرف الحبل، تجذبه وترسله، ثم تجذبه وترسله، فتقبل المطرحة وتدبر فتحرك الهوى في الغرفة وتكييفه حسب الطلب، ولكن استعمالهم هذا في حالات مخصصة، مثل الطلاب في المدرسة يحركه أحدهم، ومثل الترويح على العروس وقت القائلة، وأما الليل فكان الناس ينامون في السطوح لا يحتاجون ترويح، ومثل الترويح على الملوك والأمراء وأصحاب الشأن، وهذه المهفة السقفية قد ذكرها الحريري في مقاماته، نحو الثانية والأربعين. (انتهى).

* * *

فائدة: أنواع العقل

العقل نوعان: (غريزي، ومكتسب) فنوع مسموع، ونوع مطبوع، فالمطبوع: هو الغريزة التي يخلقها الله في نفس الإنسان، متصل بالقلب والدماغ، وقيل: العقل بالقلب والتفكير بالدماغ، ذكره ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة» وذكر غيرُه: كما في كتاب «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» لابن حبان البستي، قول الشاعر:

رأيـت العقـل نـوعـيـن مسمـوع ومطبـوع
ولا ينفـع مسمـوع إذا لـم يـك مطبـوع
كمـا لا ينفـع ضـوء الشمـس ونـور العيـن ممنـوع

أما النوع الثاني: وهو المسموع المكتسب، فهو التعلم والتجارب، فينمي العقل الغريزي ويقويه، (وضربوا لذلك مثلاً) فالعقل الغريزي مثل الأرض الزراعية، والعقل المكتسب مثل البذور، فإذا كانت الأرض طيبة وألقي فيها بذر طيب أنتجت زرعًا طيبًا، وإذا كانت الأرض طيبة وألقي فيها بذر غير طيب لم تنتج زرعًا طيبًا، أو كانت الأرض غير طيبة ولو ألقي فيها بذر طيب فإنها لا تنتج زرعًا طيبًا، وهكذا العقل الغريزي، إذا كان عقلاً صحيحًا سليمًا طيبًا، وألقي إليه علم طيب فإنه ينمو ويزكو، ويتفوق على غيره في العلم النافع والعمل

الصالح، كالبذور الطيبة في الأرض الطيبة، أما إذا كان العقل صحيحًا لكنه غير سليم، أو غير طيب، أو كان صحيحًا سليمًا وألقي إليه علم غير طيب، فإنه لا ينتج خيرًا نافعًا ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

(وقال الشيخ سليمان ابن سحمان في كتابه: إرشاد الطالب):

العلم للرجل اللبيب زيادة ونقيصة للأحمق الطائش

كالصبح يضيء أبصار الورى نورًا ويعشى أعين الخفائش

* * *

(١) سورة الحج: الآية ٤٦.

المخلب

المخلب: هو رجل الطير الفارس: إذ الطير نوعان: فارس وغير فارس، فالفارس هو: الصقر، الشاهين، والعقاب، والبازي وكل طير يفترس الصيد، ويقال لها سباع الطيور، فالمخلب: هي رجله: وجمعها (مخالب): لها أظافر حادة قوية معكوفة، واحدها (ظِفِر)، فإذا رأى الصيدة طار يلحقها، فإن أدركها وعلا عليها ظَفَرَ بها، فتناولها وخبطها بإحدى رجليه: أي ضربها وهو يطير بمخلبه، شاحبًا أظفاره، وَهُنَّ أظافر رجله (خبطة قوية، وإذا هو قد شدخ ظهرها نصفين أو نحو ذلك، فسقطت بالأرض، سواء كانت تطير كالحبارى أو تركض على الأرض كالأرنب. قال شاعر حين اضطهد:

لا بـد الأيـام مفتـرجـه — والحـر يشبـع بمخـلابـه

والحر هنا هو الصقر، يعني: والرَّجُل الشجاع مثله.

وكذلك براثن السبُع، هي أظافر يديه ورجليه، كأظافر السنور، ولكن السبع يفترس بأنيابه وهي أسنان طوال متقابلة في جوانب فمه كما تراها في فم السنور، فإذا أراد السبع أو الطير يأكل من الفريسة وضع يده عليها وَشَدَّ أظافره بها ومسك طرف اللحم بأنيابه أو منقاره ومشعه: أي قطعه وأكله، (فالظَّفَر): (معناه مأخوذ من هذا الفعل)، كما يقال: ظَفَرَ

فلان بعدوه، إذا تغلب عليه، ويقال: ظفر فلان بأمره إذا تحصل على مراده.

أما اسم السبع فهو يشمل كل ذي ناب من الحيوان يفترس به حتى الثلعب والسنور منها، وكذلك الطير المفترس له منقار معكوف يفترس به مع مخالبه فيضع رجله وأظافره على الفريسة ويأكل منها بمنقاره.

والمفترس لا يحل أكله سواء من الطير أو السباع، وهذا معنى الحديث (حرم رسول الله ﷺ كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير)، ومنه أخذوا اسم المخلب الذي هو آلة الحصاد، ويقال له (المحش) والمنجل، والحش هو: القطع والحشيش: هو العلف المحشوش (المقطوع) بالمحش.

أما الحشيش: وهو نوع المخدر فلم يكن يوجد ولا يعرف في نجد: إنما عرف بالوقت الأخير بسبب مخالطة الخوجات. (انتهى).

* * *

موت الأخيار

تزوج رجل بامرأة فأحبته هي واتفقت طبيعتها معه، ولكن ما لبث أن مات فحزنت عليه، ثم تزوجها رجل غيره ولكنها لم تحبه ولم تتفق طبيعتها معه، وحصل بينهما نزاع وشقاق، وأرادت الافتداء منه ومفارقته فأبى عليها ذلك وألزمها بنفسه، فتذكرت زوجها الأول وسخاء نفسه وسهولة طبعه، وشكاسه الثاني، فجعلت تتمثل بقصيدة تصف بها واقعها، منها قولها:

لو هو حبيبْ كان ميت من العام　　　ميـر البغيـض بقـدرة الله يُنَمَّـى

وهذا شيء مطرد في سائر الخلق، فتجد الخيِّر يحزن عليه ويفقد إذا مات، ويستطيلون حياة الشكس ويتمنون موته، فيقولون أَهَبْ حتى الموت ما أرحنا منه. (انتهى).

* * *

كـرام النـفـوس

كانت عائلة في البلد، قد بقي منهم شاب يأوي إلى البيت وحده، فقال له شايب من جيرانه ألا تتزوج يا فلان؟ فقال الشاب: أنا ما أعرف أخطب وأستحي، فقال الشايب: أنا أخطب لك يا ولدي. فعمد الشيخ إلى رجل من أعيان الجماعة غني وله عائلة، فخطب منه ابنته للشاب، فأجاب الرجل، فرجع الشيخ إلى الشاب وأخبره، وطلب منه أن يعطيه الصداق (الجهاز) ليوصله إلى أبيها، ولكن الشاب دهش وتحير فكره، لأنه فقير جدًّا وهو يعرف هذه العائلة أنهم أغنياء، ليس به لِيَاقَةٌ لمجارات أحوالهم، ولا أحب أن يتنازل عن الموضوع فيوقع الشيخ جاره بحرج، مع ذاك الرجل الرفيع القدر، وفكر في رأي جيد لحل الموضوع، فقلل الصداق لأجل يزعلون ويرجعونه وينتقض الأمر بسهولة، فقال الشيخ: هذا الصداق قليل لا يصلح لمثل هذه العائلة الكبيرة؟ هَاذَوْلا شُيُوخ يبغون على قدرهم؟ فقال الشاب: هذا الميسور، إن كان ما أرضاهم يرجعونه، فحمله الشيخ وناوله أباها، فأخذه الرجل ولم ينظر قلته وكثرته، وجهزها من عنده، والشاب يود أنهم أرجعوه، ولكن الأمر قد سبق به القدر، فتزوجها وأتى بها إلى بيته، وإذا بيته خال من الطعام وغيره، فخجل منها لأنها أتت من بيت

غنىٰ، فأخبرها أنه أراد التخلص من المسألة ولكن غلب القدر، فقالت: الحمد لله ما حصل إلاَّ خير، لا يكربك الأمر، فالمال مثل الوبر (هو صوف الإبل) يحت وينبت، ويبـي يسهل الله كل أمر، فوسعت صدره وذهب عنه بعض ما يجد من الخجل والضيق، وأجهد نفسه يتستر عدة أيام ولكن ضاقت عليه الحال جدًّا، فقالت البنت: خلنا نروح للبر نحتطب ونشيله على رؤسنا: أنت تحمله بالبر وأنا أحمله للسوق أبيعه، حيث أني امرأة لا أعرف، فذهبوا يحتطبون ويبيعون مدة فعاشوا وشبعوا، ولم يعلم بهم أحد. ثم جاء وقت الربيع، فجعلوا يعشبون عشب (علف مواشي) هو يحمله من البر حتى البلد، وهي تحمله للسوق تبيعه، لأن العشب (العلف) أكثر قيمة من الحطب.

وكان للبنت إخوة يشتغلون بالإبل بالبيع والشراء، جاء أخوها يومًا يشتري علفًا لإبله، فعرفها وعرفته، وهي جالسة مع النساء متسترة، وكلمها ليشتري علفها ليتقن معرفتها، فسكتت رجاء ألا يعرفها، ولكنه تأكد من معرفتها، فغضب غضبًا شديدًا وأغضب إخوانه، وذهب إلى أبيه وقال: هذه فلانة تبيع علفًا في السوق مع النساء، فإذا كان زوجها فقير فلا هو كفء لها، حِنَّا نحسبه غني، والآن لازم يطلقها، وكذا وكذا، فأسكته أبوه وقال: لا يتكلم أحد، واذهبوا إليهما الصباح واعزموهما (ادعوهم) للعشاء وسيكون خيرًا إن شاء الله.

فالبنت وزوجها عرفوا المسألة، فأقاموا صباحهم لم يذهبوا على عادتهم، ينتظرون ماذا سيكون؟ فاستدعوهم للعشاء، فحضروا وتعشوا معهم، ولم يبدر كلام من أحد. فالرجل عنده أولاده الثلاثة وزوج

البنت، ثم استدعى الأم، فحضرت معهم فقال لهم الأب، كيف ترون لو أننا أحضرنا البنت فلانة هنا وخلعنا ثيابها جبريًّا فمن تستتر به؟ فقالت الأم: إنمـا تستتـر بـزوجهـا، فقـال الأب لأولاده انظـروا، واعـرفـوا أن الرجل قد ستر لكم عورة، وله عليكم حق المساعدة، وأنتم ما تعرفون عواقب الأمور أما سمعتم المثل: (زوجوهن وأَعِيْنُوا عليهن)، فالآن: قوموا احملوا لهم طعامًا من هذا البيت، وأعطوه دراهمًا قرضة، يشتري ويبيع مع الناس بدون منة، حتى يغنيه الله إن شاء كما أغناكم، أو اتركوه يتطلب أسباب معيشته حيث تاحت له وتيسرت.

شعرًا ــ قيل:

تلـك المنـاقـب لا قُعْبـانِ مـن لبـنٍ   شيبـا بمـاء فعـادا بعـد أبـوالا

فيستفاد من هذا: أن الأشراف رجالاً ونساءً، وإن كانوا أغنياءً، أكثر تحملاً ومروءة من صِغارِ النفوس، وإن كانوا فقراء. (انتهى).

* * *

راضة النفس

راضة النفس شيء مهم، وعليه المعول في تنشئت الأخلاق، حيث كان النعيم في راحة البال. ولا بد من راضتها في حالة الطفولة حتى البلوغ وبعده، وقد كان الناس ترتاض نفوسهم جبريًّا: ففي حالة الصِّغر يتركونه يبكي لانشغالهم عنه بالأعمال، فهذا البكى للطفل فيه صحته جِسْمِيًّا ونفسيًّا، من حين ولادته حتى يكبر، كما ذكره ابن القيم في كتابيه (الطب النبوي ـ وتحفة الودود) وغيرها: لأن بكاء الصبي فيه راضة لنفسه وصحة لجسمه، لما ينزف من رأسه حالة البكاء من الفضولات، من الدموع والخياشيم والحلق، مما إذا بقيت تحقنت في الرأس، فقد تسبب أمراضًا.

أما ترييض النفس بالبكاء صبيًّا فإنه ينشأ أيضًا على التصبر والتحمل. والصغير أقل إحساسًا من الكبير، فإذا ارتاضت نفسه صغيرًا استراح كبيرًا، فلا تكترث النفس بما يخالفها ولا تستغربه، وتستمر على تحمل ما يلاقيها في الحياة في سائر الأحوال، من مصاعب ومتاعب ومخالفات تصادمها، فلا ضجر ولا تألم.

أما أهل هذا الوقت، فإن غالبهم لم ترتاض نفوسهم حالة الطفولة، لأنهم لا يتركونه يبكي، وقد يوضع بفمه رضاعة وله روجحانة

ودراجة، فلا تمارس نفسه ما يهدئها غالبًا، فإذا حصل عليها بعد الطفولة ما يخالفها، ثارت به الحموضة ففقد المروءة وخنقته الضيقة، فتجده لا يستطيع يَبْتَلِـع ريقه من الضيقة لأدنى مخالفة، فيفقد المروءة والتحمل غالبًا، وهذا تعذيب لها طول حياتها، وربما انفعلت النفس لذلك فأثر في صحة القلب بارتفاع الضغط ونحوه.

دخلتُ المسجد مرة للصلاة، وإذا أحدهم جالسًا محل الصف يقرأ القرآن، قد ترك فرجة بينه وبين الصف، فدخلت فيها وصففت، فنظر إليَّ وقال: الله يضيق عليك، فأبعد وترك فرجة، فجاء رجل ودخل فيها وصف، فنظر إليه وأبعد وترك فرجة، فجاء آخر فدخل فيها وصف، فنظر إليه وتغير مزاجه واصفر وجهه ويبس لسانه فوضع المصحف وقام وخرج من المسجد، حيث ثارت به الحموضة وخنقته الضيقة. وتجد مثل هذا كثيرا في سائر الأحوال. وإنك الآن لتبصر انتشار الوقاحة والبلادة في الشوارع، بعدم احترام الآخرين، وقد جاء في الحديث: من آذىٰ المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم) رواه الطبراني وحسنه المنذري.

فلو عرفت الذين قد راضت نفوسهم في الصغر، واستمروا على راضتها بعد ذلك، لوجدتهم في راحة من هذه الحموضة، وسعة من هذه الضيقة، وأصل ترييض النفس في القديم أيضًا: كان معروفًا أن الولد إذا شب وترعرع، لا بد أن يعمل عند الناس بالأجرة، لطلب المعيشة، مما يريض نفسه على التحمل، والصبر على التعب والجوع والظمأ والسُّرى بالليل للأعمال خارج البلد، ومعرفة الطرق والنجوم

والبلـدان وأحـوال النـاس والتجسر علـى تجشـم المخـاوف والأخطـار ومطالعة الحر والبرد وغير ذلك كما قيل:

يـامـا علـى صَكّـات بقعـا تلـزيـت مَـرٍّ علـى بـردٍ ومَـرٍّ سمـوم

حتى أن بعض الأغنياء، يوجه ولده يعمل عند الناس بالأجرة، وإن كان من غير حاجة، لكن لترتاض نفسه وتتصلب جهوده، ليتحمل ما يلاقيه في صعوبات الحياة. كما في المثل (ما يُطلِعْ الرجال إلاّ الرجال) أي يربونه على أحوال الرجولة. وإذا لم ترتاض نفسه في الصغر فربما نشأ لا يتحمل المشاق فيسمونه (خِرْخُوتِي) يعني غير متحمل، (حتى ربما انفعلت نفسه عند المخاوف فظفر به عدوه)، فتعويدها سعة البال عندما تحضرها الحموضة: له أثره الطيب في الحياة، (فالنعيم في راحة البال). بل حسن الخلق ذهب بخيري الدنيا والآخرة. كما يسمون ثقيل النفس: (لِحْلُوحِي).

قال شاعر، في الثُّقلاء:

رَصّاصَةَ الْمقْعَدْ حَمِير المشاعِيب أَللِّي نهـار الكـون يفـزع بمصـلاب

قوله: رصّاصة المقعد، يعني: البليد، ثقيل النفس، يرص نفسه بالمجلس فلا يحترم من هو أكبر منه، فيقوم للداخل ليجلسه في مقعده احترامًا له، فهو بليد مستثقل.

لكـن: خفيـف النفـس، خفيـف الـدم، الهشهـوشـي، القـرم، النشمي، هو الذي يحترم الغير، حتى من هو أقل منه، فهو شجاع محبوب. (انتهى).

* * *

من الخطابة في الجاهلية

(من خطبة: قِس بن ساعدة الإيادِي، بسوق عُكاظ)

أيها الناس اسمعوا وَعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، آيات محكمات، ومطر ونبات، ونجوم تَزْهُرْ، وبحار تَزْخُرْ، وليل داج، وسماء ذات أبراج، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟! أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا، يا معشر إياد، أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد، وأين الفراعنة الشداد؟

في الذاهبين الأولي	ن من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	تمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلـ	ـيَّ ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا	لة حيث صار القوم صائر

* * *

(ومن خطبة: أكثم ابن صيفي، بين يدي كسرى، حيث أعجب بها كسرى)، قال:

إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعًا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء، آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء، شر البلاد بلاد لا أمير لها، شر الملوك من خافه البريء، المرء يعجز لا محالـه، أفضل الأولاد البررة، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل، حسبك من الشر سماعه، الصمت حكم وقليل فاعله، البلاغة الإيجاز، من شدد نفَّر، ومن تراخى تألَّف.

* * *

ومن خطبة زياد ابن أبيه وكان أميرًا في العراق زمن معاوية وبعده، قال:

(إياكم والدَّلْجَ بعد العِشاءِ، فإني لا أُوْتىٰ بمدلج، إلا قطعت عنقه). (انتهى من كتاب نصوص الأدب).

* * *

الحَجِر عادة سيئة

كانت في نجد عادة سيئة عند البادية، وهي التَّحْجِير على بنت العم، فلا تتزوج غيره، الأقرب فالأقرب، ولو كانت هي لا تريده، ومن أراد أن يتزوجها بدون سماح الحاجر: هدده وإياها بالقتل والإعدام، وهذه عادة تخالف أمر الشرع، وتفسد المجتمع، فأما الشرع فإن من شروط صحة النكاح (رِضا الزوجين وخلوهما من الموانع)، والحاجر يغصبها نفسها، أو تبقى عدة سنين بدون زوج، لا تستطيع التصرف بنفسها، ولا أهلُها، وهو أمر جاهلي، وهذا شيء كالمتفق عليه عند البادية، وأما الحاضرة فلا يوجد الحجر عندهم، فلا يتزوجون المرأة إلاَّ برضاها، بل التزوج بغير القريبة أرغب عندهم وأفضل في أمر الشرع.

وينبغي لولاة الأمور القضاء على هذه العادة السيئة، وردع من يتظاهر بها أو يسرها ردعًا حاسمًا، ويجب على شيخ القبيلة أن يمنع التابعين له عن هذه العادة، وإلا تحمل كِفْلاً من وزرها، لأنه يستطيع منعهم وهو أقدر من غيره على تقويم أحوالهم، فما حجته أمام الله إذا جاءت هذه المرأة المحجورة تخاصمه في حقها المغصوب ظلمًا، ثم هو إذا قوم أحوالهم ومنعهم من الحجر فله أجر في ذلك، لأن العدل قامت به السماوات والأرض، وقد جاء في الحديث قال: «من سن في

الإسلام سنة حسنة فله أجرها ومثل أجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ومثل أوزار من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا» رواه مسلم.

وسوف نذكر هنا قصة في الحجر، تطلعك على صحة ما ذكرنا وعظم ضرر هذه العادة السيئة في المجتمع. قيل:

هناك قبيلة كان أميرهم قد مات أخوه، وخلف بنتًا اسمها موضى، وحزنت على أبيها، فقال لها عمها الأمير: إني سأخلف عليك أباكِ، بأن أعفيك من التَّحْجِير وأطلق سراحكِ بأن تتزوجين من شئتي من الرجال، ففرحت هي بذلك: وكان بقربهم رجل حكيمًا يستخدم في الأمر المهم، ذكيًّا يستأمن على الأسرار، فأخبرته بأن عمها أعتقها من رق الحجر، قالت: وأنت رجل تعرف الغرض كما قيل (أرْكِبْ حُرًّا ولا تُوصِهِ)، فَمَنْ تراه يصلح لي؟ فقال: إن الذي أراه يصلح لك هو خلف، (رجل شجاع وسخي لين العريكة) يعني (حسن الخلق) رَحْبُ الْمُحَيّا، فقالت: ودي أشوفه؟ فقال: لا بأس، إذا كان الصباح مع طلوع الشمس خذي حبلكِ والفوس واذهبي أحطبي هناك حول المرقب، فأنا أطلع فوقه وأصيح للفزع، فإذا ركبوا الخيل يكون خلف في أولها، وعليه لآمة خضرا فانظريه، فلما أصبح وإذا هي تحتطب مع النساء حول المرقب، فجعل يصيح وَيُشِيحُ بثوبه عادة الفَزَع، فلما سمعوه ركبوا الخيل وأسرعوا إليه يقولون: ثَبِّتْ! ثَبِّتْ! ما الخبر؟! ما الخبر؟! فقال عَوافِي عوافي إني غلطت، رأيت إبلاً تَسْتَنَّ يعني (تلعب) يقول: وظننتها خيل عدو.

فلعبت الخيل ورجعت. فالبنت موضى، رأت خلف مع الخيل

وصلح لها، فقالت للرجل: اذهب إليه وَأَوْعِزْ لَهُ بالمسألة فأنت كما قيل:

إذا كنتَ في حاجة مرسلا فأرسل حكيمًا ولا توصه

فذهب الرجل إلى خلف، وأسر له بالمسألة، ففرح خلف، وتقدم إلى عمها الأمير، وخطبها منه، فأخبرها عمها، قال: هذا خلف يخطبك فماذا تقولين؟ فقالت: كفء كريم مقبول، فزوجه إياها، وذهب بها واستمروا في أحسن حال. وبعد مدة سنة أو سنتين قال لها خلف: ألا تريدين تزورين أعمامك؟ قالت بلى: فأزارها أهلها، وكان عادتهم أنه هو يُزِيرُها، ويتركها عندهم عدة أيام، ثم أهلها يُرجعونها إليه، وهذا تبادلاً للكرامة، ولكن هم أبقوها عندهم مدة أكثر من العادة، (وذلك لأن عمها الأمير، قد فسدت نيته، وتغير منهجه، وأراد أن يأخذها من زوجها خلف، ويزوجها أحد أولاده) لأن خلف ليس من أولاد عمها، فهي ضاق صدرها، وقالت لعمها: يا عم أنا أريد أروح لزوجي خلف؟ فقال عمها: ما أنتي رائحة ولكن اختاري لك زوجًا من أولاد عَمِّكِ، فقالت: أنا لا أريد غير زوجي، فقال: لا، فلما طال إرجاءه إياها تمثلت بقصيدة وأرسلتها لزوجها خلف، وهو يقال له (أبو عِلِّيْق) قالت:

يا عم يا وطبان شفى إخلافي شفى ببو عِلِّيْق وَدُونَنْ إيَّاه
إعيالكم مثل القذا في مشافي وإن شفتهم يا كن عيني مدواه
خلف إيْلاَ دَرَ الْخَلَفْ بِي يْشَافِ وأنا إيْلا دِرْت الْخَلَفْ بيه ما القاه
عجز الجمل ينقل جهاز السناف ما هوَ ورث إجْدُوْد (حوشه بيمناه)
يا عم ما احلى جرته للحاف يا عم ما احلى لذة النوم واياه

فلما بلغت زوجها هذه القصيدة: رد لها جوابًا فقال:

يـا راكـب مِـنْ عنـدنـا فـوق عـافـى حِـرٍّ هَمِيـم يُعْجِـبْ القلـب ممشـاه
سلم على لابس جديد الدِّفَافِ اللّـي نَهَـبْ قَلْبِـي بَـايِـنْ حكـايـاه
ايـلا عَطـا صَـدٍّ عطينـاه قـافـي وايـلا بغـانـا عِقـبْ ذا مـا بغينـاه
وايلا صار هو مثلي صديق مصافى حنًّا نجيه ونرخص العمر لارضاه

أرسلها لها: ثم جَذَّب أعمدة البيت الشعر، أي (أسقطه) عادتهم للتفزيع، فاجتمع إليه الجماعة حيث كان متبوعًا وله أصحاب: ماذا؟ فقال لهم: نريد نروح نأتي بموضي (عَيّوا عليها مَيّتِين النار) فركبوا الخيل بالسلاح وقصدوا عربها، فلما طلعوا عليهم قام بعضهم، ليركبوا الخيل ويستعدوا للقتال، فقال عقلاؤهم، هذا خلف يريد زوجته موضى، أعطوه إياها وكفوا القتال عن بعضكم، فأركبوها جملاً وَلاقَوْهُ بها، فرجع بها قرير العين معززًا، وهي عادت لها حياتها السعيدة.

قوله (فوق عافى): هو الجمل السمين الشجيع، يركبه المرسول، والبريد المسرع. (انتهى).

* * *

قصة المهادى: محمد ـ الأولى

كان محمد المهادي من قبيلة عنزه، في البادية، وكان من نوادر الرجال، وكانت له أخبار ونوادر، فنذكر له هنا قصتين إنشاء الله.

الأولى: في أول عمره: كان المهادي يسقي إبله على البئر البرية، لأن راعي الإبل لا بد أن يحمل معه على البعير، عُدَّة الماء، الذي هي: الرشا والدلو والحوض، ليسقي إبله حيث تاحت له الفرصة، وفي تلك الساعة وهو يسقي إبِلَه، إذ وردت على الماء إبل أخرى، ولكن الراعي معها بنت. ومن عادة العرب أن الرجال يسقون إبل المرأة إذا أتت وهم على الماء، لأن المرأة لا يمكنها مزاولة متح الدلو من البئر، وليس من المروة وشيمة العرب أن يذهبوا ويتركوا إبلها أو غنمها تنادى وترزح على الماء.

الحاصل أن المهادي، أعجبه هيكل هذه البنت، وظن جمالها، وأراد أن يعرف أباها ليخطبها منه؟ فقال لها: أنا لا أريد أسقي إبلك يا بنت إلاّ أن تخبريني من هو أبوك؟ فلم تكلمه، ولكنها كشفت شيأً من أسنانها، وضربت ثنيتها برأس إصبعها، ثم ضربت بيدها على صدرها على أحد نهودها، ثم أخرجت طرف قرنها وهي الجديلة، فأومأت به. فحينئذٍ نشط الرجل، واحتزم وشد حيله وجعل يسقي لها، حتى رويت

إبلها، وصدرت للمرعى وذهبت. فجعل الرجل بعد ذلك يحلل رموز البنت وإشاراتها فلم يعرف ذلك، وزاد شغفه بها بعد ذهابها، ويسهر الليل فيوقد النار ويعمل القهوة، ويغني على الربابة، بشعر معناه يقول: يا عشيرى ذبحتني وذهبت وتركتني؟، فشعرت بحاله امرأة عجوز، فأتت إليه ليلاً وقالت: لماذا أنت ساهر والناس نيام؟، فقال: اذهبي لنومك ودعيني وشأني، قالت أخبرني بحالك ويمكن يكون عندي لك بعض الحل؟ فأخبرها بأمره وعجزه عن تحليل إشارات البنت؟ فقالت العجوز أنا أخبرك بمعناها: أما إشارتها إلى ثنيتها، فهي تعني، أنها بنت ابن ثنيان، وأما إشارتها إلى نهدها، تعني أن أباها من قوم ابن نَهَدْ، (هو شيخ قبيلة معروفة)، قالت: وإشارتها بذوآبة جديلتها تعني: أن أباها ينصب بيته بالمحل المرتفع يسمونها الذوابة، في المنازل البرية، (وهي حالة معروفة عندهم للكرام، ليراه الأضياف يأتون إليه)، تعني أن أباها من أشراف قومه، وقالت له العجوز: فإذا وصلتهم في مجلسهم فانظر الرجل الثابت في جلسته قليل التقلب، فأجلس إليه ثم اتكىء على فخذه بمرفقك، فإن ضجر فاتركه واتكىء على غيره، فإذا ثبت وارتكا لك ولم يضجر فهو من رجال التحمل، فأخبره بحالك، واسأله عن مطلبك، فإنه سوف يرشدك ويكتم عليك أمرك، فقال لها: إن كان الأمر كما تقولين فسوف أجزاك بما يرضيك.

ثم ركب ناقته وذهب يتطلب قوم ابن نهد، حتى وصلهم، فنظر بيتًا مرتفعًا بالذوآبة فقصده فوجد الرجال جلوسًا فيه، فأنزل عفشه عن ناقته حولهم وتركها ترعى عادة الضيف، ثم أتى وسلم عليهم وجلس

وصبوا له القهوة وحادَثُوه، فأوهمهم أنه يتطلب له إبلاً ضائعة ويسأل عنها؟، ثم إنه تَنَأمَ واتكيء بمرفقه على فخذ جليسه، ليختبر صبره وتحمله، كما أوصته بذلك العجوز؟ ولكن الرجل ضجر وقام فورًا وقال: وويلي ضيفكم هذا به نوم، فغير مجلسه بعيدًا عنه، ثم صنع هكذا مع رجل آخر، فارتكا له ولم يضجر، حيث عرف مقصده وأنه ذو شأن، فرفع مرفقه عنه وانتهى، فلما تفرق الرجال، بقي هذا الرجل الذي ارتكا له، فقام وجلس عند الدلال وقال: اقرب ـ اقرب يا ضيفنا تقهو وخبرنا ما هي حاجتك؟ فقام الضيف وقرب عنده وقال: إوالله فمثلك يبدي له السد، فأخبره بأمره، فقال الرجل: ابشر قد وصلت إلى خير، فهذا بيت أبيها ابن ثنيان، وها هي في البيت تسمعك، وأنا ابن عمها، عريس عليها الليلة، والآن أنا أفضلها لك، إذ كان هذا أمرك؟ فانتعش حِجاج الضيف (المهادى) وبلج يضحك، وقال: بارك الله لك فيها، وأنا أفضلك لك الآن، فقد سمح خاطري عنها إذ كانت عندك، والله لكأنها الآن في بيتي. ثم إن المهادي أراد أن يشكر الرجل على صنيعه معه فقال له: أنا فلان ابن فلان إن بدا لك لازم على طول السنين فأنا مستعد، فمعروفك قد ملكني، ثم ودعه وانثنى بسلام، انتهت: وتأتي القصة الأخرى وقصيدته المشهورة بعدُ إنشاء الله تعالى.

* * *

الفداوى ـ غلط

ومن الأغلاط الواضحة: (الفداوى): وهو الضيف الذي يبقى عند أهل البيت، يأكل ويشرب وينام بدون عمل ولا مدة معلومة، وتارة يطول بقاءه عندهم، لكنه يعد قاصرًا من الرجال، كما في المثل:

(ترا الفداوى داوى وأنشد الناس) وهو خاص في البادية، أما الحاضرة فلا يتركون الفداوى يبقى عندهم هكذا.

وقد يكون له غرضًا سياسيًا، أو إجراميًا فيبقى عندهم إفداويًا يتغرغر (كأنه غبيّ جاهل) حتى يتمكن من غرضه، والقصص في هذا كثيرة معروفة في أضرار الفداوى على أهل المحل، وعلى كل حال: فبقاءه عندهم لا خير لهم فيه، كما في المثل: (الدخيلة نخيلة). وقيل:

وضعيفة فإذا أصابت فرصة ... قتلت كذلك قدرة الضعفاء

وقال الأديب القحطاني:

لا تتركنَّ أحدًا بأهلك طائفًا ... فعلى النساء تقاتل الإخوان

إن الرجال الناظرين إلى النساء ... مثل الكلاب تطوف باللحمان

إن لم تصن تلك اللحومَ اسودُها ... أُكِلَتْ بلا عِوَضٍ ولا أثمان

(انتهى).

* * *

قصة أخرى في التحجير

كان رجل في قبيلة أخرى، حَجَّرَ على ابنته سارة، فلا يزوجها غير ابن أخيه، وهي لا تريده وأحبت شابًا من غير قرابتها على عفاف وحشمة، فعزم أبوها على إلزامها بابن عمها، فعقد له عليها وقاموا بتجهيز وليمة العرس، وحين رأتهم عزموا على إلزامها بِمَنْ لا تريده اختارت الموت على ما ألزمت به، فَبَعْدَ العصر لبست عباءتها وخرجت وقصدت البئر (القليب) المسماة (الْجَابْرِيه) بحَفَر (الْعَكْ)، كانت البئر عميقة جدًا معروفة هناك، نحو ثلاثون باعًا بمعدل ثمانية وخمسون مترًا تقريبًا عمقًا، فألقت نفسها فيها، وهم خرجوا ليمسكوها ففاتتهم وسقطت. فقال أبوها لزوجها وكان حاضرًا، أنزل عليها أخرجها، فقال الزوج اشهدوا أنها إن خرجت حية فهي طالق مني، فنزل عليها وأخرجها حية، قيل: إن عباءتها حقنت الريح ومنّعت معها، لأن العباءة من الصوف الغليظ، وثبت طلاقها، وبرئت وعاشت ولم تقبل التزوج بغير معشوقها، ولكن أبوها صمم على عَضْلِها ومنعها منه، حتى كبرت وفات وقت حملها وإنجابها الأولاد، وقد قيل شعر في هذه القصة:

حَـيْ سَلْـمٍ قَـدِّتُـه لِلْبِنِـي سـاره		مَنْ ابلي بالروح يمشي مماشيها
جَتْ تَخَطّا العصر للموت مختاره		طَبَّحَـتْ بـاللِّـي بَعِيـد مَنَـاحِيهـا
مَنْ خَبَرْ مثله على الموت صبارة		عـافـت الـدنيـا وأهلهـا وغـاليهـا

قولهم (طبحت): وَطَبَّحْ هذه (لغة البادية) وطَبْ وطَبَّتْ (لغت الحاضرة في نجد)، ومعناها: أنها ألقت نفسها من فوق إلى تحت قَصْدًا لا خطأ، قولهم (إطوال مناحيها) أي: بعيد منتهى مِجَرْ الرشا لإخراج الماء منها، قولهم (حي سلم قدته للبني ساره): السلم هو العادة والعرف، ومعناه أنها هي التي بدأت وفتحت هذه الطريقة، وهي إهلاكها نفسها إذ ألزمت بتزوج من لا تريده، وليست هي أول من انتحر في ذلك، بل كثير من النساء إذا نشزت وبليت بروحها وألزمت، غامرت بإهلاك نفسها. ولو أخذنا نعدد الوقائع في مثل هذا لطال الكلام، مع أن الانتحار محرم في الشرع.

وبـهـذا تعرف ضرر التحجير في المجتمع، إن فاتك معرفة تحريمه في الشـرع. وكـذلـك إذا نشزت نـشـوزًا صحيحًا وأعادت للزوج صداقه كاملاً فالحق أنها لا تلزم به، ولا تبلى بـمـا قـد تقتل نفسهـا بسببـه، كمـا فـي حـديـث «صـاحبـة الحـديقـة حيـث أخـبـرت النبـي ﷺ أنها لا تريده، فقال: أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فقال لـزوجهـا: اقبـل الحـديقـة وطلقهـا تطليقـة» رواه البخـاري وأبـو داود والترمذي.

وليُعلم أنـه لا يـجـوز أن يـقـتل الإنسان نفسه ولا غـيـره بأي سبب من الأسباب، لأن قـاتـل نفسـه أو غـيـره يـكـون في النار،

والـــذي حَجَّـرَ عليهـا أو ألـزمهـا بمـن لا تـريـده: عليـــه مثـــل وزر الجريمتين.

وقالت امرأة حين عافت الزوج ولكنه أبـى أن يطلقها:

لـــوا حَـــلالات يـــا الطيـــب ألِّلي إيْـلا قِلْـت مـا بِيْـك خَـلانِـي
قِلْ عَنْك ما هُوب أنْت يا الْخَيِّبْ حكمـك عَلَـيْ حِكُـم دَوْلانِـــي

(انتهى).

* * *

رجولة للعشق

كانت عائلتان في إحدى القرى، جيرانًا لبعضهم، فنشأ لهؤلاء ابن، ونشأ لهؤلاء بنت، فكبرا وتعاشقا وتحابا على عفاف وحشمة، وتحدث معها بأنه يريدها بالتزوج؟ فقالت اخطبني من أهلي؟ فقال إن أهلكِ لا يزوجونني إياك حتى أكون رجل، واعتمد على نفسي بعد الاعتماد على الله سبحانه، أما وأنا على حالتي هذه فلا، قالت: وماذا تريد أن تصنع إذًا؟ قال: أذهب أتطلب المصالح ووسائل الرجولة مع الناس، فقالت: اذهب لما تريد، قال: ولكني أخشى أن تتزوجي في غيبتي فأشقى مرتين؟ أشقى في التغرب، وأشقى في فواتكِ إياي؟ قالت: إذا كنت ذهبت من أجلي فلا يزوجني أهلي حتى أنت تأتي إنشاء الله، (وسوف أساعدك أنا بالدعاء لك بالتوفيق)، ثم إن البنت أوعزت لأمها بالموضوع سرًا فوافقت عليه، ثم أوعزت الأم للأب فوافق كذلك، حيث كان الولد رجلاً عاقلاً مؤدبًا محبوبًا. فنزع الولد عن أهله في طلب أسباب تحصيل محبوبته، فذهب يزاول الأعمال والأشغال في بلاد الغربية وغيرها، فأقام نحو سنتين أو ثلاث لكنه يراسل أهله وأهلها بالمكاتبة والسلام، فأتاح الله له رزقًا ومحصولاً يكفي غرضه، (فيمكن أن يكون ذلك بسبب دعائها له، حيث كانت شابة صالحة تقية، تقوم

آخر الليل تصلي وتدعو الله له ولها بالرزق والتوفيق) ثم عزم على الرجوع إلى أهله، فأخذ يستعد للقدوم، فاشترى ناقتين وأثاثًا، واشترى لأهله كسوة وقهوة وفرايح، ثم اشترى لأهلها كذلك، وكسوة خاصة للبنت، وحمل على الناقتين، ثم رافق الراجعين من رجال عُقيل، وأقبل حتى قدم على أهله، فسلم عليهم وأناخ ناقتهم وأنزل ما عليها من الأغراض، والناقة الثانية واقفة بما عليها، فسأل بعض أهله هل تزوجَتْ فلانة؟ يعني بنت الجيران فقالوا (لا) فأخذ خطام الناقة الواقفة واقتادها إلى بيت أهل البنت، فأناخها عندهم، فاستقبلوه وسلموا عليه ورحبوا به، فقال هذه الناقة وما عليها لكم، صداق لفلانة إذا أنتم تبغونني؟ فقالوا: الساعة المباركة، الله ايحييك ويبارك بالبنت التي تقربك منا، فاستلموها وما عليها، فأعجبتهم رجولته، فزوجوه بأسرع وقت أمكن. (انتهى).

* * *

أهَمُّ خصال الرجال

قيل: الرجل بأصغريه: قلبه ولسانه. قال زهير: الشاعر العربـي:

لسـان الفتـى نصـف ونصـف فـؤاده　　　فلـم يبـق إلا صـورة اللحـم والـدم

أي لا قيمة للرجل إلاَّ بالأخلاق الراقية التي ترفع شأنه وتبين مقدار قيمته في الإنسانية، ومن أهم خصال الرجل الشجاعة والرأي السديد والصبر في المصاعب، كما قيل على هذا المعنى، (أربعون ثعلب وأميرهم أسد، خير من أربعين أسد وأميرهم ثعلب) وكما قيل: ألف كواحد، وواحد كألف، وخصوصًا قائد الحرب، وزعيم الجماعة، والأمير، وقيّم أهل البيت، فإنها لا تصلح أمورهم إلاَّ بتقديم أفضلهم في الشجاعة والرأي، ويزين الرجل أيضًا السخاء، ويزينه حسن الخلق، ويزينه الصدق في القول والمعاملة، ويزينه الاعتدال في طلب المال، والتنزه عن حقوق الناس، إلى غير ذلك من الفضائل.

وأما المرأة فإنه يزينها التزامها الأنوثة وتحقيقها إياها، من العفاف والحياء والتستر ولزوم البيت، وخضوعها لقيومية الرجل عليها مَنْ له عليها وِلايَةٌ، مع الأمانة وإخلاص السريرة للزوج، إلى غير ذلك من فضائل النساء، كما قالت شعرًا:

طول الجدار وقصرت الرِّجل نوماس   إيلا صار ما لِلرِّجل داع دعاها

(حديث): ثلاث لا يَغِلُّ عليهن قلب امرىء مسلم: إخلاص العمل لِلّٰه، والنصح لِعامَّةِ المسلمين، ولزوم جماعتهم: رواه أحمد والترمذي وابن ماجه. (انتهى).

* * *

الـوَسـم

الوَسِمْ هو: العلامة، فكل شيء تعليمه بحسبه، أي سِمَته بعلامة يعرف بها ويميز عن غيره، قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ۝١٦﴾[1]، وفي الأثر: (إياكم والوسم في الوجه) أو قال: (تجنبوا الوسم في الوجه). يعني وسم الدابة، وكان الناس لازم يَسِمُون مواشيهم: الإبل والغنم والبقر والحمير، فلا يُثْبِتْ مليكته له عند الاختلاف إلاَّ الوسم.

إذ كل أحد له وسم يخصه يضعه على مواشيه معروف عند عامتهم، ويُشهد له به عند حاكم الشرع، ويَتَوارثه العوائل صاغرًا عن كابر، فيقال (هذا وَسْمُ آل فلان، وذاك وسم آل فلان) مثلاً. وفي المثل: (إذا اشتريت حاشي أُوْسمه): أي ضع وسمك عليه، لأجل لو ضاع حفظه لك الوسم، والحاشي هو ولد الناقة الصغير: يعني والجمل الكبير أحق بالوسم، وهذا يضرب مثلاً لعامة الأمور، بأن تأخذ الحيطة بضبطها بما يحفظها لك عند الاختلاف، والمغايرة، وكذلك سائر الأمور لضبطها، والوسم هو كية نار، بحديدة شبه صيخ أو حلقة، على شكل مختلف حسب اختلاف أشخاص المُلاَّك، كما تختلف الأسماء، فالإسم هو علامة على الذات ونحوها، والوسم علامة الملكية

---

(١) سورة القلم: الآية ١٦.

أو الاختصاص، والوسم لا بد أن ينضج على جلد الموسوم لِيَثْبُت به فلا يزول، وموضع وسم البعير هو: جانب رقبته أو جانب فخذه لا غير، فإن وجد كي بغير هذين الموضعين فهو كي مرض غالبًا لا وسم: وكي المرض عيب في الدابة يرد به المبيع إذا لم يبين عند البيع ويشترط، حسب العرف المتعارف عليه المتعامل به، ووسم الغنم على أذنها لا غير، ووسم البقر والحمير على جانب الرقبة لا غير. (انتهى).

* * *

تضخم النفس.. لماذا؟

هناك رجل استبضع بضاعة من تاجر حوله، وأخذها دراهمًا ذهبًا نحو مائة أو مائتين جنيهًا، احتزم عليها داخل ثيابه، ثم سافر للهند أو غيره، ليستورد بضائع من هناك، مما يراه يكسب هنا، فلما وصل هناك نزل بالأوتيل (شبه فندق)، ويرود الأسواق والبضائع يستخبر أسعارها. وكان صاحب الأوتيل يباشر الزبائن مع العاملين فيه، لم يرفع نفسه عنهم إلاَّ أنه هو صاحب الشأن، لكنه رأى هذا النجدي في نفسه تضخم: يميل رأسه وعقاله تعاظمًا وإعجابًا بنفسه، فاستثقله، وانتقده فأضمر أن يختبره وينكل به، فجعل يسأله؟ والنجدي يجيب.

ـ ما عمل السيد هنا؟

ـ أريد أشتري بضائع من هنا وأصدرها إلى نجد.

ـ كم معك من الفلوس؟

ـ معي مائة جنيه ذهبًا، قال: آه والله كثير.

ـ أيَّ بضاعة تريد؟

ـ لا أدري، سوف أنظر الأسواق هنا، فما رأيته أكثر مكسبًا هناك اشتريته.

ـ يا بوي هنا مال رخيص اليوم، هي بضائع الأخشاب، فاليوم موسم جلبه، وبعد أربعة شهور ينتهي تواجده فيرتفع سعره، إلى العشر عشرين، إذا ما يشكل عليك الجلوس هنا أربعة شهور، وتبغي اشترك واياك؟ أنت معك مائة جنيه وأنا اقط مائة جنيه ونشتري أخشابًا ونؤخر بيعها حتى ينتهي ما في الأسواق، ثم نبيعه بقيمة مضاعفة، فيكون معك مائتين جنيه تشتري بضائعك وترجع لبلدك؟

ـ لا بأس أنا أجلس ولو سنة إذا كان هنا فائدة، فأنت صاحب البلد وتشترك معي فهذا من حظي.

فأخذ الصاحب مائة جنيه مثل ما مع النجدي، وذهب به إلى سوق الأخشاب، فاشتريا بالمائتين أكوامًا من الأخشاب وتركاه في مكانه، فإذا أصبح النجدي ذهب إلى المال، يتفقده ويجلس في ظله، يمضي وقته ينتظر وقت نفاقه، ثم يرجع يأوي إلى الأوتيل.

وذات ليلة ذهب صاحب الأوتيل إلى المال الأخشاب، ورشه بشيء من النفط وأشعل به النار، فاشتعل واحترق كله، فلما أصبح النجدي وأفطر بالأوتيل على عادته ذهب إلى الأخشاب فوجدها محترقة؟ فانزعج عقله وصاح وناح، ورجع إلى صاحبه (شريكه) فاتخًا عقله يخبره بالأمر؟ قال الصاحب: واحترق المال كله؟ قال نعم، فأجابه بكل بساطة (احترق خلاص) فلم يُظْهر تأثرًا بذلك كأنه لم يحدث شيء، فزاد حزن النجدي وتأسفه على ماله، وقال للصاحب: أنا ليس لي المال إنما هو بضاعة للتجار؟ فحينئذٍ: استشاط عليه صاحبه غضبًا وقال: يا مغرور هذا إعجابك بنفسك وتكبرك وثقل خلقك، وسخت

محلنا أَخْ أَخْ، والمال لغيرك؟ انظرني أنا عليّ وزرة العمل، واعمل كما ترى، وعندي دراهم كثيرة، (ثم فتح باب مخزن عنده وإذا هو ملآن دراهم، قال انظر المال عندي ولم أتكبّر مثلك، والمال: أنا الذي حرقته، أريد أربيك؟ فانبهت النجدي وكاد يغمي عليه، ولكن الصاحب أخذ مائة جنيه من مخزنه وأعطاه إياها وقال: خذ مالك واذهب عنا فقد ثقلت علينا. (انتهى).

* * *

كذا رجل آخر

كذلك استبضع رجل آخر بضاعة، وذهب إلى بعض الأمصار، يستورد بضائع، فلما وصل هناك، اختار أن يشتري نوعين من البضائع مما يحتاجه الناس ضروريًا، أحدهما: كبريت، وهو (الشخط)، قبس النار، والثاني: إبرة الخياطة اليدوية، فاشتراهما وأتى بهما مشدودة في صناديق، فلما فتحهما هنا وأخرجهما، وإذا الكبريت ليس به سُمَّة، وهي جهاز الاشعال في رأس العود، إنما هو عود خشب بلا سمة.

وأما الإبرة فكذلك ليس بها ثقب إنما هي رتقا.

فيقع هنا مشكلة، فهل تكون الخسارة على المستبضع المورد حيث يلزمه ضبط البضاعة؟، أو تكون الخسارة على رأس المال لأن هذا خيانة من المصنع خارجًا عن قدرة المستورد؟، قيل: يلزم المستورد أن يذهب يطالب المصنع بالخسائر حسب النظام عندهم، وتكاليف عودته على رأس المال، إلاَّ عمله هو فليس له مقابل لأن هذا من إتمام عمله لكن يدعى به على المصنع البائع، والله أعلم. (انتهى).

* * *

فصل:
المسؤولية الهامة

جاء في الحديث «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» رواه البخاري ومسلم، فالإمام الوالي الأكبر راع ومن دونه كل مسؤول عما يناط به، وأنت مسؤول عمن تحت يدك مِن أهلٍ وأولادٍ وخدم، وهم مسؤولون عما في أيديهم من بيتك ومالك، ولو قام كل أحد بما يناط به بجد وإخلاص، لصلحت الأحوال وانتظمت الأمور، ولكن لله في ذلك حكمة (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً).

ولقد عهدت الناس لا يحتاجون لشدة تنظيم، فالأمير ينظم الأمور هو بنفسه شفاهيًا ليس عنده إلاَّ كاتب ووكيل وخُدام، والقاضي يجلس بالمسجد لفصل الخصومة، أو في بيته وليس عنده إلاَّ كاتب، أو يكتب بيده، ونادر أن يكتب شيئًا، وبيت المال أمينه واحد، وحوله عمال للتحميل والتنزيل، والبلدية إنما هو رجل في دكانه متبرع تناط به أحوال البلد، وكاتب العدل إنما هو أشخاص معروفون، وكل واحد يعرف خط قلمه ويعتمد عليه بالثقة، وخطهم يعرف حتى الآن: إلاَّ أنَّ الثقة قد نزعت من الناس في هذا الزمان، فَيُخَوَّنُ الأمِينُ ويُؤتَمنُ الخائن، فاضطرت الحال لوجود جهات رسمية لضبط أحوال الناس،

فالحمد لله على ذلك، وكان كل أهل بلد أو حارة، لهم عميد منهم يرجع إليه بالرأي والمسؤولية، وأي أمر يتفق عليه كبار الجماعة فهو المعتمد المقبول، وأعيان الجماعة: هم العقلاء وكبار السن، لأجل نضج عقولهم بالتجارب طوال الأزمنة، كما قيل:

لعمرك ما الرزيئة فقد مال ... ولا شاة تموت ولا بعير
ولكنّ الرزيئة موت حُرٍّ ... يموت بموته خلق كثير

والحر هنا هو: من توفرت فيه خصال الخير والفضل أو بعضها على الأقل، لا أنه حر الأصل كما يظنه بعض الناس. وكما قيل في وصف النَّبيِّ ﷺ:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ... ثِمال اليتامى عصمة للأرامل

وكان كل إنسان يعرف بعمله من خير أو شر، وكان كل إنسان يَعْرف مقدار مستوى نفسه، فلا يزعم لنفسه غير واقع الحقيقة، ولو زعم لَمَا أطاعه الناس.

أما اليوم فكل أحد قد تَقَلَّدَ زعامة نفسه، ويرى لنفسه فوق مستواه، فاشتبهت الحقائق، كما تراه. (انتهى).

* * *

البوادر في الأولاد

يقول أحدهم:

حنا اعيال مِذَارِيب نبني البيت على إنسانا

المعاني:

المذاريب: جمع ذَرْب: وهو الشاب الشجاع السخي، ذو إنسانية، وحمية، يتحبب إلى الناس، فهو محبوب.

قوله: نسانا: أي نسائنا، وبناء البيت على النساء هو العلامة والفارق في رجولة الأولاد في الزمان السابق، وهو القيام بشؤون أمه وأخواته وغيرهن من نسائه وهو صغير، إذا غاب أبوه أو مات، فيعمل مع الناس ويكتسب مالاً وينفق عليهن حتى يغنيهن الله بالأزواج، ويتزوج هو، وتبقى عنده أمه يبرها ويكرمها هي ومن يواصلها ويزورها، ويخدمها هو وزوجته وأولاده ما دامت على قيد الحياة، فهذا معنى بناء البيت على النساء، ويفعل هكذا سائر الأولاد حتى مع وجود أبيه، وهذا هو غاية الرجولة والصلة، وثمرتها الخير والبركة في العوائل.

مسألة:

نظر أحدهم إلى وجه ابنه الصغير، فتوسم فيه الشر، فقال:

(وجهه وجه الشر إنشاء الله)، فقد يقول قائل: نعوذ بالله من حال هذا الذي يحب الشر ويترجاه في ابنه؟ فيقال: ليس عليه ملام في ذلك، لأنه يريده يكعم عنه وجوه الشر: (الأوجه الشريرة)، والمراد بتوسم الشر في الوجه هنا: هو سمة الشجاعة والحماسة والتصلب، فيكون فارسًا حاميًا رائدًا لأبيه وأهله، فأهل الفراسة يعرفون أخلاق الإنسان وأفعاله بسيماها على وجهه غالبًا.

وهـنـا مـسـألـة

كان ملك له أبناء، منهم اثنان ليسا كبارًا: فركبا وخادمهما على الخيل، وأتيا للمزرعة (الفلاحة)، فنزلا، وصار كل واحد منهما يعمل ما يهواه، فأحدهما جعل يغسل ظهور الخيل، (وأما الآخر فأمر للعمال بقهوة)، وأمر الخادم أن يقطع له من جريد النخل الأخضر ويحضره عنده، وهو جعل يعمل منها سيوفًا، بحيث يبري الجريدة بالسكين (الخنجر) حتى تكون شبه سيف ويجمعها، وفي النهاية صار هذا هو الملك.

كذلك حاكم آخر: له أبناء، وكانوا يلعبون مع الصبيان، فيقول أحدهم: (مَنْ أنا معه) ويقول الآخر (أنا مَنْ معي)، وفي النهاية صار هذا الأخير هو الملك بعد أبيه. (انتهى).

* * *

فصل:
ومن الحكمة في الخلق

فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق وفاوت بينهم في التفضيل والتضليل ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾[1]. لِيَظهر سلطانُه وعزّه وجبروته ورحمته وانتقامه؛ فجعل منهم قسمًا لفضله وكرمه ورحمته وإحسانه، فضلاً منه ورحمة وامتنان، فبعمل أهل الجنة يعملون. وقسمًا جعلهم لغضبه وانتقامه اقتضأ عزته وحكمته وعدله، فبعمل أهل النار يعملون ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[2]، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[3]، (والأمر هنا غير المأمور به)، فأكثر الخلق إنما خلقهم لغضبه وانتقامه، وإنما يختار خواصًا من خلقه لسابق علمه بصلاحيتهم لعبادته، ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[4].

كما اختار أصحاب الكهف وهم من وزراء الملك دقيانوس وحاشيته، هو كافر وَدَوْلَتُهُ، ويزعم أنه ربهم فصدقوه وعبدوه، وكان لهم يوم عيد يخرجون فيه لعيدهم ومهرجانهم، وفي تلك الساعة أتى

---

(١) سورة التغابن: الآية ٢.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٠٥.

إلى الملك خبر جيش عدو محارب له قد دخل طرف مملكته، فأهمه ذلك وارتج وانتفض جسمه حتى سقط التاج مِنْ على رأسه وهم ينظرون، فأشخاص من حاشيته ووزرائه نحو ستة رجال شباب ألقى الله فيهم العقل السليم والتفكير الحقيقي، فعرفوا أنه لا يصلح أن يكون ربًّا وهو لا يدفع عن نفسه مكروهًا، ففكر كل واحد منهم في نفسه لخلاصه من رق العبودية لغير رب السماوات والأرض، فعرف أنه لا بد له من الهرب بعقيدته، فانسحب وجلس في خيمة معدة للاستراحة، ثم جاء آخر وجلس، ثم جاء آخر وجلس، حتى بلغوا نحو ستة أشخاص (على الراجح من الأقوال) وكل واحد لا يعلم ما في نفس أصحابه ولا يستطيع أن يظهر ما في نفسه خوفًا من الملك ودولته، فجعل بعضهم ينظر في بعض، ثم قال أحدهم ما الذي أتى بكم هنا عن قومكم؟، فقال أحدهم: هل رأيتم ما أصاب الملك من الخوف حين بلغه خبر الجيش؟ فقالوا نعم، قال: إذًا لا يصلح أن يكون ربًّا، فقالوا نعم، قال: ربنا رب السماوات والأرض، قالوا نعم، فقال: إنَّه إنْ يعلم بنا الملك يقتلنا، فقوموا نهرب بديننا. فقاموا وهربوا؛ وفي طريقهم مروا على راعي غنم، فقال: ما شأنكم؟ فأخبروه خبرهم، فقال: وأنا معكم، فمشى معهم وترك غنمه، وتبعهم الكلب، كلب الراعي، فشرُف بشرفهم إلى يوم القيامة، وذلك ببركة صحبة الأخيار، فلما خافوا من الطلب خلفهم لجئوا إلى غار في سفح جبل، وهو الكهف كما ذكر الله قصتهم: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾[1].

(١) سورة الكهف: الآية ٩.

وكما اختار الله الأنصار لصحبة نبيه محمد ﷺ، ونصرته وحمل دينه الحنيف، وكما ثبّت أبا بكر خليفة الرسول ﷺ، يوم الردة، وكما ثبّت أحمد بن حنبل يوم المحنة، وكما بَصَّرَ وأظهر محمد بن عبد الوهاب في زمان قد انطمست فيه معالم التوحيد، وفشي فيه الشرك في سائر أقطار الأرض، فأظهر الله به التوحيد في جميع بلاد نجد وانجلى ظلام الشرك بدعوته والحمد لله، وقد وعد الله ورسوله بوجود طائفة على الحق إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾[1]، وهكذا فضل الله لا يختص بزمان ولا مكان ولا بأحَدٍ دُوْنَ أحَدٍ. (انتهى).

* * *

(١) سورة الجمعة: الآيتان ٣، ٤.

ضـرافـة

كان هنا رجل كبير السن وكَفَّ بصره، (فكان يَطِيْفُ به طائف من الجن) فأقلقوا راحته، فاشتكاهم إلى أهله، وقال إنهم يرتجزون ويَحْدَوْنَ عندي كما يفعل البدو حالة سقي الإبل، على صفة متح الماء من البئر، فسألوه ماذا يقولون؟ فقال إنهم يقولون:

اَلْبِـــــلْ وردت يـــــا طِنْحُـــــوز   وانـــت لِــــكْ بْحِضِـــن عجـــوز

البـــــل وردت يـــــا طنحـــــوز   وانـــت لـــك بحضـــن عجـــوز

دائمًا هكذا حوله، ثم إن أهله أحضروا له بعض القراء فقرأوا عليه بعض آيات الورد والتعوذات فبرىء وذهبوا عنه فاستراح.

فكثيرًا ما يصاب الانسان الكبير (شايب أو عجوز) بالتخييل والتزويل والقلق والوساوس، كما قد يصاب بذلك غير الكبير: وعلاج هذا المرض النفسي في القديم هو القراءة عليه من كل أحد، إلاَّ أن بعض الناس قد يكون أبلغ في التأثير من بعض، حكمة الله سبحانه.

صفة متح الدلو من البئر

أما صفة متح الماء من البئر فهو على حالتين، (المتح ــ والزعب).

فصفة المتح هو أن يقف الإنسان على شفير البئر ويحتزم ويرفع أسفل ثيابه، ويفحج رجليه وينزِّل (يُدَلِّي) الدلو في حبله في البئر حتى يغطس في الماء ويمتلىء، فيمسك الحبل بيده من تحت ويرفعه بقوة، ثم يمسكه بيده الأخرى وينزل يده الأخرى بسرعة ويرفعه، وهكذا حتى يظهر الدلو ويفرغه في الحوض أو القربة، ثم ينزله وهكذا، ولا بد من شد العزم في هذا، ويحاذر أن يَزِلَّ في البئر، وإن كان الدلو أكبر فلا بد من رجلين يصطفان على شفير البئر فيمسك أحدهما الحبل من تحت بيديه بعد امتلاءه في البئر ويرفعه، وإذا الآخر يمسكه بيديه من تحت ويرفعه، .ثم يهوي الآخر بسرعة ويرفعه، وهكذا حتى يطلع الدلو ويفرغانه: ولا بد للماتح أن يدنو إلى فوهة البئر حالة رفع الدلو إلى أقصى قدرته في الدنو حتى يبعد الدلو عن جال البئر فلا يحك به فيقطعه، فيضطر لشد عزمه إلى أقصى حد مع الحذر أن يزل في البئر.

وهذه العملية يناسبها الارتجاز لشد العزم: بمثل قولهم:

اشـــربـــي لا تـــافـــريـــن   مـــن قليـــبٍ حـــافـــريـــن

وقولهم:

المـــأ غـــدا نَهـــابِـــبْ   بيـــن الصبـــي والشـــايـــب

وقولهم:

يـا غـريبـي وش اللـي بـك تجيبنـي وجيبـك

وقولهم:

صبوا لـراعـي الطـاسـه شقـر ذوايـب رأسـه

ومثله ارتجاز الجن حول الشايب تقليدًا للأنس بذلك: قولهم

البـل وردت يـا طنحـوز وانـت لـك بحضـن عجـوز

وكانت عادت الناس إذا وردت الإبل على الماء حين تأتي من البر (الفلاة)، يتناخون ويشدون عزمهم يسقونها لا محيد لهم عن ذلك، ويهزبون هذا على أنه نائم في حضن امرأته العجوز ولم يهتم بالبل حين وردت، فهو رجل رديء غير طيب.

أما الزعب فهو أيضًا إخراج الماء من البئر: لكنه ليس مَتْحًا بل يمسك طرف الحبل (الرشا) مثنيًا ويدخله بكتفه، ويستدبر البئر ويُدبِحْ بظهره ورأسه ليتحامل لثقله فينزع (يسحب) الدلو أو الغرب بالرشا من فوق المحالة (البكرة) المنصوبة بالخشب فوق البئر: ولا يكفي النفر الواحد لزعب الغرب الكبير أو الدلو الكبير فيجتمعون رجال ونساء وأولاد كلٌّ يمسك بالحبل واحد بعد الثاني ويهزعون ظهورهم ورؤوسهم إلى وراء يمشون ليتحاملوا لثقله، وهذا في كل دورة حتى ينتهوا. فالغرب يصب ماؤه إذا ظهر في حوض من الطين على شفير البئر. وأما الدلو فيمسكه أحدهم إذا ظهر ويفرغه في حوض الإبل. والحوض معمول من جلود الإبل المدبوغة، على أرجل من عصى

الخشب المحني مدورًا، إتساعه ذراعين نحو متر، وارتفاعه ذراع، خفيف متنقل يحمله الرجل بيد واحدة، فهو من جملة عدة ورد الماء، فيجمع فيه الماء الممتوح بالدلو فتشرب منه الإبل والغنم وتعبأ منه القرب والتغسيل وغيره...

جاء رجل وطلب من رجل أن يعيره الحوض يسقي فيه إبله ويرجعه إليه، ولكن صار صاحبه قليل المروءة، فاعتذر من إعطاءه إياه قائلاً: (إننا نريد نغرف فيه عشانا)، فقال الرجل: بحوض الإبل تغرفون عشاكم. فقال صاحبه (عذرًا يا رجل) يعني لا.

أما قولهم (بين الصبي والشايب) فالصبي هنا هو الشاب القوي الشجيع، وقد يكون الشايب أشجع من الشاب عند النخوة إن كانت له عادة.

قولهم: (وأنت بحضن عجوز) فهذا هزب له، فلو كانت غير عجوز لكان يعذر بعض العذر، ولكن حيث تلهى بها وهي هكذا وتخاذل عن القيام لسقي الإبل حين وردت، فيدل هذا على أنه ليس به شهامة. (انتهى).

قيل:

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدر

وقيل: إحذروا صولة الكريم إذا جاع.

وقيل: خمسة يُبكى عليهم: (الْمَلِكُ العادل، والعالِمُ، والعابد، والشجاع، والكريم السخي).

فتلــك خمســة يبكــي عليهــم		ومــوت الغيــر تخفيــف ورحمــه
فــلا نَقْــدٌ مِنّــا ولا اعتــراض		ففــي إيجــادهــم لله حكمــه

قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1]. فضل الله هنا هو إنزاله القرآن، ورحمته هنا هو هدايته لك للإيمان بالقرآن والإسلام، قاله شيخ الإسلام في «الفتاوى»: فعليك أن تفرح إذا هداك لذلك. (انتهى).

* * *

(١) سورة يونس: الآية ٥٨.

فروق النساء والرجال

قالت مويضي الجدعية، (وكانت شاعرة ذكية):

نفسـي تمنيني رجـال الشجـاعـة　　ودي بهـم مَيْـر المنـاعيـر صلفيـن
شفـى ابمنـدس وسـط الجمـاعـة　　يـرعى غنمهـم والبهـم والبعـاريـن
وايـلا ضـربتـه ضـربـة فـي ذراعـه　　ما هوب قالِيني ولا الناس دارين
وايـلا نـزرتـه صـار قلبـه رعـاعـه　　ويقول يا هاف الحشا ويش تبغين

كما يقابلها من الرجال من يقول:

لا تطع شـور المـره لـو انهـا قـرمـه　　ترى شور المره يحدرك من عالي
تنسف عليك الشديِّد واوَّلَهْ برمه　　لَيـن إتْحِطِّكْ مْعِيـدِ مِنْـوَة السّـانـي

ولكن هذا ليس على إطلاقه، فإن بعض النساء فيها خير كثير، دِيْنٌ ودُنْيا وربما ندر من بعضهنَّ رأي أحسن من رأي بعض الرجال، وكم من خَيِّرات وصالحات وشجيعات، وفيهنَّ من هي بضد ذلك، كما قال الشاعر:

فيهن من تضوى ويضوى لها الغنى　　وفيهـن مـن تنحـى الغنـى بعمـود
وفيهـن مـن تسـوى ثمـانيـن بكـرة　　وفيهـن مـن تـرخـص ابقيـد قعـود
وفيهـن جنـات تـداعـج انهُـورَه　　وفيهـن نيـران إبليّـا اوقـود

والبكرة هنا هي: الناقة الشابة الطيبة، نسئل الله حسن التوفيق، والقرمة هنا هي: المرأة الشجيعة، والغنى هنا هو: الرزق والبركة في المال. وقال الشاعر الآخر:

فَرْقِكِنْ يا البيض رِجْلِيْ وخيّال   مثل فرق السّلْم نِيره وربِّيَّهْ

النيرة: هي الجنيه من الذهب. وقال آخر:

نبيع إلا باعوا ونشتري إلا شروا   ولا غبن الا بالنضا والحلايل

النِّضَا هي: الإبل، والحلايل هي: النساء الزوجات. وقيل:

خطو الحليله تقل دره   تْسَلِّيك عن بعض الاحوال
وخطو الحليله كفى شره   تحدث على كبدك القالي

(انتهى).

* * *

طُـرْفـه

في أوائل وقت تكاثر السيارات حوالي سنة ١٣٧٥هـ، اشترى أحد الجماعة سيارة: جيب وِلْز هو الموجود ذاك الوقت من نوع الجيب، فتعجب الناس من جرائته على شرائه وكونه عرف سياقته، مع أنه لا يسرع فالرجل الماشي المسرع يماشيه. ومرة خرج عليه هو واثنين من الجماعة لزيارة بعض الأخوان بالطرفية الشرقية، وكان الطريق غير معبد، فلما رجعوا وكان الطريق ينزل مع الجبل المسمى (النَّقِيب)، وكانت النزلة خطيرة جدًّا، فلما وصلوها، وقف واستشار أصحابه قال: ما رأيكم؟ فالناس يقولون إنه لا يمسك السيارة حالت النزول إلاَّ (القير) ولكن أيهنَّ أقوى: نمرة أربعة أو نمرة واحد؟ فقالوا: والله ما ندري، ولكن الأربعة أكثر من الواحد، فعزم على تنزيلها بالرابع يعني الراحة: وقال أنتم أنزلوا أمشوا على أرجلكم وأنا أنَزِّلْها إن شاء الله، فإن سَلِمْتُ فهو المطلوب والحمد لله، وإن تَلِفْتُ فكوني وحدي أهون منا جميعًا، ثم قال: بسم الله، وعشقه بالراحة ونزله ولم يساعده بالفرملة (البريك)، إما أنه لعدم معرفته وإما إنه ليس فيه فرملة. المقصود أن السيارة نزلت بسرعتها وجعلت ترتفع وتنخفض فوق الحجارة والميلات، إلاَّ أن الرجل كان ثابت الجأش وصلب الدركسون على الطريق حتى وصلت

السهل ووقفت وسلم من الانقلاب والحمد لله.

وأما أصحابه فهم حملوا معهم حجارة في أول الأمر يريدون إيقافها إذا أسرعت، ولكن راح وخلاهم فألقوا الحجارة وركضوا خلفه، ويقولون لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، وطارت عقولهم ينظرون متى يسقط الرجل ويهلك (ولكن الله سلَّم إنه عزيز حكيم).

كذلك مثل سابقه

رجل آخر اشترى سيارة وصار يسوقها: مشيه عليها مثل مشي سابقه، ومرة أوقفها تحت شجرة (أثل) في مزرعة له وقت القائلة في البر، فلما أراد أن يمشي بعد العصر لم يعرف يعشقها ريوس، حاول ثم حاول فلم يعرف فاضطر أن قطع الأثلة من أصلها وكانت كبيرة ومشى على الأمام.

كذلك: ركب جماعة من البادية في غمارة سيارة، لوري فورد قديم، ساروا في البر ثم تقطمت مسامير الصندوق وسقط في الأرض وفيه حمولة غنم، ولم يشعر به السائق، فلما وصلوا وإذا ليس على السيارة صندوق، فقال السائق لأخوياه، أخذ الله أوجيهكو متى علمكو بالصندوق. (انتهى).

* * *

نعمة الأمن

(نعمتان مجحودتان: الأمن في الأوطان، والصحة في الأبدان).

أتى أحد رجال البادية على فرسه وقت المغرب، فنزل عنها، فوقفت في مربطها، والعادة أن المرأة هي تربطها، ولكنها نسيت تقفلها حتى نام الرجل وهي إلى جنبه، وكان الرجل حازمًا، يجعل البندقية معه إذا نام، فَعَقِب البندقيةُ بين رجليه ورقبتها وفمها بين يديه تحت رأسه.

ثم ذكرت المرأة أنها لم تقفل الفرس، فانسلت من عنده بِخِفَّةٍ وهدوء حتى لا يستيقظ، حيث كانت تعطف عليه، رحمة به وتوفيرًا له، فذهبت وقعدت تحت الفرس تشك بها الشبيلي، وكان الرجل حذرًا وهو نائم، فنومه تخفيقًا، فكثيرًا ما يرفع رأسه ينظر الفرس خوفًا يأتي حرامي يفك غلها ويذهب بها، وحين قعدت المرأة تحتها تقيدها، بلج الرجل عينيه فأبصر القاعد تحت الفرس، فلم يشك أنه حرامي يسرقها، فَفَرَّ فم البندقية وهو في مضجعه وزخها بها وإذا هي زوجته، فجئرت قتلتني قتلتني، فقام إليها فزعًا مندهشًا وقال قتلتي نفسكِ هلا أعلمتيني؟ وماتت، ثم صاح وألقى نفسه عليها مغشيًا، فلما أفاق شيئًا وإذا أهلها جيران لهم غير بعيد ويبصر نارهم لم يناموا حتى الآن، فذهب إليهم، فلما وصلهم قال شعرًا يخبرهم بالحادث:

يا شابين النار جاكم مسايير دلت عليكم ناركم تشعمونه
انا وخلي فرقتنا المقادير يا من بايديه يطرف عيونه

فقال أبوها: قتلتها يا ميت النار؟ فقال: قتلت نفسها فقتلتها، ثم صاح الزوج وسقط بينهم مغشيًّا عليه، وكان هو محبوبًا عندهم: فقال أبوها: يفداك من راعك، يفداك من راعك، ابشر بخلفها هذي أختها بدلها، إلى آخر القصة. فالحراسة بالليل شيء معروف ضروري عند عامة الناس، فينام جملتهم ويبقى واحد أو إثنان حراس، وكثيرًا ما يتكلم الحارس ساعة بعد أخرى ليعلم أنه غير نائم، وينتخي إذا اشتد الخوف، ليخيف إن كان حوله حرامية، فيقول:

ياللّي اِتْلَوْيِدْ بالشعيب ابشرك إنك ذبيح
والصبح امك تشعط ثوبها واختك عند راسك تصيح

إلى غير ذلك مما يعانونه من المخاوف والشدائد. نسأل الله العافيه.

هنا قصة

فهناك عائلة في البادية أيضًا، كان أبوهم شايبًا، إلاَّ أن حواسه عامرة: عقله ــ وسمعه ــ وبصره ــ ولسانه، فقال لأولاده أنتم ناموا بالليل وأنا أحرسكم وأنام بالنهار، فإذا رأيت مخوفًا أيقظتكم، لكن كيف يوقظهم؟

كان طول ليله يَهْذُوْ بكلام هَذِرْ، كأنه امْهَذْرِي (امخرف)، فإذا رأى الحرامية أقبلوا جعل يرفع صوته بهذا الهذر شيئًا فشيئًا حتى يعلو

صوته فهي العلامة لإيقاظ أولاده فيقومون: والحرامية يظنونه شايب امهذري (امخرف) لا يلتفت لكلامه، فلا يخافون منه، ولا يعملون على قتله وإسكاته.

والكلام الذي كان يهذو به هو قوله: (أنا اباخِذْ لِيْ مَرَهْ، هُمِّنْ تجيب الْها ولد، همن اسميه علي، همن أقول يا علي البل اغْدِيْبَه) أنا اباخذ لي مره، همن تجيب لها ولد، ثم اسميه علي، ثم أقول يا علي البل اغْدِيْبَه)، وهكذا يردد هذا الهذر، فلما رأى الحراميةَ أقبلوا عليهم جعل يرفع صوته، فقام أولاده وفزعوا عليهم وحموا إبلهم ومحلهم.

قصة أخرى كسابقه

فهناك عائلة في البادية، كان أبوهم شايب وكان يحرسهم بالليل وهم ينامون، واتفق معهم على علم، أنه يهذو كل الليل بكلام هذر فإذا رفع صوته فهو يدعوهم يفزعون، والكلام الذي كان يهذو به هو قوله: (عَطُوني تمرة، عَطُوني تمره، عطوني تمره)، دائمًا يهذر بهذا، ثم جاء الحرامية ليسرقوا من البيت طعامًا ونحوه، فجعل الشايب يرفع صوته شيئًا، فأخذ أحد الحرامية كسرة من التمر فأعطاه إياها ليسكت عنهم حتى لا يوقظ أهله، فأخذها الشايب، وجعل يُعَنْظِلْها بفمه كأنه جائع ليأكل منها وهي شادة، وبناءً على أن مثله ليس له أسنان: جعل يقول: عَطَوْني تمرة ما لَيَّنَوْها، عطوني تمرة مالينوها،

يردد هذا القول وهو يعنظلها ويرفع صوته بذلك، فرجع عليه الحرامي وأخـذهـا منـه ليسكـت، لكنـه زاد علـى ذلـك فقـال: آه عطـونـي تمـرة مـا لينوها، وعِقِبْ مـا لانت خَذَوْها، يعني أنهـا لانت من لعـاب فمه، إذ هـو يعنظلها، ورفـع صوتـه جـدًا وإذا أهله قـد قـامـوا وفـزعـوا. (انتهى).

* * *

أمانة العلم

العلم في الدِّين أمانة: العلم نقل وليس بعقل.

وإذا أردت أن تعرف أمانة العلم؟ فانظر في صحيح مسلم رحمه الله تعالى سندًا ومتنًا كيف وقوفه على الألفاظ وتقيده بالنقل؟ وكذلك غيره من المسندات، كلهم يقفون على الألفاظ ويتقيدون بالنقل، وكذلك عامة العلماء عمدة العلم عندهم النقل، وهو العلم العتيق الموصىٰ به في قولهم (وعليكم بالعتيق).

قال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله:

العلم للرجل اللبيب زيادة ... ونقيصة للأحمق الطائش
كالصبح يضيء ابصار الورى ... نورًا ويُغْشِي أعين الخفائش

ولقد كان طلبة العلم يعظمون بأنفسهم حمل العلم، ولا يحبون التصدي للفتوى.. وربما تدافعوا الفتوى، فكل واحد يقل: أنا لا علم عندي، إذهب للشيخ فلان، إرجع للشيخ فلان، فهو الذي تؤخذ عنه هذه المسألة، وهكذا، وذلك إعظامًا للأمر، وتحاشيًا من حمل المسؤولية عليها أمام الله سبحانه، رجاء أن يتحملها غيره فيعافا منها، كما نقل ذلك عن بعض الصحابة رضي الله عنه، وغيرهم من سائر علماء

السلف رحمهم الله، وكانوا يكثرون تمجيد الرب سبحانه في أول خطبتي الجمعة، ويكثرون الثناء عليه بما هو أهله، كما ورد ذلك في الأحاديث: (قال كانت خُطبة النبـي ﷺ، يمجد الله ويثني عليه بما هو أهله): رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه، وقال الإمام أحمد لم يزل الناس يخطُبون بالثناء على الله، والصلاة على النبـي ﷺ، وكما تراه في خُطَب المخضوبـي، حيث كان من أهل السنة والجماعة رحمه الله، لأن تمجيد الرب سبحانه هو لب اللّباب، وهو المقصود بالخلق، فمحبته والتـذلـل والخضـوع لـه، قـال تعـالـى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[1]، ويكثرون ذكره، واستغفاره، ودعائه لأمور الدنيا والآخرة في سائر الأوقات، (فأثمر ذلك فيهم بركة العلم)، فظهر عليهم الخشوع، وغلب عليهم الورع والقناعة، وكفوا عن فضول الدنيا والمَحْمَدَة، واتصفوا بقول الله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾[2] فغالبهم ظاهره تقي نقي. . ولا نزكي على الله أحدًا هو أعلم بمن اتقى.

وكانوا يحرصون على حفظ القرآن أو بعضه عن ظهر قلب، يريدون بذلك وجه الله والدار الآخرة، ويداومون على درسه، لأن الدرس غرس، ويعظمون من يحفظه، ويرون حفظه وتفهمه والعمل به من أفضل العلم والعمل، وما يعين من العلم على فهمه، فيقال: كان فلان عالمًا عاملاً، ويقال: حاملَ القرآن، حتى وُجِدَ هنا من هو يقرأ القرآن وهو في نزع الموت، نسأل الله حسن الخاتمة.

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧٤.

وكانوا يقرأون في الصلوات المكتوبة من سور المفصل، غالبًا، كما هو أكثر المنقول عن الرسول ﷺ، أنه قرأ بكذا وقرأ بكذا من سور المفصل، فيه أحاديث في البخاري وغيره.

(والمفصل أوله سورة قاف وآخره سورة الناس، فيقرأون في الفجر من طواله، والمغرب من قصاره غالبًا، وسائرها من سائره[1]، ويقرأون سائر القرآن في صلاة التهجد بالليل، سوى تلاوته سائر الوقت.

وكان التهجد بالليل سهلاً عليهم لأمرين:

أولاً: خفة الطعام في البطن، فيخف النوم على القلب.

ثانيًا: النوم مبكرًا، فينامون بعد العشاء الآخرة مباشرة، كما هي سنة الرسول ﷺ قولاً وفعلاً[2]، فيستيقظ نشيطًا ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[3]، ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾[4] الآية، فَيَتَعَرَّفون إلى الله في الرخاء ليعرفهم ويستجيب لهم في الشدة والرخاء، وهذا حتى لسائر العامة كذلك، فالذي لا يقوم يتهجد ويتضرع إلى الله

(١) طوال المفصل هو من سورة (قاف) إلى سورة (عمَّ) وأوساطه من عمَّ إلى سورة (الضحى) وقصاره من سورة الضحى إلى سورة (الناس)، آخره.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها: متفق عليه.

(٣) سورة السجدة: الآية ١٦.

(٤) سورة الزمر: الآية ٩.

سبحانه قبل الفجر، لا يعدونه من العلماء العاملين، لقول الرسول ﷺ في ابن عمر رضي الله عنهما وهو يومئذٍ شاب: «نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل»، فكان ابن عمر بعد ذلك لا ينام من الليل إلاَّ قليلاً (الحديث)[1] وأَمْرُ الرسول ﷺ للصحابة أمْرٌ لعموم الأمة: فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وَذُكِرَ للنبي ﷺ رجل نام حتى أصبح فقال: ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه[2]، فثمرة العلم العمل: إذ أن العلم مقصود لغيره وهو العمل، فالعلم بدون عمل حجة على صاحبه، كما قيل:

فمن لم يزده العلم تقوى لربه لم يؤته إلاَّ لأجل شقائه

وقد يكتفون بتلاوة آية أو آيات من القرآن في الوعظ والتذكير لقوله تعالى: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[3] وقوله: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ . . . ﴾[4] فمن بلغه هذا القرآن أو الخبر عن الرسول ﷺ: فقد قامت عليه الحجة، أو يكتفون بذكر حديث لقوله ﷺ: «ليبلغ الشاهدُ الغائب» وقوله: «بلغوا عني ولو آية»[5]، ويرون أن هذا أفود للعامة من كثرت الكلام الذي يضيع فيه قول الله تعالى أو قول الرسول ﷺ أو أقوال الصحابة رضي الله عنهم.

(١) الحديث رواه: البخاري.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٩.
(٤) سورة النمل: الآية ٩٢.
(٥) رواه مسلم.

وكانوا لا يستحبون للعامة القراءة إلاَّ في كتب معروفة لأهل السنة والجماعة . . من ذلك: (رياض الصالحين) في الأدب الشرعي للنووي، و (تفسير القرآن) لابن كثير والبغوي، و (كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأحفاده) في التوحيد وآداب المشي إلى الصلاة و (كتب شيخ الإسلام وابن القيم) عامة. وكتاب (بلوغ المرام. . . والمنتقى) في الأحاديث للأحكام، وكتاب (الزاد وشرحه في الفقه)، وكتاب (أحاديث الترغيب والترهيب) للمنذري، وكتاب (الكبائر في الوعظ للذهبي رحمهم الله، ونحو هذه الكتب المعروف أهلها الموثوق بعقيدتهم، لأن هذا العلم دِينٌ، ومداره الصحيح على عقيدة أهل السنة والجماعة وما خالفها فهو ضلال، نسأل الله السلامة والتوفيق.

هنا . . أهل قرية طلبوا من إمامهم (المطوع) أن يقرأ عليهم كل يومٍ درسًا من العلم في المسجد قبل صلاة العشاء الآخرة، ودرسًا قصيرًا من الحديث بعد صلاة العصر مباشرة، وكانت عادة معروفة ذاك الوقت، وحتى الآن عند بعضهم، ولكن المطوع يعرف أن شيخ البلد لا يسمح لكل أحد أن يتكلم بالعلم إلاَّ من عُرِفَ أنه أهل لذلك، لذا قال المطوع: إني لا أقرأ عليكم إلاَّ أن تأتوا لي بإذن من الشيخ، فأتى الجماعة إلى الشيخ وطلبوا منه إذنًا للمطوع بذلك، فكتب الشيخ معهم.

بسم الله الرحمن الرحيم. . من عمر ابن سليم إلى الأخ. . . . . . فلان. . . . . . .

أما بعد: فأنت إن شاء الله تحتسب وتقرأ تفيد الجماعة من الكتب ولا تكلم على الحديث: بارك الله فيك والسلام عليكم.

أخبرني بذلك رجل ثقة من أهل تلك البلدة قد شهد الموضوع، فهذا صيانة للعلم أن يُدخَلَ فيه ما ليس منه بغير علم.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في النونية:

الجهـــل داء قــاتـــل وشفــاؤه ... أمــران فــي التــرتيــب متفقــان
نـص مــن الكتـاب أو مــن سنــة ... وطبيــب ذاك العــالــم الــربــانــي
والعلــم أقســام ثــلاث مــالهــا ... مــن رابــع والحــق ذو تبيــان
علــم بــأوصــاف الإلٰــه وفعلــه ... وكــذلــك الأسمــاء للــرحمٰـــن
والأمــر والنهــي الــذي هــو دينــه ... وجــزائــه يــوم المعــاد الثــانــي
والكـل فـي القـرآن والسنـن اللتـي ... جـائـت عـن المبعـوث بـالقـرآن

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

* * *

ابن قَنُّور

تقع عين ابن قنور في بلاد السر، وسط نجد، وهي مزرعة نخيل طيبة، وصاحبها ابن قنور رجل كريم مشهور بالفضل والكرم، كان يلقب (مُزَهِّبْ الطَّراقِي) حتى الحرامية يأوون إليه قِبَالَة الليل يقريهم، فكانوا يعرفون له فضله لذلك، فلا يأخذون من ماله شيئًا، بل إذا وجدوا وَسِيْمَتَه «وهو البعير الذي عليه وسمه» فإنهم يأتون به إليه ولو من بعيد، شكرًا له على صنيعه بهم.

جاءت قافلة من أهل القصيم: من الرياض على طريق السر، فتقدم رجل منهم على رجليه، وهتش على ابن قنور في محله (عين ابن قنور) مساءً، فاجتمع عدد من الحنشل (الحرامية) أضيافًا عنده في المجلس، فاستغربوا الرجل الحضري، وظنوا أن له أخويًا معهم قافلة؛ (فَهُمْ بُغْيَة الحرامية) يأخذونهم إن استطاعوا: فجعلوا يسئلون الرجل: من أين أتيت؟ وهو لم يعلم أنهم حرامية، فجعل يخبرهم بالحقيقة، قال: من الرياض، قالوا أين أخوياك؟ فقال: هم ورائي يمشون في الطريق، قالوا متى يصلون هنا؟ (فغمزه ابن قنور) ينبهه أنهم حرامية، حتى لا يخبرهم بأصحابه، فانتبه هو وفطن، وكان ذكيًا، فاستأنف أمره، فحين قالوا متى يأتون أخوياك؟ قال (في بقايا الشهر خمس

وأربعين يومًا). ليظنوه مهبولاً فلا يعولون على خبره، فقالوا إذًا كم شهركم من يوم؟ فأشار لهم المعزب (ابن قنور بيده) إشارةً معروفة تدل على أن الرجل مهبول لا يعول على كلامه، قال: (ترى ما عندكم أحد)، ويشير بيده، فصدقوه وتركوهم فسلمت منهم القافلة. (انتهى).

* * *

شؤم العجلة

قدم رجلان من سفر طويل، فلما قربا من بلدهما وإذا هما قد غشاهما الليل، فقال أحدهما لصاحبه، إن هَجَادَ الأهل بالليل بعد السفر الطويل لا يجوز، فدعنا نرقد هنا حتى الصباح ثم ندخل إلى أهلنا؟، كما في المثل: (مُصَبِّحْ مثل مُمَسِّي) فقال الصاحب: لا يمكن أن أنام هنا وزوجتي قريب ولا أذهب إليها، سوف لا أرقد إلاَّ بحضنها.

فذهب، فلما دخل البلد أثناء الليل، وإذا رجال الحكومة يتطلبون الحرامي الذي قد سرق الخزنة، فوجدوا هذا الرجل فظنوه هو، فأخبرهم بقدومه من سفره فلم يصدقوه، بل أودعوه السجن، وفي الصباح أخرجوه إلى السوق موثقًا ليشهد الناس جريمته.

أما صاحبه فإنه لما أصبح دخل إلى أهله، وسلم عليهم وقضى شأنه، ثم خرج إلى السوق يسلم على الجماعة والمعارف، ثم رأى الناس يضولون لأمر مفزع، فجاء ينظر ماذا؟ وإذا صاحبه موثقًا بيد الشُّرَطْ، فعرف أنهم اتهموه بسبب دخوله ليلاً، فألقى إليه كلمة يذكره الكلام الذي جرى بينهما فقال:

إن الأمـور التـي تخشـى عـواقبهـا   خيـــرٌ منهـــا تـــرك مـــا فيهـــا

فالتفت إليه صاحبه الموثق بيد الشرطة : وضحك وقال :

إن الأمور التي باللوح قد كتبت لا بـد أن تـأتيـك أو أنـت تـأتيهـا

فانتبه الشرطة ومسكوا الرجل الثاني، وقالوا له أنت صاحب هذا الحرامي؟، فقال نعم أنا صاحبه وليس هو حرامي، فإنا قد قدمنا من سفر، وهذا الحوار الذي حصل بيننا عند طروق الأهل ليلاً. فصدقوه وأطلقوا معه صاحبه فذهب معه يمشي لأهله. (انتهى).

* * *

مكانة الزوج من زوجته

كانت عائلة كبيرة أغنياء، قد زوجوا ابنتهم رجلاً من عائلة كريمة لم يعلموا أنه فقير، فلما علموا أنه فقير أخذوها منه، فانفجعت هي عليه، وقالت شعرًا تعبر عما في ضميرها من الوجد الطيب:

يامل عين حاربت سوجت الميل[1]	على عشير بالحَشَاشَبْ ضَوِّه
عليك ياللي طبخته نصفها هيل	ياللي سعى بالطيب من غير قوه
المال ما طيّب اعفون الرجاجيل	والقل ما يقصر براع المروه
يا عنك ما حس الرفاقه[2] ولا قيل	ذا مغثي ما ينزل حول جوه
وله عادة ينطح وجيه المقابيل[3]	هاذي فعوله بالمراجل تفوه
أجواد نسل جيل وراجيل	أهل طيب من قديم وتوه

فلما سمع أبوها هذا الكلام اعتذر منها فأكرمها وأرسلها إليه.

وقال المهادي:

الأجواد إيلا قاربتهم ما تملهم	والأنذال إيلا قاربتهم عفت ما بها

(١) تعني أنها حاربت النوم.

(٢) أي لم يفعل معهم ما يشكل عليهم.

(٣) تعني أنه يلاقي المحاربين يقاتلهم ولا يخاف.

وقال غيره :

أبـــت المــروءة أن تفــارق أهلهــا وأبـــى اللئيــم أن يكــون كــريمًــا

وقـيـل :

إذا أنــت أكـرمـت الكـريـم ملكتـه وإن أنـت أكـرمـت اللئيـم تمـردا

فالكريم يعترف لك بالمعروف كأنك قد ملكته . (انتهى) .

* * *

شاعر الأمراء:
الإمام تركي بن عبد الله آل سعود

هو الذي استرد حكم آل سعود: (الدور الثاني)، بعد تخريب الدرعية بيد الطاغية: إبراهيم باشا: وترحيل عوائل آل سعود: إلى مصر، فكتب تركي هذه القصيدة بعدما استقام له الحكم، وأرسلها إلى مشاري في مصر. قال:

طار الكرى عن موق عيني وفرّا ... وفزيت من نومي طرا لي طواري
وأبديت من جاش الحشى ما تدرا ... وأسهرت من حولي بكثر الهذاري
خط لفاني زاد قلبي بحرا ... من شاكي ضيم النيا والعزاري
سر يا قلم واكتب على ماتورا ... أزكى سلام لابن عمى مشاري
شيخ على درب الشجاعة مضرا ... من لابة يوم الملاقا ضواري
ياما سهرنا حاكم ما يطرا ... واليوم دنيا ضاع فيها افتكاري
أشكى لمن يبكي له الجود طرا ... ضراب هامات العدا ما يداري
يا حيف ياخطو الشجاع المضرا ... في مصر مملوك لحمر العتاري
من الزاد غاد له سنام وسرا ... من الذل شبعان ومن العز عاري
وِشْ عاد لو تلبس حرير يجرا ... وامتوج تاج الذهب بالدَّراري
دنياك يا ابن العم هذي مغرا ... ولا خير في دنيا حلاها مراري
تسقيك حلوًا ثم تسقيك مرا ... ولذاتها بين البرايا عواري

اكفـخ بجنحـان السعـد لا تـدرا … فـالعمـر مـا يـاقـاه كثـر المـداري
مـا فـي يـد المخلـوق نفـع وضـرا … ما قدر الباري على العبد جاري
واسلـم وسلـم لـي علـى مـن تـورا … واذكر لهم حالي وما كان جاري
إن سـايلـو عنـي فحـالـي تسـرا … قبقب اشراع العز لو كنت داري
يـوم إن كــل مــن عميلـه تبـرا … حطيت الأجرب لي عميل امباري[1]
نعم الصديق إيلا صطا ثم جرا … يـودع منـاعيـر النشـامـا حبـاري
رميـت عنـي بـرقـع الـذل بـرا … ولا خير فيمن لا يدوس المحاري
ونــزلتهـا غصــب بخيـر وشـرا … وجمعـت شمـل بـالقـرايا وِقـاري
وحصنت نجد عقب ما هي تطرا … مصيـونـة عـن حـر لفـح الـذواري
والشـرع فيهـا قـد مشـى واستقـرا … ويَقْرأ بنا درسَ الضحى كل قاري
زال الهـوى والغـى عنهـا وفـرا … ويقضي بها القاضي بليا مصاري
ولا سألت عمن قال لي لا تزرا … نجـد غـدت بـاب بليـا سـواري
ومَا سألت عمن قال لي ما تدرا … حطيت الاجرب لي صديق مباري
ومـن أَمَّـنَ الجـانـي كفـا مـا تحـرا … وتـازى حـريمـه بـالقـرايـا وقـاري
وأجهدت في طَلْبَ العلى لين قرا … وطاب الكرى مع لابسان الخزاري
ومن غاص غبات البحر جاب درا … ويحمد مصابيح السُّرى كل ساري
وأنا أحمد اللي جاب لي ما اتحرا … وأذهب أغبار الذل عني وطاري
والعمــر مــا يــزداد مثقــال ذرا … عمر الفتى والرزق في كف باري
وصـلاة ربـي عَـد مـا خـط قُـرّا … على النبي ما طاف بالبيت عاري

* * *

(١) الأجرب هنا سيفه.

الحمية في القرابات... قيل:

يـــا وَنّتِـــي وَنَّـــتْ الجـــالـــي ألّلـــي جلـــىٰ عـــن بنـــي عمـــه
مـــن أوّلِ عنـــدهـــم غـــالـــي واليـــوم مطلـــوبهـــم دمـــه

ومثل هذا له قصة، وذلك أنهم بنو عم وقتل منهم قتيل، فطلبوه ليقتلوه فهرب عنهم ومعه زوجته، فالتجأ إلى إحدى القرى واختفى هو وزوجته في غابة شجر (أثل) في ناحة القرية، وأصلح لها كوخًا أسكنها فيه، ويذهب يعمل يتطلب لقمة العيش، ولكن بنو عمه ما زالوا يتطلبونه ويبحثون عنه، حتى عرفوا محله، فأتوا واختبأوا حول كوخه ينتظرون مجيئه ليقتلوه، وإذا رجل من أهل القرية، جاء إلى المرأة في كوخها ليغصبها نفسها، فصاحت وقالت: (يا ويلها من قلة رجالها)، فلما سمعوا قولها، ثارت حميتهم وغيرتهم لكونها زوجة ابن عمهم، فقاموا إليها وقتلوا الرجل المعتدي، وخلصوها منه، ثم أعلموها بأمرهم، وقالوا لها قولي لفلان زوجكِ إننا قد عفونا عنه فليرجع إلى أهله وهو آمن. ثم ذهبوا إلى أهل القرية، وأعلموهم بأنهم هم الذين قتلوا المعتدي بسبب اعتدائه، حتى لا يطلبوا الرجل بدمه. (انتهى) (من كتاب: أحاديث السمر).

وهناك امرأة مات زوجها أو قتل في حرب، فحزنت عليه جدًّا وجعلت تتوجد عليه وتقول:

يـا تَـلْ قلبـي علـى لا مـاه تَلَّـةْ مجـاذيـب ابـن لامـي
يـا قلـب هَـوِّدْ نَبِـيْ ننسـاه مـا طـالـب للنفـس مـا دام

ابن لامي: أحد شيوخ القبائل، والمجاذيب هي: الحبال والدِّلِيْ وما يتبعها مثل الْمَحَالهْ (البكرة) والناعور هو: المقام، العدة التي يجذبون بها الماء من البئر، يسقون الإبل والغنم وسائر المواشي، بِقُوَّةٍ ونشاط، لأن من لازم هذا العمل شَدُّ العزم، حتى ربما حضرت بعض النساء حولهم تنخاهم وتشجعهم فيقوي عزمهم، حدثني بذلك بعضهم هو نفسه، ويرتجزون على ذلك، مثل قولهم:

ألمـا غـدا نهـايـب بيـن الصبـي والشـايـب

والصبـي هنا هو الشاب القوي الشجيع. (انتهى).

* * *

مفاتيح الخير والشر

جاء في حديث «إن هذا الخير خزائن ولتلك الخزائن مفاتيح فطوبى لعبد جعله الله مفتاحًا للخير مِغْلاقًا للشر وويل لعبد جعله الله مغلاقًا للخير مفتاحًا للشر» رواه ابن ماجه، رحمه الله.

فبعض الناس مَيْمُون وقرين مبارك، يجعل الله فيه خيرًا لغيره وَنَفْسُهُ سخيَّةٌ بالمنفعة للغير ويفرح هو بذلك، كما قال الشاعر:

لا يحمل الحقد من تعلوبه الرُّتَبُ ... ولا ينال العُلىٰ من طبعه الغضب

كما أن بعض الناس مشئوم، فقد يحصل على غيره شر أو ضرر بسببه، وإن لم يُرِد هو ذلك، وقد يريده لغيره، ولا يتألم لضرر غيره، ولكن الأحسن لك الابتعاد عن مثل هذا.

وهناك رجل من أهل الخير، وله أخبار وأقوال طرايف، فمن أقواله حين تَوَلَّى على البلاد بعض الأمراء الظلمة قال:

أنـــا بِنْقِيـــرِةٍ بـــالغميـــس ... غـــايبـــة عَنَّـــا الأبـــاليـــس
مـــا دريـــتُ أن الـــديـــن ... غَـــــادِ دردبيـــــــس
يـــأخـــذ مـــن الـــزعَّـــاب ... ويعطـــــي اللعـــــاب
الله يعـــد لـــه وإلا يبـــد لـــه

والزعاب هو: الفلاح الفقير الذي لا يجد من النواضح بعيرًا ولا حمارًا يسقي عليه نخله ومزرعته، فهو اضطر أن يزعب أي: يخرج الماء

من البئر على ظهره فيتعب جسمه ولا يحصل على ماء يكفي الحاجة، ومع ذلك فهذا الأمير الظالم يفرض على عامة الناس ضرايب (فلوسًا يأخذها منهم)، حتى مثل هذا الفلاح الفقير. فهذا المطوع يدعو الله أن يهدي هذا الأمير ويعد له، أو يبدله بأعدل منه.

ومرة جاءته امرأة بزوجها، وقد غضبت وتريده يطلقها، وقد استشاطت غضبًا فأراد المطوع إصلاحهما فعذل بها واستهدأها فلم ينجع بها، فأحضر ورقة وكتب فيها: بسم الله الرحمٰن الرحيم.

جــانــي صــايــل وعِشْبــه　　يــا مــن يخلصهــم مــن النشبــه

خِيْطِــــي بِيْطِــــي　　وأعلـــوم خـــرابيطـــي

الحكــم بيــد الله مــا هــو بيــدي

ثم طوى الورقة وأعطاها إياها، فلما وصلت البيت ندمت ورجعت للمطوع وقالت: أنت حِسْتَنَا، أنا أبغيك تصلحنا، وأنت على طول كتبت الطلاق، واستعجلت، وأنت وأنت، ولكن صلحنا، فقال المطوع: أنا ما ذخرت، أشرت عليكِ بالصلح وعذلت بكِ حتى عجزت، قالت: شف لنا حل صلحنا، فقال إذا أنت تبغين تتوبين ولا تؤذين زوجكِ وتذبحين لنا تيس، فأنا أروح للشيخ أسأله لعله يسمح بالمراجعة هذه المرة، فقالت: يالله التوبة هالنوبة والله ما أعود، فغاب عنها ثم رجع إليها وقال: هاتي الورقة قد صلحناكم، يقول الشيخ: اسمح لها هذه المرة. فذبحت لهم تيسًا عندها. (انتهى) وله أخبار كثيرة غير هذا.

* * *

فإن مع العسر يسرًا

كان رجل شاب فلاح في أحد البلدان، وكانت عنده أمه وأخته، وكان يستدين من رجل تاجر شحيح بخيل، فكثر عليه الدين وعجز عن قضائه، فقال له التاجر أعطني حقي أو زوجني أختك، لأجل أصبر عليك بالدين. فالفلاح استشار أمه وأخته؟ فقالت أخته: هذا رجل شحيح، وإني أخاف أن يضطرك إلى ضِيق، قالت: فأنا أَصْبَرْ عليه منك، أصبِر حتى يفرجها الله لنا. فذهب إليه وقال: توكلنا على الله نريد نزوجك، فعقد له على البنت، وقال له: نريد نخدمك، حنا نجيبها لك، بعد صلاة العشاء الآخر، تجيء هي وأمها، ولكن خل الباب مفتوح، لأجل يدخلن بدون طق الباب. فلما صار بعد العشاء، مشت الأم وبنتها، وكانت الأم تعرف بابه ولكن الله أراد غيره: فتاهت إلى باب آخر، فوجدته يشبه بابه مفتوح فدخلن، وإذا السراج والرجل جالس في مجلسه، فقالت: السلام عليكم، ففزع الرجل وقال: بسم الله، وشْ أنْتُمْ؟ فقالت الأم: ما هو هذا بيت فلان؟ فقال: لا، وماذا تردن بفلان؟ فأخبرته الخبر، فقال الرجل: أنتم وفيتم له بالوعد، ولكن الله لم يرد إتمامه الآن، فأنتم ارجعوا إلى أهلكم، وإذا كان الصباح خلوا الرجل يأتي إليَّ أعطيه ماله كله وأخلصكم منه، وبعد ذلك إن رغبتم تزوجونني البنت أنا فالدين يسقط عنكم وإذا ما رغبتم تزوجونني فالدين سلف

عليكم حتى ييسره الله. فقالت: أنت الوجه المبارك، الله يفرج عنك كل كربة. فرجعنا وفي الصباح ذهبوا لديانهم، وأحضروه عند الرجل، وأعطاه حلاله كله ــ أي حقه ــ وفسخ عقد البنت، وزوجوها هذا الرجل المبارك، فعاشت معه بخير.

هنا مسألة فقهية

معروف أن المرأة المطلقة قبل الدخول عليها، لا تحتاج عدة للزوج الثاني، فحين تُفسخ تُزوج، أما إذا دخل عليها، وخلىٰ بها خلوة نكاح، فإنها لا بد من العدة بعد الطلاق، وإن لم يمسها بشيء.

قيل:

يُفنى البخيل بجمع المال مهجته ... وللحوادث والأيام ما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهدمها ... وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

القز هو: الحرير الأصلي، ودود القز: ذبة (فراشة) تطوي سلك الحرير من بطنها على نفسها حتى تهلك، فيأخذون ما قتلت به نفسها وينتفعون به.

وقال آخر:

إن الكريم ليخفي عنك عسرته ... حتى تراه غنيًا وهو مجهود
وللبخيل على علاته علل ... زرق العيون عليها أوجه سود

وقال آخر:

إذا حل الثقيل بدار قوم ... فلا لأهل الدار إلاّ الرحيل

(انتهى).

* * *

سعة البال في الماضي

كان رجل من رجال رحيل، له إبل يكاري عليها، يحمل عليها الأموال والأرزاق من البلدان (البنادر)، إلى بلدان نجد، بالأجرة، أو هو يشتري بضائع ويأتي بها كغيره، وكانوا يتكونون مجموعة قوافل، يتساعدون على تعوس السفر، وذات يوم لما أصبحوا في منزلهم أثناء الطريق جعل أهل القوافل يحملون أحمالهم على الإبل ليسيروا كالعادة، لكن هذا الرجل لم يتأهب للارتحال، بسبب سعة باله، فقال له صاحبه: خويانا شالوا، يعني ارتحلوا، فقال شالوا؟ قال: نعم قال (حط بالبِرَيِّق أميه). البريق: تصغير إبريق، والأميه تقليل ماء، المعنى أنهم سوف يعملون قهوة، ثم يتقهوون ثم يحملون ويتبعون ربعهم، فلا يشكل عليه ولو تأخروا لذلك، فصار يضرب به المثل (حط بالبريق أميه) لسعة الصدر.

وآخـر كسـابـقـه

كذلك رجل آخر صاحب قافلة، وكان صاحبَ صلاةِ آخر الليل، حتى لو كانوا يسيرون في الطريق حالة السُّرى، فإنه لا بد أن يعقل ناقته عنده ويشرع يصلي، وأخوياه سائرون في طريقهم، فإذا أنهى صلاته ركب ناقته ولحقهم مهما ساروا، ولكنه لا بد أن ينام القائلة قبل الظهر، حتى ولو كانوا يسيرون أثناء الطريق، فإنه ينيخ ناقته ويعقل يديها وينام

ثم يقوم فيركبها ويلحقهم، (والظاهر أنه لم يعلم: أن المشروع أن يصلي النافلة على ظهر الدابة وهو سائر، أينما توجهت.

وذات يوم: كانوا مقيمين في منزل أثناء الطريق، فسرح خويه الراعي بالابل ليرعاها، وبقي هو هنا في الثَّايَةِ، يَتَفَقَّدَ البتات ويصلحه، فهذا حبل يرفاه، وذي حِدَاجَة يصلحها ويربطها، وهذه مزودة (علاقة) يخيطها، وهذا ثوب يرقعه، وهكذا، وحين صار وقت الضحى، وإذا صاحبه الراعي يأتي على ناقةٍ مسرعًا، فقال: يا عم إن الناقة الفلانية قد ضاعت، (افختت الإبل لم أعلم بها، والآن أخشى أن تضيع الإبل لو ذهبت أتطلبها، ولكن لعلك تجيء معي تبقى عند الإبل وأنا أذهب أتطلبها؟

فالتفت الرجل إلى الشمس، وإذا هو قد ارتفع الضحى وجاءت نومته القيلولة، فقال (يا الله إن الشكوى لك، الناقة ضاعت والنَّوْمَةُ جَتْ، وِشْ السْوَاة؟ يا الله إن تَعْقِلْها)، ثم قال للراعي: رُحْ لإبلك والناقة على الله. وجعل يدعو الله سبحانه، فذهب الراعي ونام هو، حفاظًا على قيامه الليل، لأنه إذا ما نام القيلولةَ ربما عجز عن القيام، ولكنه آثر قيامه ولو ضاعت الناقة، فلطف الله به ورحمه وقبل دعائه، فلما هضل الراعي قِبالَةَ الليل وإذا الناقة معه قد عقلها الله سبحانه، أي ردها وأتى بها إليه، فسبحان مودع كنوز الغرائز في قلوب عباده (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ). (انتهى).

* * *

صبر المروءة

هنا امرأة، غاب زوجها في الغربية زمن العقيلات مدة طويلة، نحو خمسة عشر سنة، وحين طال غيابه اقترحت هي هذه القصيدة، وأرسلتها مع ابنها برفقة العقيلاة: وهو جذع، يقال إنها كانت حاملاً به حين سافر أبوه، قالت:

يا راكب اللي عليها النَّطْع وَبْدُود ... وقـريبـة لـه مـن غـديـر زلال
ثم ارجفها يا وافي الخال وجدود ... ولا تـردهـا دون كبـد الشمـال
وايلا وصلتوا واهتنيتوا بالاقعود ... انقـل جـوابـي لـه بـاول وتـال
قل هو خابر شيء جرى لنا بالاودود ... يـوم المـودة بيننـا بـالأقبـال
يما سهرنا وجملة الناس بارقود ... يـا رب لا تجعلـه حـب انعـزال
لا حـب والـد لحـب مـولـود ... ولا حـب عَلْيـا بـزمـان الهـلالـي
حي الذي ما داس بالعمر منقود ... ولا خنـع بخـاينـات الليـالـي[1]

---

(١) تعني نفسها بأنها حصينة شريفة عزيزة صابرة طول هذه المدة: لأن المنقود هو العيب المنتقد لدى الناس الأشراف سواء في العرض أو الجاه. وهذه القصيدة عنوان على شرف قائلتها وحصانتها وصبرها لظروف زوجها وإجهادها نفسها في طلب كفاف المعيشة عن تسول الناس: والناس لا يدرون ما حالها. وهذه حال كثير من النساء ذاك الوقت لأنهم في وقت فقر وحاجة بسبب الحروب والنهب والسلب: وكثير =

إلا علـى عــز ومعــزة ومجهــود　　والناس ما يدرون أنا ويش حالي
وإن كان مالك بـي نظر يا فتي الجود　　أبيـك أبجـاه الله تـرسـل حبـالـي

ولما وصلته هذه القصيدة بكى ورد لها جوابًا فقال:

جانا الجواب وحط بالضماير الهود　　والعيـن هلـت مثـل وبـل الخيـال
يا مترف الذرعان ما حشت أنا فود　　وايلا ذكرت الدَّيْن شَيَّب بحالي
من غيبتي يا العذب أنا عنك مردود　　جلـون عنـك مجمعيـن الحـلال
يا راكب اللي كنَّها الطبي مطرود　　عمليـة مـن سـايجـات الحبـال
تلفـي علـى اللـي للـوازيـم مـارود　　اخـوي اللـي مـن قـروم العيـال
عساك دايم نايل الجود ماجود　　أنا يا خوك أبغيك تنظر بحالي

(انتهى).

* * *

= منهم لا يجد له عملاً يكتسب فيه لأسباب المعيشة فيضطرون للسفر لبلدان الأمصار والعراق والخليج وغيره: وبعضهم لا يتيح الله له رزقًا فيبقى هناك عدة سنين يعوزه قوت نفسه، فربما تبقى زوجته وأولاده في نجد لا مقيت لهم، فلا تسأل عما تكون حالهم وحاجتهم. فهذه المرأة تخبر عن حالها في مثل ذاك، مع حفاظها على الشرف والدين.

قولها (يا وافي الخال واجدود)، الوافي عندهم هو المحافظ على خصال الرجولة والمروءة ومكارم الأخلاق من الرجال والنساء، وكانت لهم خصال طيبة يحافظون عليها قد تقطع دونها الرقاب، فأشرفهم أحفظهم لها. وليس معول الشرف على أن يكون الإنسان نسبه من قبيلة معروفة ولو مع فقد الخصال الطيبة كما يظنه بعضهم: فكم من شريف لا يرتبط نسبه بقبيلة: له شرف لا يبارى فيه، والله الموفق.

عسى الدنيا ماله والي

كان رجل بخيل وعنده دراهم، وليس عليه ثياب تقيه البرد، فإذا كان الليل وأحس بالبرد الشديد قام وأخذ ريالاً وصره في ردنه وقال: عسى الدنيا مالَهْ وَالِيْ، الصبح أشترى لي ثوب، ثم بات ليله يرتعد فإذا أصبح خرج بعد طلوع الشمس وقعد بالمشراق (عادة الناس ذاك الوقت) فإذا انتشرت الشمس ودفيء قام وقال:

لا إلـــه إلا الله دْفِينـــا وعْفِينـــا رد المحبـــوب بمكـــانـــه

ثم رجَّع الريال مع صواحبه، فإذا كان بالليل واشتد عليه البرد، أخرج الريال وصره في ردنه وقال: عسى الدنيا مالَهْ وَالِيْ الصبح أشتري لي ثوب، فإذا أصبح انسحب إلى المشراق وقعد في الشمس، فإذا دفيء؛ قام وقال:

لا إلـــه إلا الله دفينـــا وعفينـــا رد المحبـــوب بمكـــانـــه

فما زال هذا دأبه حتى جمد ومات ذات ليلة ورياله مصرور في ردنه. وَرِدْنُهُ هو: (طرف شماغه) أو ردن الثوب، وكانوا يلبسون أثوابًا لها أكمام طوال تسما (أردون). (انتهى).

* * *

مصيبة فاجعة

تزوج رجل بنتًا طيبة، ولكن أمها كانت امرأة سليطة، فاشترطت عليه أن يبقيها عندها، وبعد مدة سئم الرجل من خلو بيته من الزوجة فأصبح لأَيِّم ولا ذو زوجـة، وكذلك البنت تضررت لانفرادها عن زوجها أكثر الوقت، فاتفق هو والبنت على مهادنة الأم، بأن تسمح للبنت تذهب معه للمعزاب وقت الربيع، ولعل الأمر يمتد فيما بعد، فسمحت بها لوقت محدد، فذهبت معه ومضت المدة، والبنت مع زوجها في انعم عيش وأقر عين، والرجل كذلك، وطمعا أن تدوم لهما هذه الحالة والهناء، خصوصًا إذا علمت الأم أن ابنتها مبسوطـة، ولكن يا للمصيبة لم يفجئهما في صباح ذات يوم إلاَّ وقد قدمت عليهما الأم، عـلى جـمـل أناخته عندهما، وقد استشاطت غضبًا وأقسمت يمينها، أنها لا تطعم شيئًا حتى تركب البنت معها وترجع بها، فتركها الرجل تذهب بها، وعزفت نفسه عنها من أجل صنيع أمها، فأتحفها قصيدة بطلاقها قال:

عسى القعود اللي عنابِكِ وجابكِ   عسـاه مـن كثـر اللـوازم يعيـب
يا بنت ما شفت انا سرع نقلابك   مثـل الطيـر بـالمهـب الصليـب
يا بنت خوذي مني تالي حسابك   ايـلا صـار هـذا فعلكـم بـالنسيـب

فأصبحت البنت ضحية لحماقة أمها، حيث فرقت بينهما فراق الطلاق بعد هذا النعيم والأنس، قيل:

لكـــل داء دواء يستطـــب بـــه الا الحمـاقـة أعيـت مـن يـداويهـا

والنسيب هنا هو الصهر، وشعر هذا الرجل: رديء في معناه، غير مطابق للمقصود، لأنه جعل دعائه عليها باسم جملها القعود، وهي المجرمة، فلو سلط الدعاء عليها فيمكن أن يستجاب فيها، فيكون أظهر في المقصود وأصح في المطابقة. (انتهى).

* * *

قد يُغلب الإنسان على عقله: في ماله

قيل ــ هناك جماعة من البادية، وكان فيهم رجل محروم في ماله؛ له رعية من الإبل، قد أتعب نفسه في إصلاحها ورعيها وحفظها وخدمتها، ولكنه لا ينتفع منها بشيء، فليس له بيت ولا زوجة ولا أولاد، وحالته سيئة، ثوبه ممزق وشعر رأسه ثائر (شوشة) وعيونه فاقعة من شدة حرصه على الدنيا، فالحمد لله على العافية، (من عوفي فليحمد الله).

وفي ذات يوم: ركب الأمير وبعض جماعته على الركايب (الإبل) عادة الأمراء بالزينة والسلاح، وتجميل الركايب في إشداد الكور والخِرْج والسفايف، وساروا فلما رآهم هذا المحروم، أوصى على إبله وركب جملاً قعودًا، ثم لحق الركب، فلما التفت أحدهم، قال للأمير لحقنا صاحب مطية، فلما قرب عرفوه، فقالوا: هذا فلان؟ فقال الأمير (لا)؟ قالوا: بلى، فوقفوا فلما وصل قال الأمير، انزلوا ضحوا أصلحوا لنا قهوة وغدًا، فلما تقهووا، قال الأمير للمحروم أين تريد يا فلان؟ قال: خوي لكم، قال: ونحن وين نريد؟ قال: معي علم، تريدون تذهبون للحاكم فلان تبغون خرجية المناخ، قال الأمير: وأنت هل تصلح تروح للأمير وأنت هذي حالك؟ انظر خويانا؟ لباسهم وسلاحهم

ودَشْنُ إبلِهم، وأنت وقايتك على ظهر بعيرك عرفجة، فقال المسكين: أنت حاسدني خرجية الأمير فلان، فقال الأمير: أنت يا رجل، ارجع احفظ بعارينك، وإذا رجعنا إن شاء الله أنا أعطيك من خرجيتي مثل ما يعطي الأمير خوياي، فقال المسكين: سَمِّع الله (يعني أعطني عهد الله على ذلك) فقال الأمير لك الله وأمان الله لأعطيك مثل أخوياي، فركب الرجل جمله ورجع، وفي أثناء طريقه رأى ذئبًا يطرد بنتًا يريد يأكلها فنزل الرجل عن البعير بسرعة ونطح الذئب (لقيه) يطرده عن البنت، فهرب الذئب ولاذة به البنت، فلما رجع من طرد الذئب: تطلب البنت فلم يجدها، وطلب أثرها فلم يجد لها أثرًا، فعرف أنها من الجن، فرجع لبعيره فوجده يرعى، فنام عنده قليلاً، فأتاه آت وهو نائم فناداه (يا فلان) قال نعم، قال هل أنت نائم أو واعي؟ فقال وما تريد؟ قال أريد أجزاك يوم إنك فكيت بنتنا من الذئب: ولا كن تبغيها هي أو تبغي حلالك؟ فقال الرجل: يا خوي حلالي وش به؟ قال حلالك ما هو في يدك: قاضبٌ حلقك عنه ابن عمي، قال يا خوي أبغي حلالي، فقال هو لك، ثم استيقظ فاستوحش من نفسه وحالته، كأنه صحا عقله وزالت عنه غشاوة، فركب جمله وأتى عربه، فاستعار منهم ثوبًا ولبسه، فلما أصبح قرن ناقتين من إبله، وركب جمله وساقهنَّ إلى البلد، وباعهنَّ واشترى له ثيابًا، وأثاث بيت، وطعامًا، وأواني، ودلال وقهوة، وحمَّل جمله وخرج، حتى أتى عربه (جماعته)، فقامت النساء بتصليح بيته ونصبه، ثم إنه ترك رعي إبله وأوصى عليها جيرانه، وصار يعمل قهوة، يجتمع عنده الرجال من أجلها، عادة الناس ذاك الوقت، فلما رجع الأمير من

سفره وأقبلوا على أهلهم ورأوا البيت قال بعضهم: هذا جار نازل عند أهلنا، قال الأمير: الله يحييه، فلما وصلوا أهلهم قالوا ما هذا الجار عندكم يا عرب؟ فقالوا: هذا فلان صاحبكم، اشترى له بيت وشب ناره وعمل قهوة وجعل يثلث النجر لأجل من سمعه جاء، فاجتمعوا عنده وتبادلوا السوالف وحالته تعجبهم، فلما انتهى المجلس: أدخل الأمير يده في جيبه وأخرج سبعة ريالات ومدها له، وقال: خذ يا فلان، قال الرجل وش هذه؟ قال هذه حقك من الخرجية، فالأمير فلان أعطا أخوياي علي سبعة ريالات، وأنا أعطيك من خرجيتي مثلهم، فقال الرجل: لا يا خوي، أنا اليوم مالي فيها حاجة، أنا أغناني الله بمالي والحمد لله، فقال الأمير يا خوي كيف أنت تغيرت حالك عن قبل؟ فأخبرهم خبره، فقال الأمير اختر لك زوجة من بنات الجماعة نزوجك، فأنت اليوم من خيار ربعنا. (انتهى).

* * *

التزامهم بحقوق الخوي

الخوي هو الصاحب في الطريق ونحوه، وجمعها (خويا) وأصحاب: وكانوا يعدون حقوقه عليهم كأنفسهم باللزوم.

سار جماعة على الركايب، أميرهم يقال له ابن رخيِّص، (وهذا الاسم يوجد في سائر القبائل بادية وحاضرة)، وحين توسطوا البرية حول قارة (بالتخفيف) يقال لها قِنَّه (جبل أسود متحد)؛ أغار عليهم قوم حرامية يريدون يأخذون ركائبهم؛ فقاموا بكفاحهم ورميهم بالبنادق، فحموا أنفسهم وذهب القوم، فأسفرت المعركة وإذا أحد خوياهم قد أصيب بسهم كسرت رجله، فجبروها وعصبوها، ولكن أشكل عليهم ماذا يصنعون به؟ لأنهم لا يمكنهم الإقامة عليه في البر حتى يبرأ، ويؤلمه حمله على الناقة ومشيها فيه، فقال أميرهم ابن رخيِّص: بل نربط على جنب الناقة مصاليب (هي أعمدة الخشب) ونربطه عليها ونمشي؟ ولكن صاحبه الخاص: أبى أن يصنع به هكذا، وقال: أنا أجلس عنده هنا حتى يبرأ، ويصل أهله أو يموت فأعذر. وكانت حولهم هنا بئر صغيرة في بطن الوادي فيها ماء (تسمى ثميله) يشربون منها، ويأكلون من صيد البر حولهم كثير، وهي الحبارىٰ (جمعها حبارى) والأرانب وغيرها، فأخذ الرجل ذخيرة كثيرة منهم للبندقية الفتيل وأرخص لهم،

فركبوا الركائب وساروا مسرعين، فأقام الرجل على صاحبه، ويصيد له وإياه من الصيد، ثم جعل يتمثل بقصيدة يصف بها الواقع منها قوله:

يابن رخيّص خل عنك الزواريب[1] أعمارنا يابن رخيص عواري[2]

خوينا ما نصلبه بالمصاليب ولا يشتكي منا دروب العزاري

اَقْفَنْ بالرخصة كما يهرف الذيب[3] اقفن من عندي جداد الأثاري

ياكن صفق أَذْيالِهنْ بالعراقيب رقاصة تبغي ابزينه تماري[4]

---

(١) الزواريب هنا هي: الأقوال والأمور الغير معقولة: ومنها غض النظر والتهاون بحقوق الخوى.

(٢) قوله عمارنا عوارى أي شبه عارية سوف تسترد: فلا نأمن أن يصيبنا يوماً ما شيء من حوادث الزمان فما نحب أن يصنع معنا خويانا وأصحابنا وغيرهم فلنصنعه معهم فيه.

(٣) يعني أنه أرخص لهم، أيْ: إذن لهم يذهبون على الركايب ويبقى هو عند صاحبه. قوله كما يهرف الذيب: أي يسرع في مشيه أسرع من المشي وأقل من الركض (الغارة) فهذا فعل الذئب دائمًا: فكل شيء يسرع في مشيه فإنه يوصف بالذئب لأنه دائمًا يهرف إذا مشى.

(٤) يصف مشي ركائبهم حين ذهبوا مسرعين: فالناقة الطيبة الذلول إذا ركبها الراكب وهو مسرع جعلت تقزع، ويقال تنخ، ويقال تهذل، ويقال تفد، بأن تقصر خطاها وتسرع ويرتاح لها الراكب، فإذا كانت الذلول تقزع حالة مشيها أرخت ذيلها (ذنبها) فصار يضرب على أفخاذها وعراقيبها من خلف فيردح ويصفق من فخذ لآخر، شبه فعل الراقصة الطاربة وهي التي أعجبت بزينها تمارى فيه فيظهر لها فعل منظور (والرقص هنا ليس هو ما يفعل في المراقص والمسارح الإفرنجية فإنه لم يكن يوجد في العرب المسلمين): وإنما هو رقص بعض النساء لبعض حالة حفلات العرس ونحوه.

لازم تجيك أمي بكبده لواهيب تبكي ومن شد البكا ما تداري
تنشدك باللي يعلم السر والغيب وين ابني اللي لك خوي مباري
قل ابنكِ قعد في نايفات المراقيب بقنة ما حوله إلا الحباري
يَتْنَا خويه لين يبدا به الطيب والا يجيه من العواثير جاري[1]

(انتهى).

* * *

(١) قوله: يتنا خويه: أي ينتظر برءه ليصل أهله: أو موته فيعذر. وقد ذكروا أنه بدا به الطيب فبريء ووصل أهله يمشي. والحمد لله رب العالمين. (انتهى).

لحم الضبع

أما الضبع: فقيل أن لحمه دواء من الحساسية، والضبع أكلها حلال، وهي أم عامر المذكورة في قول الشاعر:

ومن يبذل المعروف في غير أهله

يلقى من المكروه ما لاقا مجير أم عامر

وذلك أن رجلاً صيادًا رمى الضبع فجرحها ولم تنقتل فهربت جريحة وهو في أثرها، فدخلت عند أهل بيت شعر، فأجاروها من عدوها الصياد، وقالوا له هذه دخلت علينا مالك عليها سبيل، (وكانت عادة العرب يجيرون الدخيل من الناس) وهم جعلوا هذه مثل الإنسان في الإيجارة، فتركها الصياد وذهب، ثم إن أهل البيت زادوا في الإحسان إليها بأن تركوها في بيتهم، وجعلوا يطعمونها ويسقونها حتى برىء جرحها، فما فجعهم يومًا إلاَّ وهي تأكل صبيهم، فهذا جزاء من يبذل المعروف في غير أهله. وهذا أيضًا يضرب مثلاً في الناس اللئام، فمن يبذل فيهم المعروف فهو مثل مجير أم عامر. (انتهى).

* * *

مشكلة ليس لها حل

قصيدة الدقيس (الشاعرة) في معشوقها:

قيل: لما حجّروا عليها ومنعوها من التزوج بمن تريده، ليضطروها تتزوج من يريدونه لها ولو أنها لا توده. قالت:

يَا وَنِّتِي يا شِنْ ابكبدي من الجور … وَنَّةْ ضعيف ضاهدينه رفاقه
انا ابشفي إغْلَيِّم من هل الهور … هو عشقتي من ناقلين التفاقه
وِدَّه سمر قلبي وراء مِشّة الزور … سمر الحديد اللي إجواد احلاقه
لعب بقلبي لعبت الغوش بالكور … وَوْمَابِي أوْمَايْ العصا بالعلاقه
غديت انا لا احدي ولا ابدي ولا اثور … ثَنَّان تثنات الخلوج الوساقه
عوق الظليم إيْلاَ تحدر مع القور … دَمْ الْقَرىٰ ينقط على عظم ساقه
هو صار عوق لي وَنَا صرت ثابور … والكل منا صار شوفه شفاقه

(فأجابتها أمها، لتخفف غرامها بمعشوقها) فقالت:

برق يُجَنِّبْ عنك لو كان به نور … بالك تَخِيْلِه لو ربيعك شفاقه
ترى الرجال اِبْهُمْ تَمازِيح وغرور … ومن قبل بِخْصِه لا يجي لك عشاقه

(فردت البنت على أمها) قالت:

مَنْ لا ستشارك لا تبدِّي له الشور … ومَنْ لا توده نور عينك فراقه

المعاني:

الجور: هنا هو: الضيم والتغلب والإضطهاد، وإذا كان من القرابة والرفاقة فهو أشد: (قال طرفة بن العبد: الشاعر العربي).

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

قولها: (ناقلين التفاقه): هم الرجال يحملون السلاح، (التفاقه): هي التفق (البندقية). والغوش هم رجال الحرب. والكور هو: شداد الكور. وعلاقة العصا (هو أنه يخرق طرف العصا ويدخل فيه خيط (حبل)، ويعقد طرفيه، يكون عروة شبه حلقة، فيدخل يده فيها ويمسك العصا حتى لا ينفلت العصا من يده ويسقط وهو راكب الناقة، لا سيما إذا خاف من النوم وهو راكب، فيضيع عصاه إذا لم يكن به علاقة يدخل يده فيها، فإذا نعس وهو على الناقة جعل العصا يومي لعلاقته بيده، فمعشوقها هكذا يومىء بقلبها، وصار عوقَها عن التزوج بغيره، وهي صارت له ثابور: أي عائق له عن التزوج ينتظر حصولها له فلا يريد غيرها حيث أحبها كما أحبته، وحين لم يحصل لها وأبعدته المقادير عنها، وصفته أمها بالمزن (السحاب) المتحدر البعيد فلا فائدة بمراقبتك برقه لأن مواشيك لا ترتع ربيعه، أي: لا ترعاه لبعده عنك: ولو كان ربيعك إشفاقه، أي: قليل، وهكذا معشوقها، كما قيل:

فما في الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيًا إن نَأَوْا وإن دنوا خوف الفراق

والظليم: هو الذكر من الطير (النعامة) أكبر من الحبارى وكانت توجد جولات النعام في البر وتصاد. فإذا فرَّ هاربًا في البر عارضه

معشوقها: فَعَاقَ الظليم عن هروبه: بأن رماه بالتفق (البندقية) وإذا دَمُ القَرَى: وهو أحد عروق القلب في الظهر قد صب وقطر على ساق رجله حيث قتله، فهي تمدح معشوقها بأنه شجاع بالصيد. والْقُوْر: هو مجمعات جبال متفرقة حول بعضها، كل واحدة متحدة وحدها تسمى قارة، بالتخفيف دون تشديد، وجمعها (قُور)، وصفتها هي مدورة، أسفلها عريض وأعلاها صفر أو قريبًا من ذلك، وبينها أراضي مستوية وشعاب وأودية ومنافذ. (انتهى).

* * *

وفي مشكلة الجار

ضرب ابنُ جاره ابنَه فأدماه، فقام وارتحل ولم يكلمه تكرمًا، وتمثل بقصيدة منها قوله:

ياما على الجاهل تفوت الفوايت   وياما على العاقل تصير البلاوي

إلى آخر القصيدة. (انتهى).

* * *

فصلٌ: الحسد وأثره

فالحسود لا يسود ولا يناله من حسده إلاَّ الهم والغم والنكد، فهو نار تلتهب في قلب الحاسد، وأكثر ما يضر الحاسد نفسه، عندما يريد تنفيذ حسده، فيرجع عليه. كما قيل:

دع عنك تجريح الحسود فإن ذلك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد شيئًا تأكله

والحسد ثلاثة أنواع:

أحدها: أن يتمنى زوال النعمة عن المحسود ولو لم تحصل له هو، فهذا معترض على قضاء الله وقدره وقسمته، فهذا يخشى عليه من الكفر عياذًا بالله، وهذا كثير في الناس، وهذا مثل حسد الشيطان للإنسان، يحسده طاعة الله ليحسده الجنة مع علمه بأنها غير حاصلة له هو.

قيل ــ إنه رأى أحدهم إبليس فقال: أنت إبليس؟ قال: نعم، فقال الرجل: إن لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال الرجل: إن ابن عمي له مال كثير ولي منه منفعة، ولكن أريدك تتلف ماله، ولو انقطعت منفعتي منه، فالتفت إبليس إلى جنوده وقال: إذا طلبتم أشر مني فهو هذا.

أما النوع الثاني من الحسد: هو أن يتمنى النعمة التي أعطيها غيره لنفسه، فهذا حرام وهو أهون من الأول، وجاء في الحديث: (إذا حسدت فلا تبغي وإذا ظننت فلا تحقق) أخرجه السيوطي في «الجامع الصغير»، ورواه الطبراني عن حارثة بلفظ آخر.

أما النوع الثالث من الحسد: وهي الغبطة: وهو أنه إذا رأى أحدًا أعطي نعمة وفضلاً تمنى مثله فقط من غير زوالها عن الأول، فهذا جائز أو محمود، وقد يكون الحسد خيرة للمحسود، كما قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشـــر فضيلـــة ... طـويـت أتـاح لهـا لسـان حسـود
لـولا اشتعـال النـار فيمـا جـاورت ... ما كان يعرف فضل عرف العود

وقال آخر:

عِـدائـي لهـم علـيَّ فضـلٌ ومنـةٌ ... فـلا أذهـب الله عنـي الأعـاديـا
هـم بحثـوا عـن زلتـي فـاجتنبتهـا ... وهم نافسوني فاكتسبت المعالِيا

(انتهى).

* * *

أمثال قديمة

قيل له: (ورا عمك ما يكسوك؟ قال يشوفن)، يعني أنه يراني عريانا، المعنى: أن الأحوال الظاهرة قد لا تحتاج إلحاح في الإخبارية، فالإنسان قد يتعامى عنها مع علمه بها، فلا داعي إذًا لإخباره.

قيل له: (ورا الشيوخ يضربونك؟ قال: الشيوخ أبخص)، أي: أعلم.

المعنى: (أنه لا يلزم أن يخبر الانسان بكل أسراره وأحواله.

كذلك: لا يلزم أن تخبر الحكومة بأسرارها وسياستها، فالشيوخ هناك: هم الحكومة هنا.

قولهم: (ما هكذا يا سعد تورد الإبل).

الأصل: أن هناك رجلان أخوان في العرب القدامى: أحدهم اسمه سعد: فأورد إبلهم على الماء (المارد)، ولكنه متكاسل ملتف بالعباة الشملة، لم يهتم بوردها، ولم يشد عزمه ويحتزم ليقوم باللازم، لأن من لازم سقي الإبل شد العزم لمتح الدلو مرة بعد أخرى، فلما رآه أخوه هكذا مشتملاً، أي: ملتفًا بالشملة، وهي العباة الغليظة، انتقده وعتب عليه فقال:

أوردها سعد وسعد مشتمل ... ما هكذا يا سعد تورد الإبل

فيضرب مثلاً لمن لا يقوم بالأمر على تمامه، فيقال: (ما هكذا يا سعد تورد الإبل). (انتهى).

عاقبة مخالفة أمر الرسول ﷺ

جاء المشركون يوم أُحد، يريدون القضاء على محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فنزلوا عند جبل أُحد، فخرج النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فلما وصل الجبل رتب أصحابه تجاه العدو وجعل خمسين رجلاً من الرماة في الثغر وأمَّرَ عليهم عبد الله بن جُبَيْر، وقال لهم: الزموا الثغر وانضحوا عنا الخيل لا تأتينا من خلفنا، ولا تبرحوا منه ولو رأيتمونا تخطفنا الطير حتى يأتيكم مني خبر. ثم التقى الرسول وأصحابه بالمشركين فانهزم المشركون، فجعل الصحابة يجمعون الغنائم فلما رآهم الرماة يجمعون الغنائم قال بعضهم ساعدوا إخوانكم، قال أميرهم: لا تبرحوا حتى يأتينا أمر الرسول، فإنه يقول لا تبرحوا حتى يأتيكم مني خبر. فقالوا إنه يريد حتى ينقضي القتال، وقد انقضى. ثم انطلقوا وتركوا الأمير وحده، فجاءت خيل العدو فوجدوا الثغر خاليًا فدخلوا منه فأتوا على المسلمين وهم غافلون فقتلوا منهم سبعين رجلاً، فنكب المسلمون بذلك عقوبة على مخالفة أمر الرسول ﷺ. أخرجه البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه بنحو ذلك، وهكذا أنت إذا خالفت أمر

الرسول ﷺ دخل الشيطان على قلبك فأفسده، فتستوجب العقوبة كما قد أصابتهم، (قاله ابن القيم).

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[1]. (انتهى).

* * *

(١) سورة النور: الآية ٦٣.

صفة الضيف والضيافة في القديم

ينقسم الضيف إلى قسمين: زائر، وضيف، فالزاير هو: الصديق أو القريب أو الجار ونحوه، يأتي إليك بدعوة أو بدون دعوة، فتقوم له بما يناسب الحال من الإكرام.

أما الضيف فهو: الموصوف بالأحاديث والأخبار القديمة.

ولا تستقيم أحوال الناس إلاَّ بأحوال الضيافة والقيام للضيف بما يلزم، لأن غالب أحوال الناس وأعمالهم صحراوية برية، بعيد وقريب، ولا يمكن كل أحد أن يحمل معه ما يكفيه من الطعام والشراب وعلف المواشي، فيضطر للضيافة. وكل أحد تارة يضاف، وتارة يضيف، حتى الأمراء، والملوك والأغنياء وأصحاب الشأن، لا يستغنون عن ذلك، كما ضاف النبـي ﷺ في خيمة أم معبد في طريقه من مكة إلى المدينة: «كما تسعف صاحب السيارة المتعطلة في الطريق في هذا الوقت، فلو ترك فربما تضرر أو هلك».

وإكرام الضيف من مناقب العرب، وخصالهم المحمودة قبل الإسلام، ثم زادها الإسلام قوة ووجوبًا (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)، والضيف أيًّا كان نوعه من الناس، حتى لو كان من طائفة غير مسالمة، وأول إكرام الضيف بَشاشة الوجه والتهلية والترحيب، ثم المباشرة له بِالْقِرى، كما قيل:

بَشاشة وجه المرء خيرٌ من القرى   فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك

فأطيب الناس أكرمهم لضيفه، حتى إن بعضهم يقدمه على نفسه وأولاده، فيقدمون له عشاهم ويبيتون طاوين، إذا كانوا في أوقات المساغب. وَأَعْفَنُ الناس أرداهم لضيفه. (فإن هذا العَفِن إذا رأى الخطار (الأضياف) قد أقبلوا اختفى عنهم ليذهبوا إلى غيره، وإن لزمته الحال لم يرحب بهم ولم يكرمهم.

قيل: تزاعمت امرأتان وجعلت إحداهن تهجو الأخرى بقصيدة تصفها بأنها إبنت عَفْنٍ لا خير فيه، فتقول:

يا بنت عَفْنٍ ما ضَرا للمراجِلْ   وِيْلا طالَعْ الخطّار يا مَنْ يُوَزِّيه

فحيث كانت البنت تُمدح بفعل أبيها وأخيها إذا كان طيبًا كريمًا، أو تذم بأبيها وأخيها إذا كان عفنًا رديئًا، فهي تذم هذه بأنها ابنت عفن لم يكن من أهل الطيب والكرم، بل عَفْن، إذا رأى الخطار قد أقبلوا راغ واختفى عنهم لعلهم يذهبون إلى غيره، (يا مَنْ يُوَزِّيه)، أي ينادي يا من يساعده على الاختفى عن الخطار: يوزيه: أي يدخله في موضع ضيق خفي حتى لا يواجهوه فيطلبون منه أن يضيفهم فتلزمه الحال.

والخطار هم الأضياف يخطرون: أي يأتون إليك بغير تحديد موعد ولا حسبان.

وصفة الضيافة: هو أنه إذا قدم الضيف على أهل المحل سواء بيوت الحضر (الطين) أو بيوت البادية (الشعر)، فإن الضيف يقصد جهت الرجال من البيت، فينيخ بعيره أو يربط حماره أمامه وينزِّل عفشه ويجمعه ويجلس عنده يتكىء عليه ينتظر حتى يدعونه.

فأهل البيت إذا رأوا الضيف نزل عليهم أخذوا يستعدون له بالضيافة: فيدخلونه بالمجلس ويقدمون له القرى: وإن كانوا وقت برد أناموه بالمجلس بالليل واستعدوا له بلحاف وتدفئه حتى الصباح. ولا بد من إكرام دابة الضيف بالعلف بعيرًا، أو حمارًا، أو غيره، كما قال بعضهم:

. . . .   إذا تعشت ناقتي فأنا تعشيت

وحفظها عن الذئب إن كانت غنمًا، وبعيره وعفشه عن الحرامية، حتى لو كان عليه طلب دم أي له غريم (أدومي)، يترصد له ليقتله لزمهم حمايته والكفاح عنه ما دام في محلهم، ويساعدوه على إخفائه عن غريمه عند ذهابه عنهم، ليذهب من عندهم سالمًا، حتى لا يلحقهم عيب أن يصاب عندهم، فالذي يقوم للخطار بهذه الأحوال، لا شك أنه يستحق أن يكون من الكرام، وتمدح ابنته وترغب، وأنَّ مَنْ يختفي عن الخطار، أو يرسلهم إلى غيره إذا واجهوه، أو لا يكرمهم إذا لزموه، فإنه عَفْنٌ رديء عندهم، وابنته كذلك بايرة لا يرغبها الرجال الكرام، حتى لو كانت جميلة، لأن أباها من أهل البوار، فلا يتزوجها إلاَّ مثل أبيها.

أما ابنت العائلة الطيبة فإنها لا تبور وكل يرغبها، ولكن هي لا ترغب الرجل العفن الرديء.

قيل: ضاف رجل أهل بيت في البر، لكنهم قصروا في حقه ونام بالليل عند بعيره في البر خارج البيت لأن بيتهم صغير وحالتهم ضيقة، فلما أصبح وسار من عندهم، جعل يهجوهم بقصيدة منها قوله:

والضيـف يصبـح ورى العِنّـه[1]　　يصبـح مـع البـرد جَيْعـان

ثم أخذ يمتدح أُناسًا أخرين يكرمون الضيف ويرحبون به، ويجعلون مع القهوة زعفران، ويعتذرون له من تقصيرهم في حقه، ولو قدموا له فوق الكفاية، فقال في مدحهم:

نبـي انْـدَوِّرْ هَـلْ السِّنّـهْ　　انْقَلْطَـتْ مـع البـن ريحـان
وعـذر مـع الـزاد يـاكِنّـهْ　　مـانٍ علـى كبـد عطشـان

قوله: مانٍ: أي ماءٌ. ومن إكرام الضيف: محادثته وموانسته وسآله عن بعض أحواله، قيل: تزاعم رجلان من قبيلتين، أيهما وقومهما أكرم للضيف، فقال الأول:

والضيف ما نِطْنِيه بِكِثْر التَّناشِيد　　يـا كـود إنـه هـو ينشـد حَـدَينـا

فقال الرجل الثاني:

الضيـف مـا يُطْنِيـه كِثْـر التَّنـاشيـد　　يـا كـود إن المعـزب تَطَيْنـا

(والطَّنا) هنا هو: الزَّعَلْ وانقاض الوجه، وكل أحد يعرف أن كلام الرجل الثاني أصوب، (عرف ذلك بالتحارب)، ومن حق الضيف، احترامه وكف الأذى عنه، فلا يُسمَعَ سِبابًا أو شعرًا يمس كرامته أو كرامة قومه، ومن أدب الضيف احترام أهل المحل، والعمل على أوامرهم، كما في المثل (الضيف بأمر الْمُضَيِّف)، وكف الأذى عنهم، والسباب أو الشعر الذي يمس كرامتهم أو كرامة أهل بلدهم، وأن

(١) العِنّه: شجر يقطعونه ويجمعونه دائرة على جوانب البيت يسترهم من عصف الرياح والبرد والعيون.

يعذرهم إذا قصروا بشيء من حقه عجزًا في أوقات القلة والمساغب، بل الكريم يسترهم تكرمًا وإن قصروا عمدًا، ولا يفشي سرهم وأحوالهم إذا اطلع على شيء منها، وأن يظهر شكرهم وتمجيدهم عند مفارقته إياهم، لأن مَنْ لا يشكر الناس لا يشكر اللّٰه، ومن أدب الضيف والزائر أيضًا أن لا يذهب لأحد من الجيران إذا دعاه للقهوة ونحوها إلاَّ بإذن المعازيب، لأن الضيف بأمر المضيف، فالواجب على من أراد إكرام ضيفك أو زائرك أن يأخذ الإذن منك؟ ثم أنت تأذن له إن أردت ذلك، وإلاَّ فالأمر لك، ومَنْ أكرم ضيفك فقد أكرمك ومن أهانه فقد أهانك.

شاهد

هناك شاعر من العرب القدامى، هجا أناسًا خصومًا له فقال:

إذا اسْتَنْبَحَ الأضيافُ كلبَهمو قالوا لأمهم بولي على النار
فبالت ولكن شحت ببولتها فلم تَبُلْ لهم إلا بمقدار

فاستنباح الكلب هو: أنه إذاا كان أحدهم في البر وأمساه الليل ولم يجد عربًا يضيفهم للعشاء والمبيت، صعد فوق مرتفع، ثم يعوى عِواءَ الذئب عدة مرات، فإذا سمعه الكلب نبح: فيعرف هو أين العرب فيضوى عليهم، فهذا هو استنباحهم الكلاب. وهذا الشعر من أشد الهجو وأنحسه، لأنه زعم أنهم: إذا نبح الكلب بالأضياف، قاموا هم بإطفاء النار، لعلهم لا يهتدون إليهم إذا ماتت النار، وأسرع وسيلة لإطفائها هو: بول أمهم، فبالت لهم وشحت بالباقي، هذا قوله. (انتهى).

* * *

الدنيا لأبنائها

قال :

عتبت على الدنيا لرفعة جاهل
وخفض لذي علم فقالت خذ العذرا
فذوا الجهل أبنائي لهذا رفعتهم
وأهل التقى أبناء ضرتي الأخرى
أأترك أبنائي يموتون ضيعة
وأرضع أبناء لضرتي الأخرى

(انتهى) .

* * *

عـزة الأسـد

قيل: إن الأسد لا يشرب من ماء شرب منه كلب، وقد قيل:

إذا كثـر الـذبـاب علـى طعـام قمـت ونفسـي تشتهيـه
وتتـرك الأسـدُ ورود مـاء إذا كـان الكـلاب ولَغْـنَ فيـه
ويـرجـع الكـريـم خميـص بطـن ولا يـرضـى منـاهمـت السفيـه

فيقاس على هذا كل إنسان عزيز النفس رفيع القدر أن يَرْبَأ بنفسه عن مجانسة من هو أقل منه قدرًا، كالرجل الشريف نرغب به عن شرب الدخان المنتن، وكالرجل الشريف نرغب به عن مرافقة الساقطين ونحب له مرافقة الطيبين، وقس على ذلك أن تضع نفسك في كل أمر فاضل وتذودها عن كل أمر مفضول.

قيل: كان أحد الملوك قد أولع بأكل الطين، وحتى إنه ليحضر له مع وجبة الطعام، وذات يوم لما حضر الطعام وضمنه طين، قال الملك لجلسائه على المائدة: ألا رجل حكيم يدلني على ما يعيذني من هذا الطين؟ وقد حضره حكيم، فقال: بلى يا أمير المؤمنين: عَزْمَةٌ من عزمات الكرما، فقال الملك: أبعدوا عني الطين فلا أطعمه بعد اليوم أبدًا.

قلت: ونحن نحب أن يفعل ذلك شارب الدخان فيتركه بعزمة من عزمات الكرما. (انتهى).

قيل: العطية على قدر المعطي لا على قدر المعطىٰ.

قيل: أوصت امرأة ابنتها عند زفافها، قالت:

كوني له أمة يكن لك عبد (تعني زوجها: تكرمه فيكرمها) واعلمي أن أطيب الطيب الماء، وأزين الزينة الكحل. وتعني بالماء: النظافة.

قيل: جلس أعرابي على جانب الطريق هو وزوجته. فقال:

يا رب إني قاعد كما ترى وامرأتي قاعدة كما ترى
والبطن جائع كما ترى فما ترى يا ربنا فيما ترى

فعجب الله له فرزقهما. (انتهى).

* * *

مكافحة الغيلان

الغيلان هم: عفاريت الجن، يتصورون على كل شكل: على صور رجال ونساء، وكلاب وحمير وبقر وإبل وخيل وغنم وحيات وغير ذلك، يتخيلون أحيانًا في البيوت والطرق والمزارع والبر (الفلات).

من ذلك كان رجل من الجماعة، ذهب بعد العشاء (الآخرة) إلى صديق له داخل البلد، فسمر عنده وشرب القهوة، ثم أتى إلى بيته، وذلك قبل وجود الأنوار والكهرباء في البلاد، وكانت الشوارع ظلام دامس، فلما قرب من البيت، وإذا ثور كبير قد اعترض في الشارع وسده من عظمه، فرجع الشاب وأتى البيت من شارع ثاني، فلما دخل البيت وإذا الثور واقف وسط الصالة قد ملأها. فهذا نوع من الغيلان، ومكافحة مثل هذا من الغيلان، هو الآذان المعروف للصلاة، فلو أن الشاب أذَّنَ في المرة الأولى، لذهب عنه ولم يرجع إليه مرة ثانية، لحديث «إذا تغيلت الغيلان فنادوا بالأذان» رواه الإمام أحمد رحمه الله.

كذلك جماعة في سيارة يسيرون في الطريق إلى مكة في الليل، في موضع يقال له (ركبه) وذلك قبل وجود الإسفلت، فكانت الطريق غير معبدة، ويتفرق طرقًا كثيرةً، فلما اشتبه عليهم الطريق، وإذا سيارة أمامهم تسير، وينظرون أنوارها الخلفية، فساروا خلفها، فإذا وقفوا وقفت، وإذا ساروا سارت، حتى خرجوا من جملة خطوط الطريق،

فوقفوا وناموا، فلما أصبحوا طلبوا أثر السيارة التي غرتهم، وكانت تسير أمامهم، فلم يجدوا لها أثرًا أبدًا، فعرفوا أنها من الغيلان، فرجعوا في أثرهم حتى وجدوا الطريق.

فلو أنهم أَذَّنُوا لأول مرة لذهب عنهم هذا (التزويل).

حَـيَّـات الـبـيـوت

وأما حَيَّات البيوت: فهي قد توجد في بعض البيوت، ولا تقتل لقول النبي ﷺ: «إن للبيوت حيّات فلا تقتلوها كُفْيَتْ شركم كما كفيتم شرها» الحديث رواه مسلم وغيره، وورد إيذان العوامر ثلاثًا كما في مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه[1].

ولكن استعذ بالله منها عدة مرات واقرأ شيئًا من آيات القرآن، واقرأ في ماء وصبه في جوانب البيت للحيات. وغيرها مما يوحش أو يُزَوِّلْ. وسوف يزول بحول الله إن كان من الغيلان. (انتهى)

* * *

(١) العوامر: هي شبه حيات تتصور في البيوت والمحلات: وهي من نوع الغيلان: فلا تقتل لأول مرة: لكن تستعيذ منها وتقول: أُحَرِّجُ عليكم بالله أيها العمار إلا خرجتم عن بيتنا وخرجت عنا ونحو ذلك: ويحسن أن تقول نستجير بالله من شركم: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق: اللهم إنا ندرء بك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم، تفعل ذلك ثلاث مرات ثلاثة أيام، فإن ذهبت وإلاّ هي حية عادية فتقتل قاله العلماء رحمهم الله، بعد ذكر اسم الله تعالى وقراءة آية الكرسي والمعوذتين. وبعض الناس في قراءته خصوصية أكثر تأثيرًا من غيره وذلك حكمة لله تعالى.
كذلك: تقرأ آيات وأحاديث التعوذات، في ماء وترش به في نواحي البيت، لِما يوحش ويُزَوِّل ويؤذى، وقد جرب جيدًا كافيًا بإذن الله.

الحياء

الحياء في الإنسان صفة راقية: تولِّد الفضائل وتكف الرذائل.

أما قولهم: (زمان لا تستحي عروسه ولا تَكْتَنْ نُفَسَاءُهُ)، فهذا وصف ذم، لأهل بعض الأزمنة الجافية، وذلك أنه يأتي على الناس أزمنة مختلفة: فتارة تحيا القلوب، فيحافظون على الأخلاق والأدب الإسلامي العربي، فهو زمن الصحوة والخير، فيرتفع شأنهم ويعظم قدرهم، فالمحافظة على الأخلاق عنوان المجد وميزان القيم. (فإنهموا فسدت أخلاقُهم ذهبوا)، وأعظم الأخلاق الطيبة: (هو المرؤة، والحياء) ولا سيما شباب النساء، فإنهن منشأ الأجيال، ومنبع الخير، ومدارس الفضائل: فتنشئتهن على الحياء هو أصل النهوض وانتظام الأمور، وقد كان الحياء ينشأ مع الإنسان من حين صغره، فكانت البنت تنشأ في البيت ونحوه، لا تخالط الرجال والأولاد، وأمها كذلك، فَيَنْبُت الحياء في عقلها وجسمها صغيرة وتشب عليه، (ومن شب على شيء شاب عليه)، لهذا كانت المرأة تستحي حتى من محارمها وقراباتها، لا سيما أيام عرسها، فكانوا يخفون عن البنت الخطبة والتجهيز حتى تقرب النهاية، فإذا علمت به استحيت واختفت في قعر البيت لا يواجهها إلاَّ أمها وأختها، ويستمر

بها الاستحياء والاختفاء أيام العرس وبعده، فهو حياء حقيقي غريزي لا تصنُّعًا، فلو أريد منها تركه ما استطاعت.

وحتى الرجل الشاب يرى عليه أثر الحياء أيام العرس وحالته.

وكذلك حالة المرأة إذا كانت نُفَسَاء: أي بعد الولادة، فإنها لا بد أن يَعْرُوها الحياء، فتكتن في البيت، أي تقعد فيه: حياءً واحترامًا لنفسها حتى تنتهي أيامها، فهذا الحياء في الشابات هو منشأ الفضائل، وإذا نزع الحياء من الشباب رجالاً ونساءً ماتت الفضائل، وولدت الرذائل، وكثرت الوقاحة، فصاروا يفتخرون بتقليد من لا حياء لديه ولا مروؤة ولا دين، وقد جاء في حديثٍ رواه البخاري: (إذا لم تستحي فاصنع ما شئت): هو تقريع وتهديد ووعيد لمن لا يستحي، يعني أنك معاقب على ذلك، فهو تحريض على لزوم الحياء، وإنك الآن لتَمُجُّ الحياة، إذا رأيت الوقاحة وقلة الحياء وقلة المروءة في كثير من الناس. فلا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وهنا مثل صيني، ويجب أن يكون عربـي إسلامي، قال:

(إذا سادت التقوى على القلب، ساد الجمال في الطباع والأخلاق، وإذا ساد الجمال في الطباع والأخلاق، سادت الإلفة في البيت، وإذا سادت الإلفة في البيت، ساد النظام في الشعب، وإذا ساد النظام في الشعب، ساد السلام في الأرض)، أَللَّهُ أكبر: ما أحسن هذا.

وجاء في بعض الأخبار أنه لما أُهبط آدم من الجنة: أتاه جبريل

عليه السلام فقال له: اختر واحدة من ثلاث: قال وما هن؟ قال الدين والحياء والعقل، فقال آدم: اخترت العقل، فقال جبريل للدين والحياء انصرفا عنه، فقالا: إنا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، فقال جبريل شأنكما. (انتهى).

* * *

وقعة موجعة... قال:

يوم جرى بالضلفعة له إظلال　　　يعده المالود للي بالاصلاب

هذه واقعة حرب على أهل القصيم بالمليدا، عام ١٣٠٨هـ قتل فيها أكثر من مائتين رجل، بسبب حماقة القائد ذاك اليوم، وذلك أنهم حين برزوا لمقابلة عدوهم في الحرب؛ فترسوا في أرض رملية وَعْرَة؛ قرب المليدا؛ حيث كانوا مشاة وعدوهم على خيل، وقد أمنوا من تجشم الخيل في الوعر، فاحتال عدوهم لإخراجهم إلى السهل الحماد (المليدا)، فعَدَتْ عليهم الخيل فرموها بالبنادق فانهزمت الخيل خِدعة لهم، فقال أميرهم: قوموا نلحقهم نقتلهم فإنهم قد انكسروا، فقال زعماء الجماعة (إنما هذا انهزام خديعة واستطراد، لا انهزام جرح وذل: لكي يخرجوكم من متارس الوعر إلى الحماد لمجال الخيل، ولكن دعنا نبقى هنا في متارس الوعر فقال القائد: لازم نقوم نهزمهم، فقالوا: سوف تجد غبها. فلما ظهروا وتوسطوا المليدا رجعت عليهم الخيل فقتلتهم، ثم رجعوا على الجرحى فجهزوا عليهم وقتلوهم، حتى هذا القائد قبضوا عليه وقتلوه. كما قال الشاعر:

لكل داء دواء يستطب به　　　إلا الحماقة أعيت من يداويها

ومن الحماقة: (الاستبداد بالرأي دون مشورة الجماعة).

والضلفعة: قرية شمالي المليدا: وهذه السنة يؤرخ بها فيقال (سنة المليدا) فهذا قوله... يعده المالود للي بالأصلاب، أي تأريخ يعده الأول للآخر. (انتهى).

* * *

شجاعة قاسية

قام شاب في إحدى البلدان، ليتقدم في طلب الحكم والسلطنة، فجعل يتطلب له أعوانًا، فواعده أحد شيوخ القبائل، أن ينظم معه للمساعدة، وكان هذا المساعِد يُنْتَب [يلقب] باسم أمه (ابن فلانة)، ثم واعده آخر من شيوخ القبائل ليساعده، وكان هذا المساعِد يلقب باسم نوع من الخبز: الطعام الطيب.

فقام هذا الشاب بتنفيذ خطته، وأرسل لمواعديه ليحضروا معه، وإذا هم قد أخلفوا موعده وهربوا إلى بلدان جنوبي نجد، إلى وراء وادي النِّير فغضب عليهم وتمثل بقصيدة يتوعدهم بها إذا نجح أمره، منها قوله:

منتوب بامه عَقَّبَ النِّير من غاد ... وراح سمى مطعوم النشاما يباريه

والله لو أنتم من وراء جسر بغداد ... إني لكم مثل العمل عند راعيه

والنشاما هنا: هم الشجعان الأسخياء، أهل مروءة وحمية ونفس خفيفة في الناس. (انتهى).

* * *

طريق القافلة الغالطة

قد ذكرنا في عدة مواضع، أن عامة وسائل النقل في نجد وغيرها هي الإبل، فيذهبون قوافل إلى البلاد النائية لجلب الأموال. فصاحب القافلة يستأجر رجالاً من اثنين وثلاثة وأكثر؛ يزاولون حمل الأحمال عليها وإنزالها في مراحل السفر. ويحرصون أن يكونوا مجموعة قوافل لأجل التساعد عن الحرامية أوقات الفوضى قبل استتباب الأمن، ويتساعدون على المياه البرية وعلى معرفة الطريق وغير ذلك.

فذهبت قافلتان جميعًا من بلدتين متقاربتين، ولكن صاحبا القافلتين لا يذعن أحدهما للآخر أن يفضله في معرفة الطريق، أو ورد الماء، أو غيره من الأمور المسموعة أو المرئية، فلم تخلو الحال من عناد وزعامة واعوجاج رأي.

وذات يوم اختلفوا في جهة الطريق؛ قال أحدهما: الطريق هنا، وقال الآخر: لا: بل الطريق من هنا؛ فتشادوا، وعزم كل واحد أن يذهب إلى ما يراه الطريق. فأجهد نفسه صاحب القافلة الكبرى في إقناعهم بأن الطريق معه، وكان هو أحرى بمعرفة الطريق، ولكن جهده لم يجد بهم شيئًا، بل قالوا: أنتم إمشوا معنا لتسلموا من الهلاك، فأشهد عليهم خوياه بأنه عذل بهم فلم يطيعوه، ولم يكن بيده عليهم

سيف إلزام، فسار هو فيما يراه طريقًا، وسارت القافلة الثانية فيما يرونه طريقًا، ولكن صار طريق هذه القافلة غلط، فلم يصل بهم شيئًا من المياه البرية، فهلكوا عن آخرهم، فأتى أهلهم يلومون الرجل صاحب القافلة السالمة، ورفعوا فيه شكاية، (لماذا لم يرشدهم إلى الطريق التي سلك هو ونجا) فأحضر شهوده بأنه أرشدهم وحرص عليهم فلم يطيعوه، فظهرت براءته من اللوم والنكال.

أقول: فالذي يجدر بنا الآن: هو إمعان النظر في الحال والتأكد من صحة طريق السلامة لنا بعد الموت، أن لا يكون طريقنا إلى الله والقدوم عليه طريق القافلة الغالطة ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

وفي المثل: (كلٌّ يعتقد بومته صقر) للزعامة الخاطئة. (انتهى).

* * *

(١) سورة الزمر: الآية ٤٧.

قرص الجمر

قيل: ذهب رجل يحتطب على جمله من البر، فوجد مكانًا فيه حطب أعجبه، فنزل وقطع حطبًا يكفيه، ثم عمل له طعامًا على عادة أهل البر، يسمونه (خبزة جمر: أو قرص جمر)، يعجن الدقيق، ثم يضرم نارًا جيدة فوق أرض رملية، فإذا حميت الأرض زحّف النار عن موضعها ويبقى بعض الجمر مفروشًا موضعها، ثم يفرد العجينة قرصًا ذو سمك متين، فيضعها في موضع النار الحار فوق الجمر، ثم يوقد فوقها شعلة نار لتنشيف ظاهر القرص حتى لا يَعْلَقُهُ الرمل، ثم يُطْفِي فوقها ملة حارة، ثم يظفي النار فوقها ويضرمها حتى تنجح من فوق، ثم يخرجها ويقلبها ويرجعها ويدفن عليها ملة حارة ويضرم عليها، فإذا نضجت (بأن يهمزها بالعود المحراك وإذا هي شادة) أخرجها وطققها ونظفها، وبهذه العملية لا يلحقها تراب، وما لحقها قليلاً من طفو النار فهو لا يضر، بل ربما يكون دواء، وهذا معروف من طول التجارب على مدى الأزمنة.

- الحاصل أن هذا الجمّال لما أصلح خبزته طلع عليه أسد، وهذا الأسد هو الذي قد حَمِئ هذا الحطب ويذود عنه الناس، فتركوه خوفًا منه، وهذا الجمّال لم يعلم به في أول الأمر، وحين أتاه الأسد عزمه

علـى الخبـزة، (قـال: تفضـل يـابـو خُميِّـس للغـدا؟) فجلـس الأسـد [أبو خميس] وأخذ كسرة من الخبزة بفمه وإذا هي حارة فجعل يلوكها بفمه يتبردها، فسال لعابه على السماط، فقال الرجل الله يهديك يابو اخميس كرهتنا إياه، فسكت أبو خميس حتى خلصوا من الأكل، فقال أبو خميس للرجل: قم خذ هذا الفاعور (الفاروع) وهو الفأس، واضربني على رأسي، فقال الرجل لا. يابو خميس، ما جاء لهذا موجب، فقال: لازم تقوم تضربني، فقام الرجل وضربه بالفأس في جانب رأسه، فانسلخ قطعة من الجلد، فلمها في موضعها وعصبها، (أي شدها في خرقة، ثم قال أبو خميس للرجل: اعلم أن هذه الضربة أهون عليَّ من كلمتك، لأن مضارب السلاح تبرأ ومضارب الكلام ما تبرأ، ولكن لا عمرك تجيء هذه الأرض، تراه ما هو أحسن لك. (انتهى).

* * *

سعـة الصـدر..
والجَلَّة من الاقتصاد في الماضي

كان رجال من عُقيل، يسيرون في شمالي بلدان نجد، في طريقهم للغربية، صباحًا بعد السُّرى، فمروا على رجل من رجال البادية في تلك الجهات، من قبيلة عنزة، قد بات في هذا المكان وأناخ جمله بالليل، وحين أصبح أطلق جمله يرعى حوله، وأوقد نارًا وعمل له قهوة. فحين حاذوه، وإذا أحدهم يمشي على رجليه بجانب الإبل، فتاقت نفسه للقهوة بعد السُّرى والتعب، فاستحلى أن يميل إلى هذا الطرقي ليسقيه من قهوته الجاهرة، ثم يتبع أخوياه من غير بطيء. فانهزع إليه، فرحب به الرجل من حين أقبل عليه: يا الله حيه يا اللّه حيه، اقلط يا رجل تفضل تقهو، فسلم عليه وجلس وانتعش الرجل البادي، وبهش فرحًا بالضيف، وقام ليعمل قهوة جديدة لضيفه، فقال الرجل الحضري: أنا عَجِل اخوياي يمشون راحوا، صب لي فنجالاً من قهوتك الوالمه. لكن الرجل البادي يراها ناقصة في حقه ألا يعمل قهوة جديدة لضيفه، حيث كانت عادة معروفة عند الناس: أن كل قادم عزيز لا بد أن يُعمل له بين يديه قهوة جديدة تكرمة له. فهذا الرجل العنزي يريد يقوم بواجبه حتى لا يلحقه عيب بذلك، ولم يأتِ على باله عجلة الرجل وفوات ربعه، لما يجده هو من سعة الصدر.

والمشكل آن ذاك أن أرضهم هذه ليس بها حطب، فيعوزهم إيقاد النار! فيلتقطون بعر الإبل اليابس في المراعي والطرق ومناخ الإبل (المبارِك)، وغيرها فيوقدون به النار، فالعنزي صاحب القهوة، ليس موجودًا عنده شيء من ذلك تلك اللحظة، فقام وأخذ من بعر جمله الموجود في مبركه من الليل، بَعَرًا جديدًا رطبًا، فوضعه على جانب النار الموجودة ليسخن وييبس، وجلس حولها ينتظر يبسها وعلوقها فيعمل القهوة عليها، فالرجل الحضري اشتغل خاطره بالعجلة، لأن أخوياه سائرون في الطريق، فطلب من الرجل أن يصب له قهوة من الجاهزة وتكفيه؟ فأبى العنزي إلاّ أن يعمل قهوة جديدة، تكرمة للضيف، فقال الرجل الحضري: انفخ على النار استعجلها إذًا؟ فقال العنزي: (يا خوي خلها ضِيْقَةَ الصدر منها)، فصارت مثلاً لسعة البال: (ضيقة الصدر منها)، لكن الرجل الحضري لم يتمالك فقام ليذهب بدون إذن المعزب، ليتركه وقهوته؟ فقام العنزي وأخذ البندقية وقال له: والله تجلس تشرب قهوتك يا رجل، وإلاّ تفوتك نفسك؟، لا يمكن يذهب الضيف ولم نقهويه، فجلس الرجل جبريًّا حتى يبست الجلة حول النار، وولعت النار بها، وعمل عليها القهوة وخبزة، فقهواه حتى طاب كيفه من القهوة، ثم أذن له في الانطلاق يتبع أخوياه، فلم ينتهي منه إلاّ وقت الظهر، فلم يدرك اخوياه إلاّ قرب الليل حيث نزلوا.

أما هذا البعر الذي يتطلبونه يوقدون به النار في سائر البلاد، هو بعر الإبل والبقر، يسمونه (الْجَلَّة)، صالح جدًا للوقود. وقد كانت الجلة في الماضي جزءًا من وسائل الاقتصاد في الوقود، في كثير من

البلاد والمدن الكبار، حيث كانت توجد الإبل والبقر في سائر البلاد والمدن، لأن الحطب البري حولها ينتهي، لكثرة من يحتطبه، فيضطرون للجلة وحطب الإثل والنخل، حتى جذوع الإثل والنخل اليابس يحطمونه للوقود، فلا يسقط عندهم شيء بسبب الحاجة إليه، (فالحاجة هي أم الاختراع)، فما تحصلوا عليه من الحطب والجلة حازوه ولو كان رطبًا، وادَّخروه حتى ييبس فيوقدون به.

تنبيه لطيف لكيفية الوقود بالجلة لو اضطررت إليه يومًا ما:

يضعون كمية من الجلة في موضع النار، ثم يقبسون فوقه أو في جانبه، فتشتعل بها النار، وما استكملت النار أكله منها زاحوه عنها قليلاً بالمحراك، فإذا أكلت الوسط زاحوا الأطراف إليها زوحًا، ولا يحركون وسطها، ولا يخلطون المشتعل منها بغير المشتعل، فتعمي ويظهر لها دخان يؤذي، وفي المثل: أن الجلة في النار تقول: (حركني واعميك).

إفادة اقتصادية من الماضي:

كان بعض الناس من أهل المدن وغيرهم، يستفيدون من البقرة في البيت أكثر من غيرهم، حيث يكون بها لبن وسمن، فيبيعون السمن أو بعضه عند الحاجة، ويشترون به لها علفًا، وذرة بيضاء، يجرشونها ولا بد من طبخها مع فضلات البيت، يُنَقِّعونها به صباحًا، والظهر تبنًا، والبرسيم عشاءً، لأن العلف الأخضر أكثر لبنًا، وقد يصنعون علفًا لجميع المواشي وقت قلة البرسيم في الشتاء: فيأخذون تبنًا مُنَعّمًا وشيئًا من البرسيم يُهْذئ إن كان، أو علفًا (ما) أو من الأعشاب الربيعية، يخلطونه مع التبن، ثم يغمسونه بالماء شيئًا فشيئًا شبه غسل، ويخرجونه

يسرب مائه، ثم تأكله المواشي الإبل والبقر وغيرها صالحًا جدًا يسمونه صِفُوْ، وفي المثل: (الدِّرَّةُ من الجِرَّةِ)، فالدرة هي إدرار الحليب، والجِرَّة هي: العلف، فإذا شبعت ذات الحليب، من كل ذات حليب، كثر حليبها، وإذا جاعت قل حليبها، وبعض البقر تُحْلَب وهي تأكل العلف، لتهدء وتدر. ويلزم حلّاب الناقة والبقرة الإسراع بالحلب، يغتنم الدرة (الإبهال) قبل الفواق.

ويستفيدون منها أيضًا حطب الوقود، حيث يلتقطون بعرها ويخلطون معه نفايات العلف، أو بدون نفايات، ثم يفردونه قطعًا مستطيلة شبه أعواد الحطب، ويتركونه ييبس يكفيهم للوقود أو يزيد عن حاجتهم.

ويستفيدون نظافة مربطها بالتقاط الجلة عنها.

وكانت المرأة تبتهج بوجود البقرة في بيتها، لأن البقرة في البيت (ثروة عائلية خصبة)، فتقوم المرأة بموالاتها (لبنها، وعلفها، وتنفيعها، وإصلاح جلتها).

قيل: جلس رجل من رجال عُقيل، في الغربية ذاك الوقت، إلى رجل من أهل تلك البلاد، فجعل الغربي يسأل العقيلي عن بلاد نجد: سعتها وكيفيتها وإنتاجها؟، فجعل العقيلي يذكر له بنجد بلادًا كثيرة، ومدنًا كبيرةً، إيهامًا له، واعتزازًا ببلده، ولكن الغربي كان رجلاً ذكيًا مجربًا، فاحتال على هذا العقيلي بسؤال لم ينتبه لما ورائه، فقال (كيف بُعد الحطب البري عنكم)؟ قال العقيلي: هو قريب، يذهب الرجل أو المرأة، ويأتي بحزمة حطب على رأسه (يريد بذلك مدح بلاده

بالخصوبة وجودة المنافع)، لكن قال الغربي: يابوي لا تلخبط علينا، ليست هذه مدن، إنما هي صحراء بادية ومزارع ونحوها، لأن المدن تأكل ما حولها من الحطب. (انتهى).

قيل:

استغن بالرحمٰن عن خلقه — تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمٰن من فضله — فليس بعد الله من رازق
فمن ظن أن الناس يغنونه — فليس بالرحمٰن بالواثق

ويقال: (كم صِدْفَة خير من ميعاد): يعني قد تواجه أحدًا لحاجتك إليه: فهذه المصادفة أحسن لك من لو سبق لك موعد معه.

قيل: ألقى خطيب محاضرة، حضرها رجال ونساء، قال فيها: إنا قد وجدنا أَلْفَ دليل على وجود الرب سبحانه: فقالت امرأة: بئس عليك، ما طلبت ألف دليل إلاّ وعندك ألف شك، فلو عقلتَ لكفاك القرآن: فكفى به دليلاً ومعجزة. (انتهى).

* * *

أدبهم في الكلب صالح للجميع

حيث كان اقتناء الكلاب في الزمان السابق من ضروريات الحياة: للبادية وأهل المزارع وأطراف البلد، فلا يوجد كلب إلاَّ له أهل يختصون به ويسمونه فيعرف اسمه، يطعمونه ويسقونه، فيألفهم ويتبعهم وينبح لهم ويحميهم فيغامر بنفسه لحمايتهم وأمنهم.

ولكن لا بد أن يحفظوا فيه حالتين أو ثلاث من الأدب اللازم.

الأولى: معروف أن وظيفة الكلب، أن يحمي أهله من الذئاب والسراق وكل من يريد يتطرق محلهم ليلاً أو نهارًا، إذا كان الكلب لا يعرفه[1] فإنه يفزع وينبح عليه وتشتد مقاومته إياه، ثم يقوم أهله ينهمونه باسمه ويشجعونه ويساعدونه، إن كان المحذور ذئبًا أو حراميًا، فإن كان إنسانًا غير حرامي فإنهم يزجرون الكلب عنه بقولهم: اربض ـ اربض أو نحو ذلك، فيعرف الكلب أنهم لا يريدونه ينبح عليه فيسكت ويهدأ ويرجع عنه ويتركه، وإذا رأوا محذورًا كذئب أو حرامي، وكان الكلب نائمًا أو غافلاً لم يعلم به، نادوا الكلب باسمه ونهموه ونخوه فيفزع وينظر إلى حيث يشيرون فيشم رائحته فيذهب إليه ويكفيهم إياه.

---

(١) أما إذا كان الكلب يعرفه من الجيران، فإنه لا ينبحه ولا يفزع عليه ويعرف حتى ريحه، وفي المثل (المعرفة تنفع حتى في الكلب).

لكن محل الأدب هنا هو: أنهم لا ينهمونه على غير شيء، فإن نهموه وفزع ولم يجد شيئًا: فالمرة الثانية إذا نهموه ولو على محذور، فإنه لا يفزع ولا يصدقهم ولا يهتم بقولهم ونهمهم، حيث كذبوا عليه ذيك المرة.

(فيستفاد منه): أن الإنسان يحفظ قوله وأمره ونهيه، في أولاده وخدمه ورعيته، فلا يقول إلاَّ صدقًا ولا يأمر إلاَّ بما يعزم على تنفيذه، حتى لا يستهان به وبأمره ونهيه.

أما الحالة الثانية: فهم لا يطعمون الكلب أكثر من الكفاية المعتادة فقط، لأنه إذا شبع فسق وذهب يتطلب الكلاب الثانية، أو ينام فلا يهتم لأهله.

الحالة الثالثة: لا يتركونه يجوع فربما أعطاه غيرهم لقمةً فتبعه وتركهم، وهذا الأدب إنما هو للكلب الْمُضَرّا على الأدب من صِغَرِه، أما الكلب المهمل فإنه لا يلتزم بشيء من الأدب.

وتعليم الكلب وتربيته عندهم سهلة تأتي بدون كلفة، وذلك أنهم يأخذونه جِرْوًا صغيرًا من عند أمه إذا قارب الفطام، ويربطونه أمام البيت، ويجعلون فوقه ظِلاًّ عن الشمس، ويطعمونه ويسقونه لبنًا إن أمكن لينشأ قويًا، ويدخلونه بالليل في البيت حتى لا يأكله الذئب، حيث كان صغيرًا لا يدافع عن نفسه، إلاَّ إن كان ثَمَّ كلب يحماه ضمن أهله، فإذا كبر وقوي أطلقوه، وإذا هو يعرف أهله وجيرانهم، فلا ينبح عليهم. ثم هو يشعر أنّ محلهم مُلْكٌ له يكافح عنه ما يكافح عن نفسه، أما إذا ذهب عن محل أهله فإنه لا يقوم بشيء من الكفاح، كما في المثل (الكلب ينبح عند باب أهله). يعني يصول حولهم ويقوي بأسه.

هنا مسألة:

احتاجوا كلبًا: وإذا حولهم كلبة مِجْرِي: لها أفراخ تحت أثلة أو خربة، (قد فرهدوا، وجدلوا، وصلحوا للتغذية) فقال الرجل لأولاده: اذهبوا إليها فارقبوها، فإذا ذهبت عن أفراخها فخذوا لنا واحدًا نغذوه كلبًا لنا، وقال: فإذا قربتم من الأفراخ فلا تأخذوا الْجِرْوَ الذي يتلقاكم ينبح ويهوش في صغره، ولكن عليكم بالخواف في صغره، الذي إذا رآكم هرب لأقصىٰ الجحر واختفى، فإنه هو الذي إذا كبر يكون شجاعًا شريرًا قويًا «واعتبر هذه الصفة حتى في أولادنا، في صغرهم أحسن». (انتهى).

* * *

نسيتي نسيتي: أحوال شعبية قديمة

فنحن قد أدركنا الناس على مثل هذه الأحوال. قال شاعر:

نسيتي المزح بالقبه ... ونسيتي لعبنا الطبه
نسيتي كشختي دايم ... ابثوب دوبلين خبخبه
نسيتي الركض بالطايه ... ايلا صار ابدارنا شَبّه
ايلا جابوا فضلة القرصان ... انتسابق ودنا انْلُبُّه
نسيتي ازعاجنا لامك ... وهي بالحوش منكبه
نسيتي معلف أم العوف ... تنظفينه وانا اكبه
نسيتي ثوبك التنتر ... وغضبك الانقطع حبه
ايلا جابت امك الوازلين ... نهج للحوش ما انحبه
تبي اتدهن قوايمنا ... وحنا نهوش وانسبه
وامك إيلا تهاوشنا ... تحط با عيوننا شَبِّه
نسيتي بصطت اعزيز ... ايلا جاء العصر بالقبه
نسيتي خَرْطه الماصل ... يجيب الحكي من عِبُّه
نسيتي القربه والشنه ... وماها البارد نَقُبُّه
نسيتي قولك امعصقل ... وانا أعيرك بالدبه
نسيتي نعالنا التليك ... هي الموتر ونلعب به

نسيتـــي مـــن كثـــر ركضـــك	أنـــا مسميـــك بـــالـــذبـــه
نسيتـــي مـــوعـــد الحنـــا	ايـــلا جـــا صـــابكـــم خِبّـــه
نسيتـــي طَيْحَتِـــك بـــالليـــل	وهـــي ظلمـــا وانـــا السِّبّـــه
نسيتـــي اكلنـــا الهبـــود	نتنـــاقَـــزْ والسبـــب حُبُّـــه
نسيتـــي ثـــوبـــك الكـــرتـــه	نكـــب فيـــه ونشبـــه
نسيتـــي تـــريكنـــا المصنـــق	نغسلـــه قبـــل مـــا نشبـــه
نـــدعـــى الله يـــا كـــود العنـــز	تجيـــب اوليـــد تلعـــب بـــه
نسيتـــي كيـــف اوصـــف لـــك	زمـــان يعلمـــه ربـــه
حلـــو رغـــم الفقـــر بـــالحيـــل	زمـــان راح وانحبـــه
نسيتـــي ليـــه مـــا أدري	دخلتـــي الـــوقـــت مـــن جبـــه
لـــك الـــدنيـــا وزخـــارفهـــا	واعطينـــي احظـــار مـــع قـــربـــه
ومعهـــن مسفـــع بـــالـــي	وثـــوب الـــلاس والطبـــه

(انتهت وإليك شرح معاني بعض ألفاظها):

القبه: هي القاعة في البيت (الصالة)، الكشخ: هي خفة الحركة مع الفرح والإعجاب بالمظهر والملابس، والشَّبُّه: هي المناسبة (العزيمة)، للقهوة أو العشاء، والشب: هو إيقاد النار لذلك، فيفرح الأولاد، وجعلوا يَجْتَوِلُون ويركضون في البيت والطايه: (السطح) فرحًا، رجاءَ أن يحصل لهم فضلة من العشاء القرصان (المراهيف)، نلبه: أي نلتقمه ونأكله بسرعة وحرص، والحوش: هو حوش البيت، المستراح، منكبه: أي نائمة (مضطجعه).

وأم العوف: هي البقرة، والمعلف: هو موضع علفها، (تبى

تدَهِّنْ قوايمنا)، القوائم: هي الأعضاء (اليدين والرجلين)، ففي وقت البرد وقلة المطر ينشف ظاهر القدم والكف، فيكون فيها مِشَق يقارب التشقق، فيدهنونها بالودك عند النوم ويسخنونها على النار، فيبراء، لكن ظهر الوازلين مع ظهور الصناعات الحديثة أَخَف لهم من الودك، فترك الودك، إعزيز، تصغير عبد العزيز، الخرط هنا: هو الكلام الغير موزون، والماصل: هو الوسخ الساقط، عِبُّه: أي من تلقائه ولو نسبه إلى غيره تزويرًا، والقربة: هي ظرف الماء في الحضر والسفر، وهي جلد شاة مدبوغ، والشنة: هي القربة إذا شننت أي تعبت، نِقُبُّهْ: أي نشربه بسرعة وحرص، امعصقل، فهذا نسبة لعصاقيل الرجلين النحيفة واحدها عِصْقول: هي الساقين، ونعال التليك، شبه الزنوبه، والموتر، هو السيارة، وكانوا يفرحون بالحنا: أي بالليلة التي يعملون بها الحنا في أيديهم، وطيحتها بالليل في الظلما وهي تمشي: لأنه خَطْرَفَ لها برجله في رجلها فسقطت فهو سبب طَيْحَتْها، والهبُّود: هو حب الحنظل البري (الشرى)، وذلك قبل وجود الفصفص، وهو المذكور في معلقة امرىء القيس «كَنا قِفِ حَنْظَلِ». ويحتاج عملية جيدة: أولاً: يجمعون الحنظل (الشرى)، يابسًا، ويكسرونه يخرجون حبه، يجمعونه ثم يغسلونه عن المرارة ويطبخونه حتى تزول مرارته، ثم يحمسونه رطبًا ومعه ملح، فيتفتح فينقمونه، أحسن من الفصفص، والتناقر: هو التهاوش والمغالبة، والشَّبْ: الحامض والملح، صالح للعين مسحوقًا يؤدبون به الأولاد في أعينهم، والتريك سراج، والصَّنَق: هو الصداء، والحضار: هو عريش من سعف النخل، وظلاله أحسن من المكيفات،

وكان يباع سعف النخل رطبًا ويابسًا حملاً على ظهر البعير، وكذلك خشب الأثل وحطب الأثل وغيره، ويوقدون بحطب الحضائر وقت الشتاء ويجددونها بالصيف.

قوله: رغم الفقر بالحيل: أي مع وجود الفقر الدقيق، لكن البال مستريح ذاك الوقت: والنعيم في راحة البال والرزق الحلال. (انتهى).

سئل بعضهم: لماذا ولد الأغنياء أسرع شباباً من ولد الفقراء، فقال: (إذا بكى صبـي الأغنياء قالوا له: اسكت دوك حلاوة، وإذا بكى صبـي الفقراء قالوا له: اسكت جاءك الملح في عينك. (انتهى).

* * *

خطر إهمال المحارم

قال الأديب، القحطاني:

لا تتركنَّ أحدًا بأهلك طائفًا ... فعلى النساء تقاتل الإخوان
إن الرجال الناظرين إلى النساء ... مثل الكلاب تطوف باللُّحمان
إن لم تصن تلك اللحومَ أسودُها ... أكلت بلا عوض ولا أثمان

أخطر ما يكون على الأهل والمحارم من الخدم، لتمكنهم من الاتصال والخلوة بهم، وقلّ من يسلم منهنَّ عند إهمال الرجال ذلك، وهذا هو الداء العضال الذي لا دواء له، وقد تواتر ذلك قديمًا وحديثًا، والحديث أكثر وأخطر.

فقد ذهب قديمًا شاب، ليعمل عند أهل القرى بالأجرة لطلب المعيشة، فعمل عند فلاح هناك لمدة شهرين، أجرة الشهر ريالين، وعند تمام المدة طلب من المعزب الرخصة ليذهب في سبيله؟ فأرخص له وأعطاه أجرته، وكان بقي من المدة يوم ليعمله، وفي صباح هذا اليوم، والشاب في عمله السواني والمرأة حوله تصلح علف المواشي: فأوحى إليه الشيطان ليفعل بها أمرًا فاحشًا، فأتى إليها وإذا ليس عندها تمانع بل فرحت، فلما قضى شأنه منها، قالت له: لماذا أنت تريد تذهب عنا؟ فقال: إن أجرتي قليلة، فقالت: أنا أعطيك ريالاً زيادةً

بدون يعلم زوجي، وأقول لزوجي فلان يزيدك ريالاً أيضًا ولا تروح عنا؟ فقال: لا بأس إذا حصل لي أربعة ريالات كل شهر، فأنا أبقى عندكم أعمل، فلما جاء زوجها بالليل، وجلسوا حول النار والقهوة، قالت له: إني سألت فلانًا العامل: لماذا يريد يذهب عنا؟ فقال: إن أجرتي قليلة، قالت: ولكن لعلك تزيده ريالاً ويبقى يعمل عندنا، هو أحسن لنا من غيره؟ فقال الرجل: نعم نزيدك ريالاً، واستمر في عملك، فبقي عندهم يعمل، وهو معها على هذه الحالة السيئة المؤلمة، عافانا الله من البلاوي. ولو تتبعنا الوقائع في مثل ذلك لطال الكلام، وقد قيل:

ألقاه في اليَمِّ مكتوفًا وقال إياك إياك أن تبتل بالماء

واليم هو البحر.. وقيل أيضًا:

ولا تثق من النساء بمودة فقلوبهنَّ سريعة الميلان

كيف؟ وقد قال النبي ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة إلاَّ وكان الشيطانُ ثالثَهما» الحديث رواه أحمد والترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» الحديث متفق عليه عن صفية رضي الله عنها.

ولا شك أن مصائب وويلات تحدث من تفرد الخدم بالنساء، ولكن يا للأسف الشديد مما يشاهد اليوم من تهاون أولياء أمور النساء وتمكينهم من الخلوة بمحارمهم مع السائقين أو العمال الخدم أو غيرهم فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فأين الغيرة وأين الحمية والشهامة والرجولة. (انتهى).

* * *

صلاح السرائر والنيات

قيل: كان رجل يقال له روضان قديمًا، قد زرع في غربـي منطقة القصيم ضاحية أمهات الذيابة. فماتت زوجته ثم ماتت البعارين (الإبل) التي تسقي الزرع، وكان له عبد مملوك له، من خيار الرجال أمانة وإخلاصًا لمواليه، فعطش الزرع وقارب أن يموت الزرع، ففكر الرجل في إصلاح حاله؟ فلم يجد له مراغًا إلاَّ أن يهرب للغربية مع رجال عُقيل، يطلب الرزق هناك، فإن رزقه الله رجع، وإلاَّ تغيب عن الدِّين ووجوه المعارف. فأعطا رجّاله العبد سبعة ريالات، وقال له: اذهب إلى السوق (مبيع الإبل) واشتر لنا ناقة نريد نركب عليها ونذهب للغربية، ونترك الزرع والوطن، حتى يرزقنا الله. فأخذ العبد الدراهم وذهب حسب أمر سيده، ولكنه فكر في رأي عمه فرآه غير موافق؟ فتصرف لعمه رأيًا آخر، فعمد إلى رجل من أهل البلد من أفاضل الجماعة يقال له (الربدي) فسلم عليه وقال إنه أرسلني إليك عمي روضان، يخطب البنت؟ لأن زوجته عمتي قد ماتت رحمها الله، فقال الرجل: أبرك ساعة، بارك الله بالبنت التي تقربنا من روضان.

(قلت: وهذا هو جواب كثير من الرجال ذاك الوقت، إذا خطبت منهم البنت وصلح لهم الخاطب على الفور)، فأخرج العبد خمسة

ريالات من مخباته وناولها الرجل، وقال هذه من عمي يقول قيمة طِيْب وإلاَّ العم ما يبغي لنا شيء؛ فأخذها الرجل وقال: لا بأس أبرك ساعة، هذه كفاية: قال العبد: متى يجيء عمي للدخول يا عم؟ فقال الربدي: تجون دور اليوم من الأسبوع إن شاء الله، تصلون معنا العصر للعشاء، وكانت عادة الناس ذاك الوقت يقدمون مائدة العرس بعد العصر. ثم عمد العبد إلى السوق، وقد بقي معه ريالين، فاشترى لعمه ثوبًا واشماغًا واشترى قهوة ولحمًا، وحملها على متنه وخرج ليلاً، فلما وصل طرف المزرعة أخفى الثوب والشماغ هناك، وجاء إلى عمه بما معه، فقال عمه: أين الناقة؟ فقال: إني ما وجدت بعيرًا يصلح وأعطيت الفلوس فلانًا الدلال يشتري لنا إذا وجد بعيرًا يصلح، ويقول: لا تجيء إلاَّ بعد خمسة أيام، فلما مضت خمسة الأيام، قال العم: اذهب وائت بالبعير، لا يضيق على الرجل بالعلف، فقال العبد:

ما هنا بعير يا عم، أنا تصرفت لك، عمدت إلى فلان الربدي وخطبت لك ابنته، فأجاب وأعطيته الفلوس وواعدنا غدًا للدخول، فدهش الرجل وأغمي عليه، وقال: حسبي الله عليك حنّا نريد نهرب بسبب الفقر والدين وأنت تورطنا في بنت الربدي بيت غناة؟ فقال العبد: يا عم مفاتيح الأمور بيد الله سبحانه، ولا تدري أين الخيرة: فأنت تريد تذهب للغربية تعمى دارك، ولكن تسبب لعل الله يفتح لك بابًا مباركًا، والعزائم معها الغنائم، فتوكل على الله ونفذ هذه الخطة حيث يسرها الله بدون اختيارك. فتراجع عقل الرجل وقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. لا يصيبنا إلاَّ ما كتب الله لنا، عسى الله أن يجعل العاقبة

حميدة، ثم حضروا حسب الموعد وتزوج بها ورحّلها إلى مزرعته، فلما دخلت البيت اعتذر الرجل منها وقال: يا بنت الرِّجال: الحال ما تخفى عليك، وأخبرها بالواقع كله، فقالت: لا يَكْرُبْك الأمر، سوف تيسر الأمور إن شاء الله، وبعد ثلاثة أيام أرسل الربدي عبده إليها، وقال له: اذهب إلى عمتك فلانة سلم عليها فقط وارجع. فأتى الخادم إلى سيدته وسلم عليها وسألها عن حالها؟ فقالت: أخبر أهلي أني بخير وعافية ومبسوطة، وقل لأبـي: (تقول فلانة إن روضان ما أخذ بنت الربدي: إنما أخذ الربدي) ولا يسمعك أحد، فلما أخبره ركب الربدي حماره وأتى إليها وقال ما الخبر؟ فقالت: الرجل طيب ولكنه فقير قد ماتت بعارينه، وعطش زرعه، فقال أبوها: سوف تيسر الأمور إن شاء الله تعالى، فرجع من فوره، فلما وصل بيته استدعى جمَّالاً صاحب بعير يكاري عليه بالأجرة، فحمّله طعامًا [تمرًا وقمحًا] من بيته، وقال: أوصله روضان في أمهات الذيابه، ثم خرج الربدي إلى الجردة سوق مبيع الإبل واشترى ناقتين، فأعطى رجلاً ربع ريال وقال: أوصل هذه الناقتين لروضان في أمهات الذيابة، يسقي عليها زرعه، فما علم روضان إلاَّ والْجَمَّالُ يدخل عليه الطعام، ففرح وفرج بعض همه، ثم جاءت الناقتين فحمد الله وفرج همه كله، ودعا للربدي بخير، فقام هو وخادمه وعسف الناقتين، أي علمها السواني، فأسقى زرعه، ثم هطلت الأمطار وجاد الزرع، وجاء كما قيل (هيل بلا كيل) فلما حصلت الغلة من البر، صار العبد يحمل على الناقتين قمحًا ويبيعه في سوق بريدة، ويقول للدلال أعط الفلوس للربدي، فلما انتهى البيع، قال العبد

للربدي قد انتهى البيع يا عم، ولكن خذ الذي تبغي منا جزاك الله عنا خيرًا، قال الربدي تعال، وأحضره بالمجلس، ثم أخرج الفلوس من المخزن وكبها زبرة على الفراش، ثم أخذ قيمة الناقتين فقط، وقال للعبد خذ فلوسك فأنت المعزب الآن، فحملها إلى عمه روضان وكبها في حِجْرِهِ وقال: خذ يا عم باقي الفلوس، قد أعطينا الربدي حقه وهذا زود، فقال روضان للعبد (تراك عتيق)، فأعتقه وزوجه واستمر في خدمة عمه في حياته، فأعقب هذا العبد عائلة كريمة ذات شرف ودين، وما عند الله خير وأبقى. كما قيل:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

وجاء في حديث «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: مؤمن أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والمرأة تحسن عبادة ربها وتحسن في حق زوجها، والعبد يحسن عبادة ربه ويحسن لمواليه» متفق عليه.

فانظر صلاح الأحوال إذا أنشئت على صلاح النية، وأخلص كل أحد لصاحبه كما يخلص لنفسه، فتنزل البركة وتوضع الثقة بين الناس، وتطمئن القلوب، فتتكون أمة إسلامية عزيزة يحبها الله ورسوله، وفي الحديث المتفق عليه في «الصحيحين» لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» يعني: (ولازمه أن يكره لأخيه ما يكره لنفسه).

قيل:

يَا مَا عَلى صَكَات بَقْعا تَلَزَّيْت ... مَرٍّ على بَرْدٍ وَمَرٍّ سموم

(انتهى).

* * *

ادســوس

كانت نساء العرب أكثر ما ترغب الرجل من أجل شجاعته، فتجد الرجل يغامر بنفسه في الشجاعة من أجل ذلك.

فهنـاك قَطِيـن عـرب، نـزل بجـوارهـم رجـل اسمـه (افليـح) لـزم جوارهم فأكرموه، يقول: فرأيت ابنة الأمير ذات جمال ونعارة، فطمعت بتحصيلها، فجعلت اسكب العقال، وأنصب هيكلي واتشجع لعلها تعشقني، كذلك الجماعة يكرمونني ويقدمونني في صدر المجلس على الشداد، عادتهم في أكرام الجار، وكان في الجماعة رجل شاب من كبار الأولاد، اسمه (ادسوس) لا يَشْكِل نفسه ولا يهتم لها، وإذا أتى للمجلس قصد آخره جهة الحطب فجلس واتكأ على زبرة الرماد، لذا فأنا لا آبَهْ له ولا أحسب له حسابًا.

وذات ليلة: جاءهم نِذَر بأنه قد أقبل عليهم قوم عدولهم يقاتلونهم يأخذون إبلهم، وأراد الجماعة أن يلوذوا بالهرب لعلهم يسلموا، فأمر عليهم أميرهم فارتحلوا، وأمر اثنين من الرجال وهم: افليح وادسوس، أن يتأخروا بعدهم، ويربطون خيلهم عندهم، يوقدون النيران بالحضائر والعِنَن (الحطب): لأجل إذا رآها العدو بالليل يظنونهم العرب في منزلهم فيتأخرون إلى الصباح (إذ الْخِدْعَةُ في الحرب من قُوَى الحرب)

وإذا هم قد أمكنهم الهرب، فقام الرجلان بإيقاد النيران، ثم ركبا خيلهما وتبعا ربعهما، وفي الصباح أتى العدو فلم يجدوا في المنزل أحدًا فتبعوا أثرهم، فوجدوا الرجلين يسيران على خيلهما في الطريق فتركوهما ومضوا يطلبون الحلال (الإبل).

والرجلان في حالة سيرهما في الطريق: كان افليح يحث فرسه فإذا مر على صاحبه ادسوس ينتخي ويقول: اليوم يومي يا ادسوس، فيسكت ادسوس: فلما لحقهم القوم وجاوزهم انتعش ادسوس ورجف فرسه فثار عزمها فلما حاذا صاحبه افليح انتخا وقال: اليوم يومي يا افليح، ومضيا ليدركا جماعتهما وحلالهم يحمونهم من العدو: فلما وصلا وإذا رجالهم قد استعدوا يقاتلون العدو دون الحلال، فتبعهم افليح ليساعدهم، أما ادسوس فلم يفزع معم، بل ركن إلى الْعَطَل، فاستقبلته النساء وبنت الأمير ينخنه ويشجعنه ليركب ويفزع يفك الحلال من القوم العدو، فأبـى وأخذ فروته وتنحا هناك، والتحف الفروة ونام، فتسلطت عليه ابنة الأمير واستقبلته تنخاه: فيقول لها: بِالْغِيْضَة؟ فتعيد عليه النخوة؟ فيقول بالغيضة؟ فتضربه برجلها وترفعه بيديها فيقول: بالغيضة؟ فلما رأته لزم العطل إلا بالغيضة، قالت قم قم بالغيضة بالغيضة، فانتعش وقام وألقا الفروة: وإذا هُنَّ قد احضرن فرسه ورمحه، فركبها وأرخى لها العنان في إثْر الخيل، فلقيه الجماعة راجعين منهزمين عاجزين عن مقاومة العدو وحماية الحلال (الإبل) فتركهم ادسوس ومضا في طلب القوم، حتى أدركهم ومضا حتى جاوزهم، فلف فرسه عليهم ولقيهم من قبل وجوههم، فجعل يقتل فيهم حتى أثخنهم

فانهزموا وتركوا الإبل، فأرجعها لأهله، فلما وصلهم لقيته النساء تستقبله وتشجعه وتمدحه: ثم حملنه من فوق الفرس على أيديهن حتى مجلس الرجال فوضعنه، فقصد مجلسه العاده حول الحطب واتكأ على زبرة الرماد.

يقول افليح: فَقَبَحْت نفسي وتصاغرت في أدنى المجلس، وخجلت من ازدرائي إياه قبل: إذ أني أراه يَتَهَرْدَسْ ولا يشكل نفسه، ولم أكن أعرف له سابقة بأنه هو فارسهم ولكن كما في المثل (الرجال مخابر ما هم مناظر). وقال الشاعر:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

والمثل الآخر (هي بالهمم لا بالرمم)، يقول: زد على ذلك، أني رأيت أمره تطور في اللحظة، فهذه البنت الجميلة ابنت الأمير صار عندها حركة عجيبة: قامت فقطبت البيت: أي سترته وتجملت وتهيأت له فقام ودخل عندها: فهي زوجته سابقًا وأنا لم أعلم بذلك، ولكنها قد طمحت عنه (نشزت) كما هي عادة بعض نساء العرب فطماحها عنه، هي الغيضة التي هو يطلبها منها تسمح بها، فترك واجبه حتى تقوم هي بواجبها له، فحين رضيت له انبعث عزمه كما تراه. والغيظة عندهم: هو الزَّعَلْ.. (انتهى).

* * *

في قواعد وأمثال

قيل: (عَرِّضْ عند كريم ولا تسأل لئيم)، يعني إذا كانت لك حاجة فالإنسان الكريم مظنة قضائها، ولو لم تسأله وجعلت تعرض: أي تلمح بذكر حاجتك حوله، وأما اللئيم فإنه لا منفعة فيه ولو صرحت له بحاجتك.

وقيل: (الشرط غلب على السالفة)، السالفة هنا هي: العرف والعادة، والعمل عليه عند الناس، إلاَّ إذا اشترطت فالشرط مقدم.

وقيل: (من لا يشارط يروح يضارط) يعني ربما يغلب.

وقيل: (كلب ينبح لك ولا كلب ينبح عليك).

وقيل: (الذي ما يعرفك ما يثمِّنك).

وقيل: (الكذب زُمَالَةٌ رَدِيَّةٌ)، الزُّمالة هي: المركوبة من بعير أو حمار أو غيره، والردي لا يوصلك مطلوبك.

قال الشاعر العربـي:

أبـا منـذر أفنيـت فـاستبـق بعضنـا   حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقال شاعر عربـي أيضًا يصف معشوقته.

كـأن مِشْيتها مـن بيـت جـارتهـا   مَـرَّ السَّحـابـة لا ريـث ولا عجـل

وقال شاعر نبطي :

يـا حمـود يـذكـر عشيـري مـات   عِقْـبَ الْغَضِـيْ وش حَيـاتـي لـه

(انتهى) .

* * *

من جهل شيئًا أنكره

الساعة حدثت من الصناعات الحديثة، فمن نوعها الأول تسمى: (راس كُوب، ونصف راس، وربع راس) للرجال خاصة، لها عروة منها، يربط بها خيط أو سلسلة وتربط بجيب الثوب، ويجهلها بعض الناس، ومن جهل شيئًا أنكره. جاء جماعة من البسطاء، وضافوا عند صاحب دار، فأجلسهم بالمجلس، وجعل يصلح لهم القهوة وهو يحب أن يذهبوا عنه، لعلمه بشراسة طبعهم. وكانت عنده ساعة (رنان جرس تنبيه) وتسمى ذاك الوقت (ساعه خَرّاشة).

المقصود أنه أخذها وعبأ زنجيلها (الزنبلك) وركَّبها على الرن (ويسمى خرش) ووضعها مكانها، وهم ينظرون إليها مستوحشين منها، فلما قارب انطلاق صوتها أخذ الملقاط، ورفعه عليها كأنه يريد ضربها، وقال لها أعطينا سبعة أشواط وإلا ضربتك بهذا الملقاط. ثم انطلقت تصرخ شوطًا بعد شوط، فانزعجوا منها وقالوا: بسم الله، بسم الله، وقاموا وهربوا.

ولما ظهرت ساعة اليد للرجال والنساء، أنكرها بعضهم للرجال: لأنها تشبه حُلِيْ النساء في يد الرجل. فقال عبد الهادي السبيعي في ذلك شعرًا نبطيًا:

لو يجلب عقل إبحائل والقصيم والشام وجميع الأماكن ما يسام
مـا يسـومـه مـن تشبـه بـالحـريـم يقـول هـذا نـاقـص وعقلـي تمـام
كـان هـي سـاعـة فْلَهَـا رَفٌّ قـديـم وإن كان هو خِصِرْ قد أتيت بملام

إلى آخر كلامه.

والرف القديم هو المخباة الصغيرة على الصدر. (انتهى).

* * *

الدار مثل البنت يفتش مغطاه

ذهب رجل من الجماعة، واستوطن إحدى البلدان، فاتخذ له دكانًا يَتَّجِر فيه، وذلك في وقت إمارة بعض الأمراء الظلمة، وفي ذات يوم، لما أصبح الرجل: وجد دكانه مكسور بابه ومسروق ماله، فتقدم إلى الأمير، ووقف أمامه عادة الناس، حيث يقف المشتكي أمام الأمير فيخبره بحاله وشكايته، ثم الأمير هو يتولى التنفيذ بنفسه من ساعته، فهذا الرجل لما أخبر الأمير بالواقع، غضب عليه الأمير وقال: أرا أنا أخوا أبوي، أنت تحط أهل بلدنا مسرق ياللي كذا وكذا، يتهدده (رُحْ لأجدع رأسك هالحينْ) فتقهقر الرجل إلى ورا، فلما وصل الدرج وقف وقال:

يا شيخ عِفْنا الدَّار يا شيخ عفناه　　دَارٌ لَعَلَّ الْبُومْ يَلْعِي بجالَه
الدار مثل البنت يفتش مغطاه　　لا عاد ما تخشى عواقب ارجاله
ومن قاد للسرج ينطح رزاياه　　ومن لا يبعثر المغراب ما يشرب زلاله

فقال الأمير تعال: تعال اجلس، ثم إن الأمير أمر أحد رجاله أن يذهب ويتطلب مال الرجل ويحضره بكامله، وتوعده إذا لم يحضره، أو يفقد منه شيء. فذهب الخادم ثم أتى إلى الأمير، وقال حضر ماله كله، فقال الأمير للرجل قم استلم مالك وتفقده وإن كان ناقص منه شيء فارجع إليَّ. فذهب الرجل ووجد ماله قد حضر كله.

فانظر شجاعة هذا الرجل، بين يدي هذا الأمير الظالم، وفي حالة تهديده، وانظر قوة كلامه في قوله:

الـدار مثـل البنـت يفتـش مغطـاه ايلا صار ما تخشى عواقب رجاله

وقوله لعل البوم يلعى بجالها: البوم هي البومة، وهي طير أبيض غير كبير، يطير في الليل ويأكل من طيور الليل، ويسكن في خراب البيوت، لا يسكن في البيت العامر المأهول الذي فيه أهله، فإذا ماتوا وخلت البيوت، تجد البوم يلعى يبوي فوقها، يقول بوبو، وهذا هو غراب البين في قـول الشاعر الآخر: (وهذا غراب البين في الدار ينعب)، معناه: أن أهلها ماتوا وخربت فسكنها البوم، وينعب كأنه ينوح فوقها.

وقوله: (من قاد للسرج ينطح رزاياه)، يعني من استعد للحرب وركب سرج الخيل فليصبر على ما يلاقي من الشدائد والصعوبات، ومثل ذلك الإمارة وغيرها.

وقوله: (ومن لا يبغثر المغراب ما يشرب زلالها)، وذلك أن أكثر أعمال الناس كانت في البر والأسفار، ودائمًا يحتاجون الماء يستقونه من الآبار البرية، وقد لا يحصل لهم إلا بصعوبة، وقد يجدون البئر قد سقط فيها تراب ودفن مائها، وصار التراب في الماء أسود [اغربه] منتن، فيضطرون أن يحفروا البئر يخرجون التراب المنتن عن موضع الماء فيها، ثم يجلسون عندها حتى يجم الماء الصافي مكان المغراب، فيشربون منه، ويروون القرب والأواني، وإذا تكاسلوا عن حفر البئر وإخراج التراب المنتن منها فإنه لا يحصل لهم ماء زلال صافي، وهكذا

كل إنسان لا بد أن يذود عن أموره ما يضادها ويفسدها عليه وإلاَّ لم يحصل له ما يريده بالتي هي أحسن. (انتهى).

قيل: (من جد وجد).

وفي الحديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» رواه الترمذي، (قل خير أو اصمت)، (الصمت حكمة وقليل فاعله).

وقيل: (من كثر هذره قل قدره)، والهذر هو كثرة الكلام بغير لازم.

جاء في الحديث: «أتدري ما الغيبة هي ذكرك أخاك بما يكره» رواه مسلم.

قيل: بعض الناس يعيش لنفسه، مثل شحم الكلب لا ينتفع به أحد، كما يقال: (موت الحمير من بخت الكلاب).

وقيل: (كل إناء بما فيه ينضح). (انتهى).

* * *

نواة الإيلف في الزوجين

هي حالة غريزية تملك الروح والجسم: يكوِّنها الله سبحانه، حالة اجتماع الزوجين في الزفاف، وتتزايد المودة باستمرار الإتلاف الزَّوْجِي. (فالرجل يملك عصمة المرأة، وهي تملك منافعه)، وكان العرب يأتون بالبنت إلى الزوج يزفونها إليه في بيته زفًا، لرفع درجة الرجل على المرأة، كما في قولهم: (المرأة فراش الرجل)، أي زوجته، ويقولون: فلانة: وكانت تحت فلان: أي زوجة له، وهذا في القرآن: قوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾(١). فالمرأة تحت الزوج حِسًا ومعنىً: فاصطناع رفعة للمرأة بإزاء درجة الزوج في هذا الزمان عند بعض الناس، تغيير لفطرة الله التي فطر الناس عليها.

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى في تأريخه (البداية والنهاية) في ترجمة معاوية، أن معاوية رضي الله عنه زوج ابنته (فأدخل عليها الزوج في بيته لأنها إبنت الملك)، فلما بدأ الرجل بشأنه، استغربت هي الحال، فأبت ونفرت، فضربها الزوج، فصاحت، فسمعتها الجواري فصاحت الجواري، وسريعًا بلغ الخبر أباها معاوية، فأتى وطرق عليه

---

(١) سورة التحريم: الآية ١٠.

الباب، فخرج إليه الرجل فكلمه معاوية برفق قال: إنه لا يصلح أن تُضرَبَ هذه في مثل هذه الليلة، قال: إنها أبت، قال: دعني أُوطِّئْها لك فدخل عليها أبوها وكلمها قال: إنه زوجك ولا يصلح أن تمتنع المرأة على زوجها، أما سمعت قول الشاعر في مثلك:

وَبَيْضَاةُ خِدْرٍ أمَّا حَرامُها فَصَعْبٌ وأَمَّا حِلُّها فَذَلُولُ

فهدأ بالها، فخرج وقال للزوج ادخل فقد وَطَّئْتها لك، فدخل عندها فصلحت الحال.

(أما معاني كلام الشاعر)، فقوله: بيضاة خدر: (هن البنات المخبآت في الخدور (البيوت)، واحدتهن بيضة خدر، وهي البنت المستريحة في البيت، الهادئة البال مكفية الهموم، ناعمة الجسم.

قوله: حرامها صعب: أي لأنها شريفة عفيفة حصينة، لا يعبث بشرفها، فلا يطمع أحد بشيء منها في الحرام، (لأن المراد بالصعب في الأصل: هي الناقة، في أول عمرها صعبة لا يستطاع ركوبها ولا الحَمْلُ عليها، إلا بعد العسف والتعليم، فإذا عسفت وتعلمت ذلك صارت ذلولاً مرحلة، منقادة لصاحبها هادئة البال، لا تكترث بركوبه أو حمله عليها، وهكذا البنت الشريفة الأمنية لا يُطمع بها في الحرام. أما لزوجها في الحلال فهي تكون مطيعة منقادة له في كل شؤونه، مثل الناقة الذلول لصاحبها أينما يريد يوجهها توجهت من غير تكره، (فهذا معنى هذا البيت العربي الفصيح)، لأن هذه سنة الله في خلقه، ولا تصلح أحوال الخلق إلاَّ هكذا.

هنا مسألة:

نادر أن يكون بعض الرجال فيه لين في الأعصاب، فلا تنمو النواة الزوجية، قيل: تزوج شاب شابة ورحّلها لبيته، وحين زارت أهلها وإذا هي غير مبسوطة، ولما زارتهم ثانية أبت أن تذهب معه، فعزموا عليها فذهبت، ولما جاءت الثالثة أبت الذهاب معه، فسئلوها ما السبب؟ فقالت: إنه عِنِّين، فقالوا: هذا عذر شرعي إن كان صحيحًا، فسئلوه عن صحة قولها؟ فقال: نعم صحيح، إنما هو لين في الأعصاب، ولكن أنا أريد أتعالج إنشاء الله لعلي أجد سبب عافية، فقالوا: نحن لا نريد فراقك إن صلحت الحال. فذهب الرجل يسأل عن سبب يشد الأعصاب؟ فذكر له (الجزر أو الحلبة) أكلاً وشربًا نيءً، ومطبوخًا، فعامله الرجل وبعد مدة غير طويلة أحس من نفسه القوة والصلاح، فأتى إليهم فأرسلوها معه فصلحت الحال، فاستحيت هي أن تزور أهلها بعد ذلك، فلما أبطئت عنهم أتوا يزورونها هم، وإذا هي مبسوطة ناعمة والحمد لله رب العالمين. فاقترح الشاب قصيدة يمتدح بها الجزر والحلبة، ولكن أنا لم يتيسر لي الوقوف عليها، فمن هي عنده فليتحفنا بها؛ شاكرين له.

وهنا مسألة:

يوصي بعضنا في هذا الوقت: بالرفق بالزوجة حال الدخول عليها في الزفاف، ويوصي بترضيها وتقديم الهدية لها ونحو ذلك، (فهذه الوصية طيبة) لكنها تدل على أن الموصِي غير خبير بغرائز النساء: وإنما هذا شيء يتصوره هو نفسه، أما الذي قد جرب وعرف كثيرًا من

أحوالهن، يعرف أن المرأة تتشوق لقوة الرجل ونشاطه وسرعة بادرته وصلابة عضلاته، أما إذا بدأ أمره معها بنوع من الأنوثة فإنه يهون أمره في نفسها، وتنزل درجة رجولته بإحساسها، حتى ربما استحالة أنوثتها بإزاءه إلى الترجل الذي قد يخرجها إلى ما لا تحمد عاقبته لهما. ولسنا نعني بالقوة والنشاط والصلابة أن يكون شرسًا عليها مضرًا بها، فهذا لا يرضاه أحد لإبنته وأخته؟ وإنما نعني به الحالة التي تحقق رجولته وأنوثتها تمامًا، فكما أن الرجل يتشوق ويلتذ بلين زوجته وترفها ونعومتها: فهي بالعكس تتشوق وتلتذ بقوته وصلابته وخشونته، (ولولا خشية الإطالة لذكرنا قِصَصًا واقعية تشهد لما ذكرناه) (فاسأل مجربًا ولا تسأل طبيبًا)، وقال المهادي:

قلتُ اللّهمّ لا بَلَّهم وابل الحيا ولا جاذبوا بيض الترايب ثيابها

والرجل بطبيعته يحب إكرام زوجته، وإفراحها، وإراحة بالها، وترفيه عيشها، وتأمين سلامتها، ويغض طرفه عن بعض زلاتها ونواقصها، كذلك المرأة تبتهج بخدمة زوجها، وطاعته وإرضاءه، لأنها خلقت منه، ونهمتها فيه، فلا ترتاح نفسها إلاَّ معه، لا يعوِّضْها عنه ولد ولا والد، كما تقول بعضهن (الرَّجُلُ الطَّقّاقُ ولا الأيمة): تعني أن الصبر عليه أحسن من الصبر عنه.

واعلم أن المرأة خلقت باردة المزاج، فلا تكترث بقوة الرجل ونشاطه وصلابة عضلاته مع حسن السيرة والمعاشرة بالمعروف، بل هذا هو أملها وغاية أمانيها، وإن أظهرت هي بعض التدلل والتمنع والكيد، فهذه سجية غالبة على كل أنثى، فالذي عرفناه عنهن حقيقة:

هو ميلها الغريزي إلى ما ذكرناه، فما تريده بها أنت هي تهواه منك، فالنساء شقائق الرجال، كما تقدم، حتى إن بعضهن تصف الرجل الليِّن بأنه مثل الطعام الذي ليس به ملح: وبعضهن تصفه باللبن الساخن، ونحو ذلك.

ثم لا تظن أن المرأة ضعيفة على الإطلاق: بل إن لَهُنَّ كَوامِنُ تخفى على بعض الرجال، كما قال الشاعر:

أفـاطِـمُ مهـلاً بعـض هـذا التـدلـل ... وإن كنت أزمعتي هجري فأجملي
وإن كنت قد ساْتكِ مني خَلِيقَة ... فَسُلِّي ثيابي من ثيابك وانْسِلِي
أَغـرَّكِ منـي أن حبـكِ قـاتلـي ... وأنكِ مهما تأمري القلب يفعلى
ومـا ذرفـت عينـاكِ إلا لتضـربـي ... بسهميك في أعشار قلب مُقَتَّلي

هذا وخير الأمور أوسطها، والله أعلم وصلّى الله على محمد.

أما قولهم: (الرجل يملك عصمة المرأة)، فذلك أن الزواج نوع من الرِّق: فالزوج يملك حرية المرأة بالمعروف، فتبقى في بيته تحت أمره، ولا تخرج إلاَّ بإذنه، وعليها رعاية بيته وماله فيه وأولاده، كما هو معلوم.

وقولهم: (وهي تملك منافعه)، أي تسكن في بيته وتأكل من طعامه وشرابه وكساءه، ويلزمه حمايتها وصيانتها، فخرجت من إمرة أبيها وأخيها، ودخلت تحت إمرة زوجها، فأولاده أولادها، وغناه غناها، وعزه عزها، وشرفه شرفها، فهي ملكة بيته ومدرسته، وهو أمير عليها، فهي له كالروح للجسد، فإن صلحت صلحت أحواله وأولاده، بإذن الله، وإن كان غير ذلك فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله. (انتهى).

قال الشاعر:

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾[1]، فهل يستطيع أحد أن يمسكها أو يرجعها من المغرب؟ وهذه هي حجة إبراهيم الخليل حيث ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[2].

ثم لو سكنت الرياح لتضرر العالم، فهل يستطيع أحد غير الله أن يثيرها؟ فسبحان الخالق القادر.

قيل: أعداء العرب والمسلمين: يستهترون بهم، ويدسون لهم السم في الدسم، ينصبون لهم الحبائل يبغون لهم الغوائل، ويبذلون كل مستطاعهم في كيد العرب والمسلمين ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[3]. ونشرت بعض المجلات في بعض الدول، قال المستهتر: (إني أخذت إفريقيا لأذبحه فَعَضَّ يَدِيْ من شراسة طبعه) فهل فوق هذا الاستهتار؟ فاحذروهم. وقديمًا قيل:

اللي ما هو على دينك لا تظنه بيعينك
مهما تكرمه بيهينك يوقد عليك البارود

(انتهى).

* * *

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

فضل الزوجة

هل تعرف فضل الزوجة كي تحرص عليها، وتصبر على النواقص منها؟، قال: (صبري على الحبيب ولا صبري عنه).

وقيل أيضًا:

لَـــوَا حَـــلالات يــا لْمَلْفـــىٰ لــو هـــي عجـــوز ومجنـــونــه
مِـــزَرْ وَرْكَـــهْ تِقِـــلْ شَلْقَـــا وتــوحــش النــاس بــا عيــونــه

والملفى هي الزوجة في البيت.

وتقول النساء: (الرجل الطَّقّاق ولا الأيمه): والأيمة هي قلة الزوج، تعني: أن الزوج أحسن من عدمه ولو كان فيه ما فيه.

كـراهـة الطـلاق

جاء في الحديث «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» رواه أبو داود وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما، فالله سبحانه لم يشرع الطلاق من أجل التلاعب بالحياة، وإنما أباحه عند الضرورة فقط، طلق رجل زوجته في عهد عمر رضي الله عنه، فقال له عمر لِمَ طلقتها؟ فقال الرجل: إني لا أحبها، فقال عمر: أَوَ كُلُّ البيوت مبنية على الحب، أين الصحبة والذِّمام.

القصة ذكرها السفاريني في «غذاء الألباب».

قال الله تعالى: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾[1]. فإذا كانت الزوجة صالحة حافظة ومبقية على زوجها، فربما رزق الله منها أولادًا كذلك وفيهم خير.

وإليك كلمة الزوجة الصالحة، قالت:

طول الجدار وقصرة الرجل نوماس ايلا صار ما للرجل داع دعاها

تعني أن لزوم المرأة بيتها، وعدم خروجها، هو الشرف للمرأة والمطولة والنوماس لها عند الله وعند خلقه، والنوماس: هو الشرف (ضد العيب). (انتهى).

* * *

(١) سورة النساء: الآية ١٩.

جَـلاّل وجـهـم

كان شاب من رجال البادية: يسقى إبله على البئر (المارد البري)، جاءت امرأة عجوز على ناقتها، وتركتها تقصد حوض ماء إبل الرجل تشرب منه، عادة الناس في مثل ذلك، ولكن الشاب صاحب الإبل (شاب مغرور فسقان)، أراد أن يستهتر بالعجوز، فأومأ على ناقتها بيده يطردها عن الماء، فعتبت عليه العجوز، فشهقت وقالت: أبوك: (جعلك ما تجاضِـعْ جهم)، فانتبه لقولها والتفت إليها وضحك لها، وارجع ناقتها لتشرب من الحوض وقال: يا عمه ما هي جهم؟ قالت: أبوك، جهم ما هي لك ولا أنت لها، فأعاد السؤال وألَحّ إلاّ تخبره؟ فقالت: إنها ابنة فلان: (شيخ القبلة الفلانية)، فتركها تذهب في سبيلها.

ثـم إنـه تـرك الإبـل بيـد أهلـه، وذهـب يسـأل عـن ذيـك القبيلـة وشيخها، حتى وجدهم. فبقي عندهم افداويًا، يتهردس، ويتغرغر، ويخدم حولها في البيت، كأنه قاصرًا من الرجال، وسألوه: ما اسمك؟ فغير اسمه وقال: أسمى جلاَّل (نسبة لِلْتِقاط الجلة والخدمة)، فبقي عندهم مدة على هذه الحال وهذا الاسم، وهو يعلم أنها لن تحصل له إلا أن يتميز بفعل شجاعة يُرى. حتى أتاهم اليوم الأقشر، جاءهم قوم وأخذوا الإبل. ففزع شجعان الرجال وعجزوا ثم افزعوا بقية الرجال، وقامت البنت (جهم) تنخا جِلاّلاً ليفزع معهم، فقال: أنا لا أعرف

ركوب الفرس؟ فلم تعذره، بل ألزمته بالركوب، وجعلت تحمله هي على ظهر الفرس فيسقط من الجانب الثاني، فتهز به لتثير عزمه فتقول:

أبوك يا جلال وان مت بارضنا　　والله ما يشقق عليك جيوب

فيقول هو:

أنا جلال وإن مت بارضكم　　والله إن يشقق علي قلوب

فتعجب من قوله هذا، وهذه حاله؟ (وتعنى بالجيوب هو شق الجيب حالة النياحة عليه إذا مات)، عاداتهم في الجاهلية.

ثم تحمله عليها من شدة وجدها لأن يفزع مع الرجال: لعل، ولعل، فيسقط فتقول له ذلك: فيجيبها بمثل ذلك. وأخيرًا تمسك على ظهر الفرس من غير اعتدال وذهب حتى غاب عن البيوت، فنزل عن الفرس وضبط ربط حبالها، ثم ركبها معتدلاً وأرخى لها العنان في إِثْرِ الخيل، فلقيه الجماعة راجعين منهزمين عاجزين عن مقاومة القوم، وفكاك الإبل، وهذا هو مراد جلال بتخلفه عنهم، لأنه إذا كان مع الجماعة لا يظهر له فعل يتميز به عن غيره، فتركهم ومضا في طلب القوم والحلال، حتى أدركهم، ومضا حتى تجاوزهم، فرجع عليهم وأتاهم من قبل وجوههم، فجعل يقتل فيهم حتى قتل بعضهم وهرب بقيتهم، فأرجع الحلال (الإبل والخيل المقتول رجالها من الفريقين)، فلما قرب من جماعته أوقف الخيل وأخذ أعنتها (الْمِعْط) معه، يريدها علامة على فعله وأنه هو الذي قتل القوم وفك الحلال، فلما قرب من البيوت ترك الحلال يرعى، ليس معه أحد وحاد هو عنه، حتى لا يعلم به أنه هو صاحب الشأن، ثم وضع أعنة الخيل تحت شجرة وأخفاها، ثم

غير ركوبه على الفرس متمايلاً، وأتى على أعينهم على هيئته حين ذهب منهم، ليعمى المسألة حتى تظهر النتيجة المقصودة له، فلما رأوا الحلال أقبل فزعوا إليه على الخيل، فلم يجدوا معه أحدًا يذوده، فكل واحد منهم طمع بالفوز بالمجد بالظفر، فادعى كل واحد منهم أنه هو الذي قتل القوم وفك الحلال.

فلما تلافوا بعد المغرب في مجلس الأمير (أبـي البنت (جهم)، اهتم الأمير وحرص أن يعرف: من هو الذي كر على القوم وقتلهم وفك الحلال، بعدما عجزنا ورجعنا خائبين؟ (ويريد بذلك تشجيعهم للمرة الثانية)، قال: فهذا هو البطل الذي يستحق أن نكافأه بما لم نكافىء به غيره، فمن هو؟، فكثر المدعون لذلك، ولكن الأمير فطن لشيء لم يفطنوا له فقال: أين المعط؟ يعني أَعِنَّةَ الخيل: فقالوا لا ندري: قال: إن الذي عنده أعنة الخيل هو الذي قتل القوم وفك الحلال؟ فأحجموا كلهم لم يحضرها منهم أحد، ثم قال: واللّه يا مَنْ أَحْضَرَ أَعنة الخيل إن يرقد الليلة عند جهم؟ وهذا هو الذي يريده جلال، فقام وانسل خفية تحت ظلام الليل وأخذ الأعنة من الشجرة وأتى بها في الظلام لم يعلم به أحد، حتى وصل الأمير في مجلسه حول النار، فألقاها بين يديه وقال: تفضل يا طويل العمر، كل أمر له شاهد وهذا شاهده منه، فقال الأمير نعم أنت البطل صاحب هذا الأمر، ولكن أخبرنا ما اسمك فلست جلالاً؟ فقال: أنا فلان ابن فلان من القبيلة الفلانية. فقام الأمير وهيأ له البنت (جهم) وعقد له وأدخله عليها. (انتهى).

* * *

في ذم البخل

قال شاعر:

تَغَطَّ بأثواب السخاء فإنني ... أرى كل عيب فالسخاء غطائه

وقال:

وذي حرص تراه يَلِمُّ وَفْرًا ... لوارثه يدافع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ ... فريسته ليأكلها سواه

وقالوا: تجمع النّمالُ وتَرُمُّهُ الجِمالُ، أي تأكله الإبل، وهذا فيه وصف البخيل حيث تصيب ماله آفة. وقال المتنبي:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فَقْرٍ فالذي فَعَلَ الْفَقْرُ

وكذلك الإسراف والتبذير حرام ومفسدة للمجتمع، فلا تترك الأسباب ولا تعتمد عليها، ولكن افعل السبب وتوكل على الله سبحانه. وقال ابن الوردي:

ما يخلُ المرء من ضد ولو ... حاول العزلة في رأس جبل

قيل: اتبعوا في الدين ولا تبتدعوا فقد كفيتم، فإن الأول لم يترك للآخر شيئًا. (انتهى).

* * *

ومن فوائد النحو

فإنه من لوازم اللغة العربية الأساسية، لأن الكلام بدون نحو يدخل عليه اللحن فيفسده بتغيير معناه.

فهناك رجلٌ سَأَلَ رجلاً (ما فَعَلَ فلان بِحِمَارِهِ؟) فقال: باعِهِ، فقال: لا تقل باعِهِ، قل: بَاعَهُ، فقال ما الذي جعل بائكَ تَجُرُّ وبائِيْ لا تَجُرُّ؟، فبمثل هذا اللحن الفاحش، يظهر صحة قول القائل:

لو تعلم الطير ما في النحو من شرف — حَنَّتْ وأنَّتْ إليه بالمناغير

قيل: كان شاب له جارية مملوكة له، وقد نفد ما عنده من المال وأراد بيعها، وكانت شاعرة ذكية عربية، فقالت للشاب سيدها: اهدني للأمير فلان لأجل يعطيك أكثر من قيمتي بالسوق، فوافق على رأيها وذهب بها إلى الأمير فاستأذن عليه، فلما دخل عرضها عليه هدية، فنظر الأمير إليها وردد النظر، ثم قال: لولا خنس في أنفها وكَلَف في وجهها لقبلناها منك. فرجع بها سيدها، فلما وصلت الدرج التفتت وقالت: أيها الأمير: ردني إليك أنشدك بيتين حضراني، فقال الأمير: هاتي، فقالت شعرًا:

ما سلم الظبي على حسنه — كلا ولا البدر الذي يوصف

الظبي فيه خنس أنفُهُ — والبدر فيه كَلَفٌ يعرف

فعرف الأمير ذكائها، فقال هاتها قبلناها منك.

وأهديت جارية إلى الأمير، فقال الأمير لشاعره بشار، اختبرها بالشعر؟ فأتى إليها بشار وقال: أتقرضين الشعر؟ قالت: نعم.

فقـــــال بشـــــــار: الحمـــــــد لله كثيـــــــرًا

فقـــالـــت الجـــاريـــة: حيـــث أنشـــاك ضـــريـــرًا

فغلبته، فقام وهرب وشتمها، وقال للأمير اشترها فإنها ذكية.

فانظر كيف رفع النحو جارية مملوكة. (انتهى).

* * *

كـرم الـنـفـس

قال الشافعي رحمه الله تعالى:

يـا لهـف نفسـي علـى مـال أفـرقـه ... علـى المقليـن مـن أهـل المـروآت
ان اعتـذاري ممـن جـاء يسـألنـي ... ما ليس عندي لإحدى المصيبات

(وجاء في الأثر عن بعضهم قال):

هـــذا الـــذي كنـــا نُحَـــاذَرُهُ ... في قول كعب وفي قول ابن مسعود
إن دام هـذا ولـم يحـدث لـه غُيَـرُ ... لن يُبْكى على ميْت ولن يفرح بمولود

والفرق في كلمة مَيْت ومَيِّت (مَيْت بجزم اليا) هو الذي قد مات وانقضى، وأما مَيِّت بتشديد اليا وكسرها فهو الحي الذي يوعد بالموت أو يوصف به، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[١]. يعني سوف تموت ويموتون.

وقال الشاعر العربـي:

ليـس مـن مـات فـاسـتـراح بِمَيْـتٍ ... إنَّمـــا المَيِّـــتُ مَيِّـــتُ الأحيـــاءِ

* * *

(١) سورة الزمر: الآية ٣٠.

علو همة الإبن وعزة نفسه

كان الأعراب قد اعتادوا الغارات، ونهب الإبل من بعضهم، وهذا الرجل لا يريد يغزو، وقال لابنه: يا ولدي لا نريد نغزو مع الناس، ولكن إذا جاءوا بالغنائم نطلب من بعض الجماعة وَيُحْذُونَنا[١]. (يعني يعطوننا من الإبل)، لكن الابن لم تخضع نفسه لهذه الدناءة فقال جوابًا لأبيه:

يـابُـويَـهْ طَـلاَّبَ الْحَـذايـا امْقَمَّـحْ　　　لا عادِنَّ الحذايا ضُمَّرٍ واعْجـاف

ومعنى ذلك أنه إذا جاء الرجال الغزاة ومعهم الغنائم (الإبل) لقيهم سَقِيْطُ الجماعة يطلبون منهم الْحَذَايـا، يقول أحدهم، (الْحَذِيَّةَ يا فلان)، فيقول اِقْمَحْ ـ اِقْمَحْ ـ وهي كلمة تَخْيِيب: ثم يقول للآخر، (الحذية يا فلان)، فيقول اِقْمَحْ اِقْمَحْ: وإن أعطاه أحد منهم شيئًا فإنما هي الناقة الضامر، والعجفاء، أو العرجا أو الهزيلة ونحوه، فالإبن يريد يغزو ويغامر بنفسه، لأجل يأخذ نصيبه من الغنائم إن كانت، من خيارها أُسْوَةَ الرجال الشجعان، ولا يرضى لنفسه بالدناءة وتَطَلُّب الحذية مع الراحة. كما قيل:

من لا يحوش الغنيمه حوش ذرعانه　　　مـا تنفعـه طعمـة مـن عنـد جيـرانـه

(انتهى).

---

(١) فمثل هذا الرجل الذي ليس به شجاعة يسمونه (بوبح).

كن على بصيرة في دينك

(كُتُبُ الحديث)، قيل:

قـد هَيَّـؤكَ لأَمْـرٍ لـو فَطِنْـتَ لـه   فَارْبَـىٰ بنفسك أن تَرعىٰ مع الْهَمَلِ

فحيث كانت الحياة ثمن نفسك، فاحرص على أن تشتريها بطاعة الله ولا تبيعها بلذة اتباع الهوى في الدنيا، فتخسرها في الآخرة ﴿ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[1]، ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[2].

فأنت بعتها على الله في الدنيا وربحتها في الآخرة.

والبرهان اليقين في نجاتك من النار: هو اتباعك القرآن، كلام الله سبحانه، واتباعك سنة الرسول محمد ﷺ، وهي محفوظة في كتب الحديث المعروفة، من زمان الصحابة رضي الله عنهم، إلى زماننا هذا وإلى قيام الساعة والحمد لله.

وكتب الحديث المعتمدة عند أهل السنة والجماعة هي: الأمهات الست أو السبع، وهي: صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند الإمام أحمد وجامع الترمذي وسنن أبي داود وسنن النسائي، ويلحق بها سابعًا سنن ابن ماجه. وأصحها صحيح البخاري، ثم صحيح مسلم كذلك.

---

(١) سورة الشورىٰ: الآية ٤٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١١.

وقد قال بعضهم شعرًا:

تخاصم عندي في البخاري ومسلمُ أُنـاسٌ وقـالـوا أيَّ ذَيْنِـي تقـدم
فقلـت لقـد فـاق البخـاري صحـة كمـا فـاز بحسـن الصنـاعـة مسلـم

فمسلم رحمه الله قد فاز بحسن صناعة تبويب الأحاديث على أبواب الفقه وترتيبها، فهو أول من بوب الفقه ورتبه حسب درجات العبادة، فكل العلماء بعده تلامذة عليه في هذا الترتيب، رحمه الله.

وغير هذه الكتب الأمهات السبع من كتب الحديث المعروفة عند أهل العلم، هي: فيها أحاديث صحيحة، وفيها أحاديث مقبولة إذا لم تخالف أحاديث الكتب الأمهات، وفيها أحاديث ضعيفة معمول بها، وأحاديث منكرة، وأحاديث موضوعة. وجميع كتب الحديث فيها أحاديث عام وخاص، وناسخ ومنسوخ، ومقدم ومؤخر، وراجح ومرجوح، ومرسل ومدرج، وغير ذلك من أحوال الأحاديث ودرجاته.

وبعض العلماء يتخصص بعلم الْجُرْحِ والتَّعْدِيل برجال الحديث وعِلَلِهِ، ويُرجَعُ إليهم في ذلك، وَقْتَ تدوين الأحاديث.

وأنت الآن إذا أردت العلم النافع، فارجع إلى ما دونوه ونقحوه، ولا تجعل دليلك كتابك بدون التعلم على العلماء الربانيين، فإنه غرور، لأن العلم نَقْلٌ وليس بِعَقل. (انتهى).

* * *

قـوة الفـراسـة

كان الأعراب في بعض الأوقات ليس عندهم علماء يحكمون بينهم في المخاصمات والحقوق، فيضطرون إلى اتخاذ رجل يحكم بينهم، يسمى العارفة ويحكم بِجُعْلٍ، أي (بأجرة).

فمن ذلك: عارفة نهاه ابنه عن العرافة، وقال: إنك تظلم نفسك وتظلم الناس لأنك ليس عندك علم تعمل عليه، قال أبوه: اتركني من قولك، هذا عملي وأنا أعلم به، فلم يرض الابن على أبيه في ذلك فغادره وذهب عنه، وفي حالة غيابه عن أبيه، شاهد امرأة ومعها صبي فقتلته، ولم تعلم أنه يشاهدها أحد، ثم وضعت أصبعيها في أذنيها وصاحت وناحت، فاجتمع الناس إليها فقالت: إن فلانة قتلت ابني: ـ تعني جارتها وهي الزوجة الثانية لزوجها ـ فأنكرت المرأة الثانية أنها قتلته. فاشتد الأمر، ثم إن ابن العارفة قال في نفسه، إن هذه المسألة لا بد أن تصل إلى أبي، فأنا أرجع وأجلس عنده لأعلم معرفته فيها، حيث أني شاهدت فيها ما لم يشاهده غيري. فرجع وجلس عند أبيه، وسرعان ما أتوا إليه يختصمون في المسألة، فادعت المرأة الأولى، بأن ضرتها قتلت ابنها، والمرأة الثانية نفت ذلك، فما زال في تحقيق معها، فأصرت على الإنكار، فأبعدها، وأحضر المرأة الأولى وقال: إن المرأة

لم تقتل الصبي ولكن انظري غيرها، فبكت وقالت: هذا اوليدي وأنا شاهدتها قتلته، كذا وكذا، فأبعدها وأحضر الثانية، وقال: أخبريني بالصحيح أحسن لك، وإلاَّ سوف أحكم عليك تقتلين؟ فأصرت على الإنكار بتاتًا، ثم قال لها: إن كنت صادقة ولم تقتليه فقومي هناك أمام الرجال وارفعي ثوبك عن عورتك، وأقبلي أمشي حتى تَصِلين الرجال الجالسين، وأنت كاشفة ثوبك؟ فقالت: أعوذ بالله من هذه الحال، فقال: لا بد أن تفعلي ذلك وإلا حكمت عليك بالقتل، فقالت: أنا لا أفعل هذا مهما حكمت، فأبعدها واستدعا المرأة الأولى، وروادها أن تعدل عن دعواها على هذه المرأة، وقال: إنها لم تقتله ولكن ادعي على غيرها، فقالت: لا أدعي على غيرها أبدًا، فقال: إن كنت صادقة أنها هي قتلته، فقومي أنت هناك وارفعي ثوبك عن عورتك إلى صدرك، ثم أقبلي حتى تقفي على جليسة الرجال هنا وأنت عارية والرجال ينظرونك، فإن فعلت هذا فأنت صادقة، فقالت: نعم سوف أفعل، فقامت ووقفت هناك، ثم رفعت ثوبها حتى بدا ما تحته، فأقبلت على الرجال حتى وقفت عليهم. فقال العارفة، أمسكوها فإنها هي التي قتلت ولدها لتدعي على جارتها تريدها تقتل، ولكن هي القاتلة فاقتلوها. فقام ابن القاضي (العارفه) وقال: أنا قد شاهدتها قتلته هي، وإني ساكت لأنظر كيف أنت تحكم، والآن ظهر أنك ذو فراسة قوية فأمض في عملك.

وقديمًا قيل: (رمتني بدائها وانسلت).

فانظر حكمة الباري سبحانه في تفاضل العقول والأخلاق، فالمرأة الأولى ليس عندها خلق طيب ولا عقل يحميها عن الفواحش، فسببت علـى نفسها شرًا عظيمًا، قتلت ولدها أولاً، وقتلت نفسها ثانيًا.

والمرأة الثانية: ملازمة العقل والخلق الكريم والعدالة، فجعل الله العاقبة الحسنة لها ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[1]. (انتهى).

* * *

(١) سورة الحج: الآية ٣٨.

فصل:
في الإحسان إلى ذوي القربى وإن أساؤا
وفي مكارم الأخلاق

قال المقنع الكندي (وكان سيدًا كريمًا):

يعاتبني في الدَّيْن قومي وإنما ... دُيُونِيَ في أشياء تكسبهم حمدا
أسدُّ به ما قد أخلُّوا وضيّعوا ... ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدّا
وفي جفنة ما يغلق الباب دونها ... مكللة لحمًا مدفقة ثردا
وفي فرس نهدٍ عتيق جعلته ... حجابا لبيتي ثم أخدمته عبدا
وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جدّا
فإن أكلوا لحمي وفرّت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غَيْبِيْ حفظت غيوبهم ... وإن هَوَوْا غَيِّيْ هَوَيْت لهم رشدا
وإن زجروا طيرًا بنحس تمرّ بي ... زجرت لهم طيرًا تمرّ بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهمو ... وليس كبير القوم من يحمل الحقدا
لهم فضل مالي أن تتابع لي غنى ... وإن قل مالي لم أكلفهمو رفدا

وقال معن ابن أوس المزني:

وذي رَحِمٍ قلّمت أظفار ضِغْنِهِ ... بحلمِيَ عنه وهو ليس له حلم

يحـاول رغمـي لا يحـاول غيـره
وكالموت عندي أن يحل به الرغم

حفظت الذي قد كان بيني وبينه
وهل يستوي حرب الأقارب والسِّلْمُ؟

فمـا زلـت فـي لينـي لـه وتَعَطُّفِـي
عليـه كمـا تَحْنُـو علـى الـولـد الأم

لأستـلّ منـه الضِّغْـن حتـى استللتـه
وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

* * *

فَقْرٌ بلا دَيْن غناة..
والسلامة نعمة لا يعدلها شيء

إن الدَّيْن هَمٌّ بالليل، ذل بالنهار، ولا يتجاسر على الدين رجل حازم، ما أمكنه.

قيل: إن رجلاً سأل شابًا عن أحواله؟ فقال الشاب: أبشرك يا عم أني غني، فقال الرجل: علمي أنك فقير، فقال: لا، أنا غني لأني ليس عليَّ دين والحمد لله، وصدق رحمه الله.

وهناك فلان الفلاح، وكانت له ناقة خلفة (فيها حليب) وقد جاورته امرأة هي وابنها غير كبير، في بيت شعر في ناحية ملكه، فقال الفلاح: لولدها أخبر أمك أنا أريد أبيع عليكم هذه الناقة تحلبونها: والدراهم (القيمة) طلقة، ما أبغي منكم دراهم بالوقت الحاضر؟ (يعني يترك الدراهم دينًا عليهم). ففرح الجذع وأخبر أمه بذلك قائلاً: نريد نشتري ناقة جارنا فلان نحلبها ونشرب حليبها، ويصير لنا ناقة مثل الناس؟ فقالت أمه: حنا ما عندنا دراهم نشتري بها الناقة يا ولدي. فقال الولد: إنه يقول ما أبغي منكم دراهم بالوقت الحاضر، فقالت:

والله يا ولدي الناقة زينة والحليب زين، ولكن إذا حلت دراهم

ابن عجلان بعد مدة سنة من أين نوفيه؟ ولكن يا ولدي (فقر بلا دَيْن غناة، والطمع طبع) وصدقت والله رحمها الله.

مَرَّ رجل على دكان بائع اللحم، فقال له: اشتر لحم، فقال الرجل ليس معي فلوس، فقال البائع: أصبر عليك بالقيمة، فقال الرجل: أنا أصبر على نفسي. قيل: مثال الرجل الذي عليه دين مثل الرجل المملوك، والرجل الذي ليس عليه دين مثل الرجل الحر، ولا يعرف قدر هذا الكلام إلاَّ الذي قد جربه. (انتهى).

* * *

مناط نظريات الناس

قيل:

إن الدراهم في المواطن كلها تكسو الرجال مهابة وجمالا
هي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السلاح لمن أراد قتالا

وقيل:

مَنْ عنده مال فالناس إليه مال
ومَنْ لا عنده مال فالناس عنه مال
ومَنْ عنده ذهب فالناس إليه ذهب
ومَنْ لا عنده ذهب فالناس عنه ذهب
ومَنْ عنده فضة فالناس إليه منفضة
ومَنْ لا عنده فضة فالناس عنه منفضة

قيل: كان رجل تاجر شحيح، فقال له ابنه: إني أرى الناس يحبوننا ونحن لم ننفعهم بشيء، فقال الأب: لكن محبوبهم عندنا، (يعني المال). وقيل:

إذا قل مال المرء قل اصدقاءه وضاقت عليه أرضه وسماءه
وأصبح لا يدري وإن كان حازماً أقدامه خيرٌ له أم وراءه

* * *

المهموم لا يتلذذ بأكل ولا نوم

قال الشاعر:

لـو أتمنـى قلـت أبـي رأس عكـوم   بـالليـل وإلا بـالنهـار أبـي راسـي
وإلاَّ أبـي لـي معـدة مثـل حمـوم   حيثـه تحـدِّرْ كـل ليـن وقـاسـي

عكوم هذا وأمثاله، رجل غير كامل العقل، ولكنه عُوِّض عنه صحة الجسم وقلة الإحساس، فهو يضع رأسه أول الليل على حجر في الشارع عند أحد الأبواب، إذ كانت الشوارع ليس فيها سيارات، فينام ليله كله ولا يستيقظ إلى طلوع الشمس، وأما الشاعر هذا وأمثاله فهو ينام على وسادة ريش، وقد يتقلب ليله من ملل رأسه من الوسادة، فهو يتمنى أن يكون له في الليل مثل رأس عكوم، ليستريح في نومه، أما في النهار فهو لا يريد إلاَّ رأسه للعقل والأفكار.

وكذلك حَمُّوم وأمثاله معدته تهضم ما حصل فيها من الطعام، من طيب ورديء ولين وقاسي ونيء وناضج وقليل وكثير، وأما الشاعر هذا وأمثاله فهو يُعمل له طعام خفيف شهي لذيذ ناضج، وعلى ما يشتهي، فلا يأكل منه إلاَّ بلغة قليلة وربما يتأثر معه في معدته، فهو يتمنى أن يكون له معدة تهضم الطعام مثل معدة حموم، فسبحان الحكيم في خلقه.

وهذا الشاعر له كلام من الحكم، من ذلك قوله:

ترى المريح اللي من العقل مسلوب لا شفت عاقل ترى الهم دابُهْ
إيلادَكْ به هاجوس ما يسمع الطَّوْب وإيلا انتبه ما جابت الورق جابه
إيلا صرت في صوب وعايلتك في صوب لا تنشد المسكين يكفيك ما به

وقال أيضًا:

إيلا صرت ما تدعىٰ إيلا صار قاله تراك من حسبت ارجال بالازوال

القالة هي شدائد الأمور، مثل اللقا في الحرب، والمشاكل بين الناس، والصعوبات التي تحتاج جهود وصبر وجَلَد، وغير ذلك من الأمور والقالات، التي لا يدعا لها إلاَّ من به كفاية لها، ويترك من لا يعرف به كفاية لها: إذ ليس كل أحد يحصل به المقصود، وعند الشدة والتجربة يحصل التمييز بين الطيب والردي من الناس، فأكثر الناس إنما هم حسبة أزوال (أي أعداد) من الناس لا فائدة فيهم، كما قيل:

لولا المشقة ساد الناس كلهمو الجود يفقر والإقدام قتال

(انتهى).

* * *

ما هي بشرى.. لعل ما هو أنت

كان رجل هنا يؤذي الناس بعينه، (وهي نفس العائن)، وكان الناس يتحاذرونه، فقدر الله سبحانه أن عمي بصره فاستراحوا منه.

ثم بعد ذلك حصل له سبب، بأن ضرب جبهته عمود المسجد، فانفتحت عيناه وأبصر: فتذاكره بعض الجماعة في مجلسهم قائلاً: (أرأيتم فلانًا فَتَّح)؟ يعني أبصر، وكان أحد الجماعة سريع البديهة فأجاب قائلاً (ما هي بشرى ليته ما فتح)، فأعجب الجماعةَ قولُه، وقالوا صدقت ليته دائمًا أعمى، ومثل هذا من يؤذي الناس في سائر الأحوال، فيفرحون بهلاكه وبعده، ولا يفرحون بسلامته وقربه. (انتهى).

* * *

يعلم حماره القنبزة

ومن العيايرة في مصر في القديم: بعض الحمارين، من له حمار يعمل عليه يكارى في السوق لطلب لقمة العيش، وفي ذاك الوقت، إذا احتاجت الحكومة بعض الأعمال أجبرت الحمارين لأعمال الحكومة مجانًا، ولكن هذا الحَمَّار قد علَّم حماره القنبزه: فإذا جاءهم التصخير (وهو إجبار الحكومة الحمارين على أعمال الحكومة: قال لحماره (آه: صِخْرِه يا ابن الكلب)، فيرفع الحمار رجله ويمشي على ثلاث كأن رجله مكسورة: فإذا رآه رجال الحكومة هكذا تركوه، على إن الحمار قد حدث به ضرر في رجله: فإذا ذهبوا عنه قال لحماره (آه: معاش يا ابن الكلب) فيوطىء الحمار رجله ويسير معتدلاً شد جهده.

والقنبـزة: نسبـة لأفعـال القنبـازي، أو الشقبـازي، الحيـوان المعروف، المغايرة الاعتدال إلى الاحتيال والخداع).

ومن العيايرة أيضًا وأفعال القنبزة

جماعة استأجرهم إنسان يبنون له جدارًا من الطين، فلما انتهوا من بنائه وإذا هو مائل سوف يسقط، فقال بعضهم، يذهب أحدكم يأخذ الأجرة من صاحبه ونحن نمسكه، لألاّ يسقط حتى نأخذ الأجرة ثم نتركه. (انتهى).

* * *

الاسم للإنسان حصن حصين

المراد بالاسم هنا هو: ذكر اسم الله، إذا استوحش الإنسان.

لَمَّا كان الإِنسان عرضة لسهام أعدائه شياطين الجن والإِنس، جعل الله له حرزًا يتحرز به عنهم وعن شرهم، فلا يحرزه منهم إلَّا هذا الحرز الرباني، قال الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ ﴾[1]، وكان العرب قبل الإِسلام، إذا نزل أحدهم واديًا أو استوحش، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ــ يستعيذ بسيد الجن من شرقومه، فقال النبي ﷺ: «من نزل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك» الحديث رواه مسلم، وكذلك من قالها إذا أصبح لم يضره شيء حتى يمسي ومن قالها إذا أمسى لم يضره شيء حتى يصبح، (وكلماتُ الله التَّامَّات هي التي كون بها المخلوقات)، قاله شيخ الإِسلام في «الفتاوى»، وكذلك إذا قرأ آية الكرسي عند النوم فإنه لا يقربه شيطان، وفي الصباح والمساء وبعد الصلاة فتكون له حرزًا من كل شر، وكذلك قراءة سورة المعوذتين (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس، وكان النبي ﷺ يتعالج بهنَّ وبسورة الفاتحة وبنوازع آيات من

(١) سورة فصلت: الآية ٣٦.

القرآن وأدعية وتعوذات نبوية فيشفى بها، فيه حديث أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها.

قيل: جاء رجل في الليل من البر إلى قرية هناك، وفي ناحيتها بيت خَرِب، ويريد يدخل فيه يَتَذَرّا فيه عن البرد، فلما قرب منه وإذا فيه نساء جنّ يغنن على طحن الرحا.

تقـــول واحـــدة ثـــم تقـــول الثـــانيـــة

الاسـم لـلإنسـان حِصْـنٌ حصيـن مِيـر إنَّ الإنسـان لـلإسـم نَسّـايْ

ففطن للإسم فجعل يسمي يقول: بسم الله، بسم الله الرحمن الرحيم، فسكت الصوت وذهبت عنه الوحشة، فدخل ونام فيه ليله بعافية، والتسمية بركة واستعانة في مبدأ كل عمل وكل حال وكل أمر وفي كل حركة. (انتهى). قيل:

لـولـي عيـال كـان شَبَّـوْ لـي النـار ويوسعون الصدر إيلا جاه ضيقه

أما شب النار فهو قَبْسُها: وهو هنا كناية عن إصلاح الحال والقيام بأمور أبيه (عادة الأولاد ذاك الوقت)، يريحون آبائهم من الأشغال والأتعاب، كما قيل:

ولد الشارب للحية، وولد اللحية للشيبة، وولد الشيبة للخيبة.

معنى ذلك أن الرجل إذا تزوج مبكرًا حال نبات شعر شاربه، ثم ولد له ولد فإنه ينفعه في وقت متوسط عمره، وإذا ولد له ولد في متوسط عمره، فإنه ينفعه في آخر عمره وقت الشيبة، وإذا لم يولد له ولد إلاَّ في آخر عمره فإنه لا يدركه فينفعه. (انتهى).

* * *

خاتمة

انتهى المجلد الأول، ويليه إن شاء الله،

المجلد الثاني، وأوله: من سلوم الرجال الطيبة

فهرس المجلد الأول

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
* المراوح في القديم	١١٨
* أنواع العقل	١٢٠
* المخلب	١٢٢
* كرام النفوس	١٢٥
* راضة النفس	١٢٨
* من الخطابة في الجاهلية	١٣١
* الحَجْر عادة سيئة	١٣٣
* قصة المهادي الأولى	١٣٧
* الفداوى: غلط	١٤٠
* قصة أخرى في التحجير	١٤١
* رجولة للعشق	١٤٤
* أهم خصال الرجال	١٤٦
* الوسم	١٤٨
* تضخم النفس لماذا؟	١٥٠
* المسؤولية الهامة	١٥٤
* البوادر في الأولاد	١٥٦
* ومن الحكمة في الخلق	١٥٨
* ضرافه	١٦١
* فروق الرجال والنساء	١٦٦
* في طرفه	١٦٦
* نعمة الأمن	١٧٠

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

● ● ●